﴿قَاتِلُوهُمْ يُعَذِّبْهُمُ اللهُ بِأَيْدِيكُمْ، وَيُخْزِهِمْ وَيَنْصُرْكُمْ عَلَيْهِمْ وَيَشْفِ صُدُورَ قَوْمٍ مُؤْمِنِينَ﴾.

صدق الله العظيم ـ سورة التوبة ـ الآية ١٤.

الفصل الثاني

الحروب الخارجية

- ١ ـ الجهاد على جبهة الروم.
  - أ ـ قصة حرب الروم في نصف قرن.
  - ب ـ الرشيد وإعادة التنظيم.
  - جـ ـ عمورية المعتصم والعودة للهدوء.
  - د ـ ضعف القيادة.
- ٢ ـ الحمدانيون وحرب الثغور.
  - أ ـ بنو حمدان.
  - ب ـ سيف الدولة والحروب مع الروم.
  - جـ ـ المأزق الصعب.
  - د ـ الأيام الأخيرة للحمدانيين.
- ٣ ـ الاتراك السلاجقة.
  - أ ـ الروم ومناوراتهم بين مراكز القوى.
  - ب ـ السلاجقة وجهاد الروم.
  - جـ ـ ملاز كرد.
- ٤ ـ الحروب على جبهة الشرق.
  - ا ـ سبكتكين ودولته.
  - ب ـ يمين الدولة محمود في أعظم غزواته.
  - جـ ـ بناء الجبهة الداخلية
  - د ـ على نهج السلف.
- ٥ ـ الحروب البحرية
  - أ ـ مصر تقود الجهاد البحري.
  - ب ـ صقلية قاعدة للمسلمين.




١ - الجهاد على جبهة الروم

ا - قصة حرب الروم في نصف قرن .

ب - الرشيد وإعادة التنظيم .

جـ - عمورية المعتصم والمودة للهدوء .

د - ضعف القيادة . .

أ ـ قصة حرب الروم في نصف قرن.

تنفس الروم الصعداء بزوال الحكم الأموي الذي جثم على صدرهم؛ والذي وضع منذ أيام معاوية بن أبي سفيان نهجاً ثابتاً بالتضييق على الروم؛ وشد وثاقهم؛ فلما حدث التحول، قام ملك الروم ـ قسطنطين ـ بقيادة جيوشه إلى ملطية وكمخ؛ فنازل كمخ؛ فأرسل أهلها إلى أهل ملطية يستنجدونهم؛ فسار إليهم منها ثمانمائة مقاتل، فقاتلهم الروم؛ فانهزم المسلمون. ونازل الروم ملطية وحصروها؛ والجزيرة يومئذ مفتونة بالقتال بين العباسيين والأمويين (سنة ١٣٣ هـ = ٧٥٠ م). فأرسل قسطنطين إلى أهل ملطية: **«إني لم أحصركم إلا على علم من المسلمين واختلافهم؛ فلكم الأمان وتعودون إلى بلاد المسلمين حتى أحترث ملطية»**. فلم يجيبوه إلى ذلك؛ فنصب المجانيق؛ فأذعنوا وسلموا البلد على الأمان؛ وانتقلوا إلى بلاد الإسلام؛ وحملوا ما أمكنهم حمله؛ وما لم يقدروا على حمله ألقوه في الآبار والمجاري. ورحلوا عنها عائدين؛ وتفرق أهلها في بلاد الجزيرة. ولما علم ملك الروم برحيلهم سار إلى قاليقالا؛ فنزل مرج الخصي؛ وأرسل كوشان الأرمني فحصرها، ونقب أخوان من الأرمن من أهل المدينة ردماً كان في سورها؛ فدخل كوشان ومن معه المدينة؛ وغلبوا عليها؛ وقتلوا رجالها وسبوا النساء؛ وساق الغنائم إلى ملك الروم(*) . ولم يكن باستطاعة أمراء العباسيين إغضاء الطرف عمّا كان يحدث على حدود بلاد الروم. فلما كانت سنة ١٣٨ هـ = ٧٥٥ م. **تولى (صالح بن عبدالله) قيادة الصائفة ومعه أختاه أم عيسى ولبابة بنتا علي ـ وكانتا نذرتا أن تجاهدا في سبيل الله ـ إن زال ملك بني أمية ـ** وكان معه أيضاً (العباس بن محمد بن علي) و(عيسى بن علي بن عبدالله). وبنى صالح ما كان ملك الروم أخربه من سور ملطية؛ وقام المنصور

(*) الكامل في التاريخ ـ احداث سنة ١٣٣ و١٣٩ هـ وتاريخ الطبري احداث سنوات ١٣٨ هـ ـ و١٣٩.

فاستفدى من ملك الروم أسرى (قاليقالا) وغيرهم؛ وبناها وعمرها ورد اليها أهلها؛ وندب إليها جنداً من أهل الجزيرة فأقاموا بها وحموها. وتكررت الصوائف من دربي الحدث وملطية (بقيادة جعفر بن حنظلة المهراني والحسن بن قحطبة). وأقبل صاحب الروم - قسطنطين - في مائة ألف مقاتل؛ ونزل جَيْحان؛ فلما بلغه كثرة المسلمين أحجم عنهم، ثم لم يكن بعد ذلك صائفة حتى سنة ١٤٦ هـ. بسبب انصراف (المنصور) للقضاء على فتنة (عبدالله بن الحسن). وقد كانت الاضطرابات الداخلية حافزاً للتحرك على الحدود ففي سنة ١٤٥ هـ - خرجت الترك والخزر بباب الأبواب (باكوحالياً) فقتلوا من المسلمين بأرمينية جماعة كثيرة. **فقام مالك بن عبدالله الخثعمي - وهو من أهل فلسطين ويقال له: مالك الصوائف - بغزو بلاد الروم؛ فغنم غنائم كثيرة؛ ثم قفل؛ فلما وصل إلى درب الحدث على خمسة عشر ميلاً بموضع يدعى (الرهوة) نزل بها ثلاثاً؛ وباع الغنائم؛ وقسم سهام الغنيمة؛ فسميت تلك الرهوة باسم (رهوة مالك).**

عاد الترك بقيادة إسترخان الخوارزمي للاغارة على ناحية أرمينية؛ ودخلوا تفليس، وسبوا من المسلمين وأهل الذمة خلقاً كثيراً. وبلغ ذلك أبا جعفر المنصور؛ فوجه لحربهم جبرئيل بن يحي؛ وأمر حرب بن عبد الله الراوندي بالقوة التي معه في الموصل لاخضاع الخوارج بالجزيرة، للتوجه ودعم جبرئيل - وسار (حرب) ومعه ألفان من الجند. فانتصر عليهم الترك وهزم جبرئيل وقتل حرب ونكب المسلمون (سنة سبع وأربعين ومائة). فلما كانت السنة التالية؛ وجه المنصور جيشاً بقيادة (حميد بن قحطبة) لحرب الترك في أرمينية؛ فسار حميد حتى دخل تفليس، فوجد أن الاتراك قد ارتحلوا؛ فانصرف ولم يلق منهم أحداً. ولم تحدث بعد ذلك مواجهة أو غزو حتى (سنة ١٥٢ هـ) حيث تولى محمد بن إبراهيم الامام - وقيل أخوه عبد الوهاب بن إبراهيم - قيادة الصائفة. ولكنه توقف عن الغزو ولم يدخل (الدروب). وفي السنة التالية (١٥٣ هـ) غزا الصائفة (معيوف بن يحي الحجوري) فصار إلى حصن من حصون الروم ليلاً؛ وأهله نيام؛ فسبى وأسر من كان فيه من المقاتلة، ثم صار إلى اللاذقية المحترقة؛ ففتحها وأخرج منها ستة آلاف رأس من

السبي؛ سوى الرجال البالغين. وشهدت الحدود حالة من الهدوء (حتى سنة ١٥٩ هـ = ٧٧٥ م) حيث تولى (العباس بن محمد) قيادة الصائفة؛ ودفع العباس على مقدمته (الحسن الوصيف) في الموالي، وكان المهدي قد ضم إليه جماعة من قواد أهل خراسان وغيرهم. وخرج المهدي فعسكر (بالبردان) حتى أنفذ العباس بن محمد ومن قطع عليه البعث معه؛ ولم يجعل للعباس على (الحسن الوصيف) ولاية في عزل ولا غيره. وسار العباس بن محمد ففتح غزاتة هذه مدينة للروم ومطمورة معها، ووصل إلى أنقرة، ولما لم يجابهه أحد، قفل راجعاً ولم يصب من المسلمين أحد. **وفي السنة الثانية (١٦٠ هـ = ٧٧٦ م) تولى (ثمامة بن الوليد) قيادة الصائفة؛ فنزل مرج دابق؛ وجاشت الروم؛ وهو مغتر؛ فأتت طلائعه وعيونه بذلك؛ فلم يحفل بما جاؤوا به؛ وخرج إلى الروم؛ وعليها ميخائيل بسرعان الناس؛ فأصيب من المسلمين عدة؛ وكان (عيسى بن علي) مرابطاً بحصن مرعش يومئذ، فلم يكن للمسلمين في ذلك العام صائفة من أجل ذلك.** وفي السنة التالية؛ قاد قائد الروم (ميخائيل) جيشاً من ثمانين ألفاً؛ فأتى عمق مرعش، فقتل وسبى وغنم، ثم حاصر مرعش؛ وقتل عدداً كبيراً من المسلمين. وانصرف (ميخائيل) إلى جيحان. وتجنب (ثمامة بن الوليد) الصدام؛ مما أغضب المهدي، فأخذ في التجهز لغزو الروم. وقاد (الحسن بن قحطبة) الصائفة في ثلاثين ألف مرتزق سوى المتطوعة - فبلغ (حمة أذْرُولية) فأكثر التخريب والتحريق في بلاد الروم؛ من غير أن يفتح حصناً؛ أو يلقى جمعاً؛ وسمته الروم (التنين). ورجع بالناس سالمين.

علم أمير المؤمنين (المهدي) بحشود الروم؛ فخرج من الغد إلى (البردان) متوجهاً إلى الصائفة؛ واستخلف ببغداد (موسى بن المهدي). وقطع البعوث للصائفة على جميع الأجناد من أهل خراسان وغيرهم. وأقام في (البردان) نحواً من شهرين وهو يتعبأ ويتحشد ويعطي الجنود؛ وأخرج بها صلات لأهل بيته الذين شخصوا معه (سنة ١٦٣ هـ = ٧٧٩ م). وعندما أنهى الاستعدادات، أسند قيادة الصائفة إلى ولي العهد (هرون الرشيد) ورفده بالحسن وسليمان ولدي خالد بن برمك وعيسى بن موسى وعبد الملك بن صالح والربيع، والحسن بن قحطبة؛ وشيع (المهدي) ابنه (هرون) حتى قطع

الدرب وبلغ نهر جيحان؛ وارتاد بها المدينة التي تسمى (المهدية). وسار هرون حتى نزل رستاقاً من رساتيق أرض الروم فيه قلعة (يقال لها سمَالو) فأقام عليها ثمانياً وثلاثين ليلة؛ ونصب عليها المجانيق؛ حتى فتحها الله بعد تخريب لها؛ وعطش وجوع أصاب أهلها؛ وبعد قتل وجراحات كانت في المسلمين. وكان فتحها على شروط شرطوها لأنفسهم وهي: لا يقتلوا ولا يُرَحلوا؛ ولا يفرق بينهم؛ فأعطوا ذلك، فنزلوا. ووفى هرون لهم. ثم قفل بالمسلمين سالمين؛ إلا من كان أصيب منهم أثناء القتال. فلما كانت السنة التالية قاد (عبد الكبير بن عبد الحميد بن عبد الرحمن بن زيد ابن الخطاب) الصائفة؛ وسار بها من درب (الحدث) فأتاه بطريق الروم ميخائيل في نحو من تسعين ألفاً؛ فيهم بطريق الأرمن طازاذ؛ فخاف عبد الكبير ومنع الناس من القتال ورجع بهم؛ فأراد المهدي قتله؛ فكلم فيه فحبسه في المطبق. فلما كانت السنة التالية: (١٦٥ هـ = ٧٨١ م) وجه المهدي ابنه (هرون الرشيد) لقيادة الصائفة وغزو بلاد الروم في خمسة وتسعين ألفاً وتسعمائة مقاتل. فأوغل هرون في بلاد الروم؛ وافتتح (ماجدة) ولقيته خيول قومس القوامسة (نقيطا) فبارزه (يزيد بن مزيد الشيباني) وقتله وانهزمت الروم، وغلب يزيد على عسكرهم. وسار هرون بجيشه لقتال قائد مسالح الروم - الدمستق - فجاءه هذا حاملاً معه مائة ألف دينار؛ وثلاثة وتسعين ألفاً وأربعمائة وخمسين ديناراً. ومن الورق أحداً وعشرين ألف ألف درهم وأربعة عشر ألف وثمانمائة درهم. وتابع هرون تقدمه حتى بلغ خليج البحر الذي على القسطنطينية، وكانت ملكة الروم يومها أغسطة امرأة ليون، وذلك لأن زوجها كان قد هلك وترك ابناً صغيراً في حجرها - وصايتها - فجرت بينها وبين هرون الرشيد اتصالات بواسطة الرسل والسفراء في طلب الصلح والموادعة؛ وإعطائه الفدية؛ فقبل ذلك منها هرون. وشرط عليها الوفاء بما أعطت له، وأن تقيم الأدلاء والأسواق في طريقه؛ ذلك أنه دخل مدخلاً صعباً مخوفاً على المسلمين فأجابته إلى ما طلب. وتضمنت شروط الصلح دفع تسعين أو سبعين ألف دينار؛ تؤديها في نيسان الأول في كل سنة وفي حزيران. فقبل ذلك منها؛ فأقامت له الأسواق في منصرفه. ووجهت معه رسولاً إلى المهدي بما بذلت على أن تؤدي ما تيسر من الذهب

والفضة والعَرض. وكتبوا كتاب الهدنة إلى ثلاث سنين؛ وسلمت الأسارى. وكان الذي أفاء الله على هارون إلى أن أذعنت الروم بالجزية خمسة آلاف رأس وستمائة وثلاثة وأربعين رأساً. **وقتل من الروم في الوقائع أربعة وخمسون ألفاً - وقتل من الأسارى صبراً ألفان وتسعون أسيراً.**

وكان مما أفاء الله عليه من الدواب الذلل بأدواتها عشرون ألف دابة؛ وذبح من البقر والغنم مائة ألف رأس. وكانت المرتزقة سوى المطوعة وأهل الأسواق مائة ألف. وبيع البرذون بدرهم والبغل بأقل من عشرة دراهم؛ والدرع بأقل من درهم؛ وعشرون سيفاً بدرهم، فقال الشاعر (مروان بن أبي حفصة) يمتدح هرون؛ ويشيد بانتصاره:

أطفت بِقُسطنطينية الروم مسنداً إليها القنا حتى اكتسى الذُّلَّ سورها
وما رمتها حتى أتتك ملوكها بجزيتها؛ والحرب تغلي قدورها

عاد الروم فنقضوا الصلح الذي كان جرى بينهم وبين هرون؛ وغدروا (سنة ١٦٨ هـ = ٧٨٤ م). فكان بين أول الصلح وغدر الروم ونكثهم به اثنان وثلاثون شهراً. فوجه والي الجزيرة وقنسرين (علي بن سليمان) جيشاً بقيادة (يزيد بن بدر بن البطال) فغزا بلاد الروم، وظفر وغنم. وفي السنة التالية تولى (معيوف بن يحيى) قيادة الصائفة وسار بها من درب الراهب. وكان بطريق الروم قد قاد جيشه إلى (الحديثة) فهرب الوالي وأهل السوق، فدخلها الروم؛ فقصدهم (معيوف) فبلغ مدينة (أشنة) فغنم وسبى ورجع، **انقضى بذلك نصف قرن منذ قيام الدولة العباسية؛ توقفت فيها الصوائف، وحرب الثغور، عن المسيرة المنتظمة التي كانت عليها في العهد الأموي. ولكن مقابل ذلك أخذت حرب الثغور في أحيان كثيرة شكل حملات ضخمة؛ بجيوش جرارة؛ لم يعرفها العهد الأموي.** وكان باستطاعة الروم الافادة من فترة العطالة هذه؛ غير أن الروم - البيزنطيين - قد تعرضوا بدورهم لهزات عنيفة واضطرابات قوية كادت تعصف بكيان الدولة؛ كما تعرضت دولة الروم للحرب على جبهة الغرب - البلغار - مما وضعها أمام خيار صعب؛ اضطرها لقبول الهدنة وعقدها مع الرشيد.

ولقد أدى زيادة حجم الجيوش الإسلامية إلى إجراء تبديل كبير في بنيتها التنظيمية

وفي طريقة ادارة الحرب؛ وفقدت الجيوش بعض مرونتها وخفة حركتها؛ بسبب اعتمادها على (الأسواق - أو الذيل الاداري وفقاً للمصطلحات الحديثة). وظهرت ضرورة تعيين قادة للشؤون الادارية والمالية (فقد كانت مهمة يحيى بن خالد البرمكي في حملة الرشيد سنة ١٦٣) هي العناية بأمر العسكر ونفقاته وكتابته. كما ظهر دور ما يمكن تسميته (بهيئة الأركان) حيث كان يعمل الربيع الحاجب ويحيى مع الرشيد الذي كان يشاورهما ويعمل برأيهما. ولقد ظهرت حاجة الجيش للامداد الاداري عندما فرض الرشيد على ملكة الروم (تأمين الأسواق للجند) وتم ذبح مائة ألف رأس من البقر والغنم لتأمين اطعام الجيش (في غزوة سنة ١٦٥ هـ). وصحيح أنه تم تأمين متطلبات الجيش من مسرح العمليات، مما ضمن نوعاً من خفة الحركة للجيش؛ إلا أن تأمين مثل هذا الامداد قد ربط تحرك الجيش بمصدر تموينه؛ مما فرض بالتالي قيوداً على تحركه. وكان ذلك أبرز ما حدث من تطورات على مستوى التنظيم والادارة، أما بالنسبة للأعمال القتالية على مستوى العمليات؛ فقد سارت على النهج المميز لأساليب قتال المسلمين = وأبرز ملامحه: **الروح الهجومية؛ والتصميم على انتزاع النصر والروح المعنوية العالية.**

ب - الرشيد - واعادة التنظيم.

لقد مارس الرشيد قيادة الصوائف قبل أن يتولى (إمارة المؤمنين) وعرف أهمية حرب الثغور؛ وخطر الروم على الدولة؛ فكان أول عمل له (سنة ١٧٠ هـ = ٧٨٦ م) **هو عزل هذه الثغور كلها عن الجزيرة وقنسرين - وكانت من قبل تابعة لها - وجعلها حيزاً واحداً وسميت (العواصم). وأمر بإعادة تحصين وبناء (طرسوس) لتكون عاصمة متقدمة.** وكلف (أبا سليم فرج - الخادم التركي) بهذه المهمة، فلما تم البناء؛ نزلها الناس. وكلف (سليمان بن عبدالله البكائي) لقيادة الصائفة في هذه السنة. وقام (اسحق بن سليمان بن علي) بقيادة الصائفة في السنة التالية (١٧٢ هـ = ٧٨٨ م) وقاد (عبد الملك بن صالح) غزوة الصائفة سنة ١٧٤ هـ؛ وفي السنة التالية قادها (عبد الرحمن بن عبد الملك بن صالح) فبلغ (اقريطية) وأصاب المسلمين في

غزاتهم هذه برد شديد تقطعت له أيديهم وأرجلهم. واستمرت الصوائف بعد ذلك فقادها سنة ١٧٦ هـ (عبد الرحمن بن عبد الملك) وقادها في السنة التالية (عبد الرزاق ابن عبد الحميد التغلبي. حتى إذا ما كانت سنة ١٨١ هـ = ٧٩٧ م غزا الرشيد بنفسه أرض الروم؛ فافتتح بها عنوة حصن الصفصاف ـ وفي ذلك قال شاعر الرشيد (مروان ابن أبي حفصة):

إن أمير المؤمنين المصطفى قد ترك الصفصاف قاعاً صفصفا

وفي الوقت ذاته قاد (عبد الملك بن صالح) غزوة الصائفة؛ وأوغل بها حتى بلغ أنقرة وافتتح مطمورة. وقام عبد الرحمن بن عبد الملك بقيادة الصائفة في السنة التالية (١٨٢ هـ) فبلغ مدينة (دفسوس) والتي قيل انها هي مدينة (أصحاب الكهف).

لقد بلغ من شدة اهتمام الرشيد بحرب الروم؛ أنه وهب ابنه (القاسم) لله؛ وجعله قرباناً؛ ووقفه للجهاد في سبيل الله فولاه سنة ١٨٧ هـ = ٨٠٢ م قيادة الثغور، وأغزاه الصائفة. ودخل (القاسم) أرض الروم؛ فأناخ على (قُرة) وحاصرها؛ ووجه العباس بن جعفر بن محمد بن الأشعث؛ فأناخ على حصن (سنان) حتى جهدوا؛ فبعثت إليه الروم تبذل له ثلاثمائة وعشرين رجلاً من أسارى المسلمين؛ على أن يرحل عنهم؛ فأجابهم إلى ذلك؛ ورحل عن (قرة) و(حصن سنان) صلحاً. ولكن سرعان ما نكث الروم ميثاقهم الذي عقدوه مع القاسم؛ وذلك بمجرد انسحاب القاسم. ويظهر أن الهزيمة التي نزلت بالروم كانت سبباً في حدوث انقلاب. فقد عمل الروم سنة ١٨٢ هـ على سمل عيني ملكهم قسطنطين بن أليون، وأقروا أمه ريني ـ الملقبه بأغسطة ـ على الملك. فلما نزلت الهزيمة بقوات الروم مرة أخرى سنة ١٨٧ هـ ـ عاد الروم فخلعوا ريني، وملكوا عليها نقفور؛ وتذكر الروم أن نقفور هذا هو من أولاد جفنة من غسان ـ ملوك الشام قبل الفتح ـ وأنه كان قبل الملك يلي ديوان الخراج، ثم ماتت ريني بعد خمسة أشهر من خلع الروم إياها، فلما ملك نقفور واستوثقت له الروم بالطاعة؛ كتب إلى الرشيد:

«من نقفور ملك الروم؛ إلى هارون ملك العرب؛ أما بعد: فإن الملكة التي كانت

قبلي أقامتك مقام الرخ، وأقامت نفسها مقام البيدق، فحملت إليك من أموالها ما كنت حقيقاً بحمل أمثالها إليها، لكن ذاك ضعف النساء وحمقهن، فإذا قرأت كتابي، فاردد ما حصل قبلك من أموالها، وافتد نفسك بما يقع به المصادرة لك، وإلا فالسيف بيننا وبينك». **فلما قرأ الرشيد الكتاب، استفزه الغضب حتى لم يمكن أحداً أن ينظر إليه أو يخاطبه، وتفرق جلساؤه خوفاً من زيادة قول أو فعل يكون منهم، واستعجم الرأي على الوزير من أن يشير عليه أو يتركه يستبد برأيه دونه - فدعا بدواة وكتب على ظهر الكتاب: «بسم الله الرحمن الرحيم. من هارون أمير المؤمنين إلى نقفور كلب الروم. قد قرأت كتابك يا بن الكافرة. والجواب ما تراه دون أن تسمعه»**. ثم شخص من يومه، وسار حتى أناخ بباب (هرقلة) ففتح وغنم واصطفى وأفاد وخرب وحرق واصطلم. فطلب نقفور الموادعة على خراج يؤديه في كل سنة، فأجابه إلى ذلك. فلما رجع من غزوته وصار بالرقة، نقض نقفور العهد وخان الميثاق. وكان البرد شديداً، مما أقنع نقفور بعدم إمكان عودة الرشيد إليه، وجاء الخبر بارتداده عما أخذ عليه، فلم يتمكن أحد من رجال الرشيد من إخباره، إشفاقاً عليه وعلى أنفسهم من الكرة في مثل تلك الأيام، فاحتيل عليه بشاعر من جنده ليعلمه بالخبر، ووضع الشاعر قصيدة ألقاها على الرشيد (*) .

(*) قيل ان هذا الشاعر هو أبو محمد عبدالله بن يوسف، وقيل انه الحجاج بن يوسف التيمي. وكانت القصيدة:

نقض الذي أعطيته نقفور ... وعليه دائرة البَوار تدور
فتح يزيد على الفتوح يؤمنا ... بالنصر فيه لواؤك المنصور
أبشر أمير المؤمنين فإنه ... غنمٌ أتاك به الإله كبير
فلقد تباشرت الرعية أن أتى ... بالنقض عنه وافد وبشير
ورجت يمينك أن تعجل غزوة ... تشفي النفوس مكانها مذكور
أعطاك جزيته وطأطأ خده ... حذر الصوارم والردى محذور
فأجرته من وقعها وكأنها ... بأكفنا شُعَلُ الضرام تطير
وصرفت بالطول العساكر قافلاً ... عنه وجارك آمن مسرور
نقفور إنك حين تغدر إن نأى ... عنك الإمام لجاهل مغرور
أظننت حين غدرت أنك مفلتٌ ... هبلَتْكَ أمك ما ظننت غرور!

فقال الرشيد: «أو قد فعل ذلك نقفور؟» ورجع إلى بلاد الروم في أشد زمان وأعظم كلفة حتى شفى؛ واشتفى وبلغ ما أراد (*) لكنه أرجأ تصفية الحساب إلى وقت آخر. وفي السنة التالية (١٨٨ هـ) تولى ابراهيم بن جبريل قيادة الصائفة؛ ودخل أرض الروم من درب الصفصاف؛ فخرج نقفور للقائه؛ غير أن اضطرابات وقعت على جبهة الغراب - أرغمت نقفور على الانسحاب وتجنب القتال مع المسلمين الذين تمكنوا من قتل أربعين ألفاً وسبعمائة من جند الروم؛ وأخذوا أربعة آلاف دابة ورجعوا سالمين - لم يصب منهم إلا ثلاثة بجراح. **فلما كانت السنة التالية (١٨٩ هـ) كان الفداء**

ألقـاك خَيْنـك في زواجـر بحره	فطمت عليك من الإمام بحور
إن الإمـام على اقتسارك قـادر	قَرُبت ديارك أم نأت بك دورُ
ليس الإمـام وإن غفلنا غافلاً	عما يسوس بحزمه ويدير
ملك تجرد للجهاد بنفسه	فعدُوُّهُ أبداً به مقهور
يا من يريد رضا الإله بسعيه	والله لا يخفى عليه ضمير
لا نصح ينفع من يغش إمامَه	والنصح من نصحائِهِ مشكور
نُصْح الإمام على الأنام فريضة	ولأهلها كفارة وطهور

تاريخ الطبري ٨/٣٠٨ - ٣٠٩ - احداث سنة ١٨٧ هـ.

(*) **وفي ذلك قال اسماعيل بن القاسم - أبو العتاهية:**

إمام الهدى أصبحت بالدين معنياً	وأصبحت تسقي كل مستمطر
لك اسْمان شُقا من رشاد ومن هدى	فأنت الذي تدعى رشيداً ومهديا
إذا ما سخطْت الشيء كان مُسْخطاً	وإن ترض شيئاً كان في الناس مرضيا
بسطت لنا شرقاً وغرباً يد العلا	فأوسعت شرقياً وأوسعت غربيا
ووشيت وجه الأرض بالجود والندى	فأصبح وجه الأرض بالجود مَوْشِيّا
قضى الله أن يصفو لهارون ملكه	وكان قضاء الله في الخلق مقضيا
تحلبت الدنيا لهارون بالرضا	فأصبح نقفور لهارونَ ذميا

وقال - التيمي:

لجت بنقفور الردى عَبَثاً	لما رأته بغيل الليث قد عبثا
ومن يَزُرْ غيله لا يخل من فزع	إن فات أنيابه والمخلب الشثنا
خان العهود ومن ينكث بها فعلى	حوبائه لا على أعدائه نكثا
كان الإمام الذي ترجى فواضله	أذاقه ثمر الحلم الذي ورثا
فرد ألفته من بعد أن عطفت	أزواجه مرهاً يبكينه شعثا

بين المسلمين والروم؛ فلم يبق بأرض الروم مسلم إلا فودي به (*).

وجاءت سنة الحسم (١٩٠ هـ) فاستخلف الرشيد ابنه عبدالله المأمون بالرقة؛ وفوض إليه الأمور؛ وكتب إلى الآفاق بالسمع له والطاعة. ودفع إليه خاتم المنصور يتيمن به؛ وهو خاتم الخاصة ونقشه « الله ثقتي آمنت به ». وأثناء ذلك كانت الروم قد خرجت إلى (عين زربة) و (كنيسة السوداء) فأغارت وأسرت؛ فاستنقذ أهل المصيصة ما كان في أيديهم. فلما كان الرشيد قد حشد مائة ألف وخمسة وثلاثين ألف مرتزق سوى الأتباع والمطوعة؛ وسوى من لا ديوان له؛ وبث الجيوش والسرايا في بلاد الروم. فوجه قوة بقيادة عبدالله بن مالك لحصار (ذي الكلاع) ووجه داود بن عيسى ابن موسى سائحاً في أرض الروم في سبعين ألفاً. وافتتح شراحيل بن معن بن زائدة حصن (الصقالبة) وحصن (دبسة). وافتتح يزيد من مخلد (الصفصاف) و (ملقوبية).

وعكف الرشيد على حصار (هرقلة) طوال ثلاثين يوماً؛ إلى أن فتحها الله؛ فأخربها وسبى أهلها (**) ثم سار الرشيد إلى (الطوانة) فعسكر بها؛ ثم رحل عنها

(*) **وفي ذلك قال شاعر الرشيد مروان بن أبي حفصة:**

وفكت بك الأسرى التي شيدت لها ... محابس ما فيها حميم يزورها

على حين أعيا المسلمين فكاكها ... وقالوا: سجون المشركين قبورها

(* *) **وفي ذلك قال أبو العتاهية:**

ألا نادت هرقلة بالخراب ... من الملك الموفق بالصواب

غدا هارون يرعد بالمنايا ... ويبرق بالمُذكرة القضاب

ورايات يحل النصر فيها ... تمر كأنها قطع السحاب

أمير المؤمنين ظفرت فاسلم ... وأبشر بالغنيمة والاياب

وكان الرشيد قد اتخذ قبل غزاته قلنسوة كتب عليها (غاز حاج) فكان يلبسها. وفي ذلك قال أبو المعالي الكلابي:

فمن يطلب لقاءك أو يرده ... فبالحرمين أو أقصى الثغور

ففي أرض العدو على طِمِرٍّ ... وفي أرض التَّرفّهِ فوق كور

وما حاز الثغور سواك خلق ... من المتخلفين على الأمور

وخلف عليها عقبة بن جعفر. وأمر ببناء منزل هنالك. كما ولى حميد بن معيوف سواحل بحر الشام إلى مصر؛ فبلغ حميد (قبرس) فهدم وحرق وسبى من أهلها ستة عشر ألفاً؛ فأقدمهم الرافقة، فتولى بيعهم القاضي أبو البختري؛ فبلغ أسقف قبرس ألفي دينار. وأسرع (نقفور) لطلب الصلح وقد جهدته الحرب؛ وبعث إلى الرشيد بالخراج والجزية، عن رأسه وولي عهده وبطارقته وسائر أهل بلده خمسين ألف دينار - منها عن رأسه أربعة دنانير وعن رأس ابنه استبراق دينارين - وكتب نقفور مع بطريقين من عظماء بطارقته في جارية من سبي هرقلة كتاباً نسخته: «**لعبدالله هارون أمير المؤمنين؛ من نقفور ملك الروم؛ سلام عليكم؛ أما بعد أيها الملك؛ إن لي إليك حاجة لا تضرك في دينك ولا دنياك؛ هينة يسيرة، أن تهب لابني جارية من بنات أهل هرقلة؛ كنت قد خطبتها على ابني، فإن رأيت أن تسعفني بحاجتي فعلت، والسلام عليك ورحمة الله وبركاته**». واستهداه أيضاً طيباً وسرادقاً من سرادقاته. فأمر الرشيد بطلب الجارية؛ فأحضرت وزينت وأجلست على سرير في مضربه الذي كان نازلاً فيه؛ وسلمت الجارية والمضرب بما فيه من الآنية والمتاع إلى رسل نقفور؛ وبعث إليه بما سأل من العطر؛ وبعث إليه من التمور والأخبصة والزبيب والترياق. فأرسل نقفور هدية الى الرشيد اشتملت على وقر دراهم إسلامية على برذون كميت كان مبلغه خمسين ألف درهم؛ ومائة ثوب ديباج؛ ومائتي ثوب بزيون - حرير مطرز - واثني عشر بازياً؛ وأربعة أكلب من كلاب الصيد؛ وثلاثة براذين. **وكان نقفور اشترط ألا يخرب (ذا الكلاع) ولا (صملة) ولا (حصن سنان). واشترط الرشيد عليه ألا يعمر (هرقلة) وعلى أن يحمل نقفور ثلاثمائة ألف دينار.**

يظهر أن فتح (هرقلة) وهزيمة الروم؛ لم تكن على درجة كافية من القوة لحمل الروم - البيزنطيين - على الجنوح الى السلم بصورة دائمة. فكانت هذه الغزوة على ضخامتها واتساعها وعلى ما حققته من أهداف ونتائج؛ مثلها كمثل أي غزوة أخرى واجهها الروم عبر صراعهم المستمر. ففي السنة التالية لهذه الغزوة (سنة ١٩١ هـ = ٨٠٦ م) قاد (يزيد بن مخلد الهبيري) غزوة الصائفة في أرض الروم،

ومعه عشرة آلاف مقاتل؛ فأخذت الروم عليه المضيق فقتلوه على بعد مرحلتين من (طرسوس) وقتلوا معه خمسين رجلاً؛ وسلم الباقون. فولى الرشيد (هرثمة بن أعين) لقيادة الصائفة، وضم إليه ثلاثين ألفاً من جند خراسان؛ ووجه معه مسرور الخادم للاضطلاع بالاعباء الادارية ـ النفقات وجميع الأمور خلا الرئاسة أو القيادة ـ. ومضى الرشيد إلى درب الحدث، فرتب هنالك (عبدالله بن مالك). ورتب بمرعش (سعيد ابن سلم بن قتيبة). فأغارت الروم عليها؛ وأصابوا من المسلمين؛ وسعيد بن سلم مقيم بها. ثم انصرفوا. ووجه الرشيد أيضاً إلى طرسوس (محمداً بن يزيد بن مزيد) وعندما أنهى الرشيد تنظيم الثغور؛ واطمأن على المسلمين؛ عاد إلى الرقة.

توفي الرشيد سنة ١٩٣ هـ = ٨٠٨ م. وقتل في السنة ذاتها ملك الروم نقفور في حربه مع البرجان ـ البلغار ـ وذلك بعد أن حكم بلاد الروم لمدة سبع سنين؛ وملك بعده ابنه استبراق الذي كان جريحاً ولم يلبث أن فارق الحياة بعد شهرين؛ فأصبح ميخائيل بن جرجس ملكاً على الروم. وشغلت الدولة الاسلامية ـ العباسية ـ بصراعاتها الداخلية، وبالحرب بين الأخوين الأمين والمأمون، فعرفت جبهة الثغور نوعاً من الهدوء النسبي حتى سنة ٢١٥ هـ = ٨٣٠ م.

حدثت في هذه الفترة ذاتها تطورات داخلية شغلت دولة الروم ـ البيزنطيين ـ بأمورها؛ وصرفتها عن التعرض للمسلمين؛ ووفقاً لما ذكرته المصادر العربية؛ ففي سنة ١٩٤ هـ «وثب الروم على ملكها ميخائيل فهرب وترهب وكان ملكه سنتين». وفي سنة ٢٠٠ هـ: «قتلت الروم ملكها أليون؛ فكان قد ملك عليهم سبع سنين وستة أشهر؛ وملكوا عليهم ميخائيل بن جرجس ثانية». وفي سنة ٢٠٩: «مات ميخائيل بن جرجس صاحب الروم، وكان ملكه تسع سنين. وملكت الروم عليهم ابنه توفيل بن ميخائيل».

* * *

استقر الأمر للمأمون بعد قتل الأمين (سنة ١٩٨ هـ = ٨١٣ م) فحاول السير على نهج أبيه الرشيد وكان من أبرز أعماله قيادته لحملة كبيرة (سنة ٢١٥) حيث غادر

مدينة السلام لغزو الروم، واستخلف حين رحل عن مدينة السلام (اسحاق بن ابراهيم ابن مصعب) ثم سلك المأمون طريق الموصل، حتى صار إلى منبج، ثم إلى دابق، ثم إلى أنطاكية، ثم إلى المصيصة، ثم خرج منها إلى طرسوس. ثم دخل من طرسوس إلى بلاد الروم. وأقام على حصن (ماجدة) فافتتحه ومنَّ على أهله، ثم أقام على (حصن قرة) فحارب أهلها حتى طلبوا الأمان، فآمنهم، وأمر بهدم الحصن. ووجه قوة بقيادة (أشناس) إلى (حصن سندس) فأتاه برئيسه. ووجه قوة أخرى بقيادة (عجيف) و (جعفر الخياط) إلى (حصن سنان) فسمع قائده وأطاع، وخرج المأمون من بلاد الروم، ومضى الى دمشق.

علم المأمون في السنة التالية (٢١٦ هـ) باقدام ملك الروم على قتل قوم من أهل (طرسوس) و (المصيصة) - بلغ عددهم ألفاً وستمائة مسلم - فقاد المأمون جيشه، ودخل بلاد الروم، ووصلته رسالة من ملك الروم (توفيل بن ميخائيل) بدأها بذكر نفسه قبل ذكر المأمون، فلم يقرأها المأمون، ومضى في طريقه، فوافاه رسل (توفيل) بمدينة (أذنة) ومعهم خمسمائة رجل من أسارى المسلمين. إلا أن المأمون مضى في طريقه، ونزل على (أنطيغوا) فخرج أهلها على صلح. وصار المأمون إلى (هرقلة) فخرج إليه أهلها على صلح، ووجه أخاه (أبا إسحاق) ففتح الله له ثلاثين حصناً ومطمورة. ووجه يحيى بن أكثم من (طوانة) فأغار وقتل وحرق وأصاب سبياً ورجع إلى العسكر. ثم خرج المأمون إلى (كيسوم) فأقام بها يومين أو ثلاثة، ثم ارتحل إلى دمشق بعد أن أقام في بلاد الروم مدة ثلاث أشهر. وعاد المأمون في السنة ذاتها فدخل أرض الروم، وأناخ على (لؤلؤة) لمدة مائة يوم، ثم رحل عنها وخلف عليها قوة بقيادة (عجيف) فاختدعه أهلها وأسروه، فمكث أسيراً في أيديهم ثمانية أيام ثم أخرجوه، وجاء ملك الروم (توفيل) فأحاط بعجيف، فوجه المأمون الجنود إليه، فارتحل (توفيل) قبل وصولهم. وخرج أهل (لؤلؤة) إلى عجيف بأمان. فلما كانت السنة التالية (٢١٧) وصلت إلى المأمون رسالة من ملك الروم (توفيل) سأله فيها الصلح، وبدأ بنفسه، وكانت نسخة الرسالة: «أما بعد! فإن اجتماع المختلفين على حظهما أولى بهما في الرأي مما عاد بالضرر عليهما. ولست حرياً بأن تدع لحظ يصل إلى غيرك حظاً تحوزه

إلى نفسك؛ وفي علمك كاف عن إخبارك. وقد كنت كتبت إليك داعياً إلى المسالمة، راغباً في فضيلة المهادنة، لتضع أوزار الحرب عنا، ونكون كل واحد لكل واحد ولياً وحزباً: مع اتصال المرافق والفسح في المتاجر؛ وفك المستأسر؛ وأمن الطرق والبيضة - المدن - **فإن أبيت فلا أدِبَّ لك في الخمر** (*) **ولا أزخرف لك في القول؛ فإني لخائض إليك غمارها؛ آخذ عليك أسدادها - حواجزها وعوائقها - شانّ خيلها ورجالها**. وإن أفعل فبعد أن قدمت المعذرة؛ بيني وبينك علم الحجة والسلام». فكتب إليه المأمون: «أما بعد! فقد بلغني كتابك فيما سألت من الهدنة؛ ودعوتَ إليه من الموادعة؛ وخلطت فيه من اللين والشدة؛ مما استعطفت به؛ من شرح المتاجر واتصال المرافق وفك الأسارى ورفع القتل والقتال؛ **فلولا ما رجعت إليه من أعمال التؤدة والأخذ بالحظ في تقليب الفكرة؛ وألا أعتقد الرأي في مستقبله إلا في استصلاح ما أوثره في معتقبه؛ لجعلت جواب كتابك خيلاً تحمل رجالاً من أهل البأس والنجدة والبصيرة ينازعونكم عن ثكلكم ويتقربون إلى الله بدمائكم؛ ويستقلون في ذات الله ما نالهم من ألم شوكتكم؛ ثم أوصل إليهم من الإمداد؛ وأبلغ لهم كافياً من العدة والعتاد؛ هم أظمأ إلى موارد المنايا منكم إلى السلامة من مخوف معرتهم عليكم؛ موعدهم إحدى الحسنيين: عاجل غلبة أو كريم منقلب؛ غير أني رأيت أن أتقدم إليك بالموعظة التي يثبت الله بها عليك الحجة؛ من الدعاء لك ولمن معك إلى الوحدانية والشريعة الحنيفية؛ فإن أبيت ففدية توجب الذمة، وتثبت نظرة؛ وإن تركت ذلك، ففي يقين المعاينة لنعوتنا ما يغني عن الإبلاغ في القول والإغراق في الصفة. والسلام على من اتبع الهدى»**.

لم تكن هذه هي المرة الأولى التي يوجه فيها (أمير المؤمنين) موعظة الى (ملك الروم) باختيار واحدة من ثلاث: الاسلام أو (الفدية التي توجب الذمة) أو الحرب.

(*) الخمر - بالتحريك: كل ما واراك من شجر أو بناء أو غيره. وخمر كفرح: توارى. ومن أمثال العرب: «يدب له الضراء ويمشي الخمر» والضراء كسحاب: الشجر الملتف في الوادي - يقال: (توارى الصيد في ضراء) و (فلان يمشي الضراء) إذا مشى مستخفياً فيما يوارى من الشجر - مثل يضرب للرجل يختل أو يخدع صاحبه - تاريخ الطبري - احداث سنة ٢١٧ هـ.

وسار (توفيل) على نهج من سبقه من ملوك الروم؛ فاختار (الفدية التي توجب الذمة). وتم الصلح أو المهادنة. ولكن لم يكن باستطاعة أمير المؤمنين (المأمون) الاعتماد على العهود والمواثيق ـ بعد أن تكرر نكث الروم وغدرهم. فوجه ابنه (العباس) إلى (طوانة) وأمره ببنائها لتكون ثغراً حصيناً من ثغور المسلمين في بلاد الروم، وأرسل له الفعلة والفروض؛ فابتدأ البناء؛ وبناها ميلاً في ميل؛ وجعل سورها على ثلاثة فراسخ؛ وجعل لها أربعة أبواب؛ وبنى على كل باب حصناً. ثم كتب المأمون إلى أخيه (إسحق ابن الرشيد) بفرض أربعة آلاف رجل على جند دمشق وحمص والأردن وفلسطين؛ وأن يخصص لكل فارس مائة درهم ولكل راجل أربعين درهماً؛ وفرض على مصر فرضاً. وكتب الى (العباس) بما فرضه على قنسرين والجزيرة؛ وإلى (إسحق بن إبراهيم) بما فرضه على أهل بغداد وهم ألفا رجل. وخرج بعضهم حتى وافى (طوانة) ونزلها مع العباس.

هكذا توقفت مرة أخرى الصوائف، ويظهر أن ملك الروم كان بحاجة لسلم مؤقت أو لهدنة محدودة بمثل ما كان يحتاجها أمير المؤمنين (المأمون). ويمكن صرف النظر عن (التحديات أو المبارزات الكلامية). فقد كان هناك ثمة نوع من التوازن في الصراع؛ ولم تتأثر دولة الروم تأثراً كبيراً بضياع حصن أو تدمير قلعة أو اجتياح اقليم؛ واستمرت في حربها: وكانت تضغط على حكام وأمراء المسلمين بما تأخذه من الأسرى، ثم لتبادل عليهم أو تفتديهم بمن يماثلهم من الأسرى. وصحيح أن الحملات التي قادها الرشيد ثم قادها المأمون من بعده؛ قد بلغت من الضخامة، ومن الحجم؛ ما لم تبلغه حملة أخرى ـ في العهد الأموي ـ إلا أن عدم انتظام الصوائف قد أفسح الفرصة أمام الروم لتنفس الصعداء. والعمل في الوقت ذاته للافادة من فترات الهدوء لزيادة قدراتهم القتالية؛ وحشد قوات ضخمة لم تتح لهم فرصة من قبل لحشد مثلها: مع الامساك ـ أو حتى محاولة الامساك بالمبادأة. وكان ذلك بمثابة تحول حاسم في الصراع على جبهة الروم.

ج - عمورية المعتصم - والمودة للهدوء -

كان (بابك الخرمي) قد تحرك في ناحية (البذ) بين أذربيجان وآران سنة ٢٠١ هـ = ٨١٦ م (*) وأفاد من الصراعات الداخلية ليبسط نفوذه على السند، وأصبح يشكل خطراً كبيراً على الدولة العربية - الاسلامية، حتى انه قتل في عشرين سنة (حتى سنة ٢٢٣ هـ) حوالى مائتي ألف وخمسة وخمسين ألفاً وخمسمائة. وقد أمكن لهم هزيمة جيوش (يحيى بن معاذ) و (عيسى بن محمد بن أبي خالد) و (أحمد بن الجنيد). وأسر ثلاثة آلاف وثلثمائة وتسعة من أحرار العرب المسلمين. فلما استقر الأمر للمعتصم، وجه جيشاً كبيراً بقيادة (الافشين) فأمكن له الانتصار على بابك الخرمي - وحمله أسيراً الى بغداد حيث جرى قتله. وأمر الأفشين أسرى المسلمين ليكتبوا إلى أهلهم وأوليائهم، فجاء منهم خلق كثير وأخذوا من كان لهم من حرمة أو قرابة وبقي منهم كثيرون ينتظرون أن يجيء أولياؤهم. **والمهم في الأمر هو أنه لما شعر (بابك الخرمي) بالحلقة وهي تضيق حول عنقه؛ وأنه أشرف في حربه مع الأفشين على الهلاك؛ وأيقن بالضعف من نفسه عن حربه؛ كتب الى ملك الروم (توفيل بن ميخائيل بن جرجس) يعلمه أن ملك العرب - المعتصم - قد وجه عساكره ومقاتليه إليه، حتى وجه خياطه - ويعني جعفر بن دينار - وطباخه - ويعني إيتاخ - ولم يبق على بابه أحد. فإن أردت الخروج إليه؛ فاعلم أنه ليس في وجهك**

(*) الخرم تعني (الفرج) وهي مقالات المجوس: والرجل منهم ينكح أمه وأخته وابنته؛ ولهذا يسمونه (دين الفرج). ويعتقدون مذهب التناسخ؛ وأن الأرواح تنتقل من حيوان الى غيره. ولهذا فقد زعم (بابك الخرمي) أن روح (جاويدان بن سهل) صاحب البذ قد دخلت فيه - ومعنى جاويدان = الدائم أو الباقي - فتبعه أصحاب جاويدان وعظم أمره. وبابك الخرمي هذا هو ابن حرام والده رجل من الصعاليك يقال له مطر - قال: «كنا مع ابن الرواد - وكانت أم بابك واسمها - ترنو مبذ العوراء من علوج ابن الرواد - فكنت أنزل عليها وكانت مصكة - قوية - فكانت تخدمني وتغسل ثيابي: فنظرت إليها يوماً؛ فواثبتها بشبق السفر وطول الغربة، فأقررته في رحمها. ثم غبنا غيبة بعد ذلك، ثم قدمنا فإذا هي تطلبني، فنزلت في منزل آخر، فصارت إلي يوماً فقالت: حين ملأت بطني تنزل ها هنا وتتركني! فأذاعت أنه مني - فقلت والله لئن ذكرتني لأقتلنك! فأمسكت عني؛ فهو والله ابني» تاريخ الطبري والكامل - احداث ٢٠١ و ٢٢٣.

أحد يمنعك. وقد طمع (بابك الخرمي) في أن يخفف تحرك ملك الروم عنه بعض الضيق، بحيث يضطر المعتصم لسحب قسم من قواته لمواجهة تحرك جيش الروم. واهتبل ملك الروم (تيوفيل) هذه الفرصة، **وقاد جيشاً من مائة ألف ـ فيهم من الجند نيف وسبعون ألفاً ـ وبقيتهم أتباع.** وانضم إليهم قوم من المحمرة الذين كانوا خرجوا بالجبال فلحقوا بالروم ـ وكان ملك الروم قد فرض لهم وزوجهم وصيرهم مقاتلة يستعين بهم في أهم أموره إليه ـ. وقاد (توفيل) هذا الجيش الى (زبطرة) فقتل الرجال الذين فيها؛ وسبى الذراري والنساء التي فيها وأحرقها. وأغار من فوره على (ملطية) وهاجم عدداً من حصون المسلمين. وسبى من المسلمات اكثر من ألف امرأة؛ ومثل بمن صار في يده من المسلمين، وسمل عيونهم وقطع أذانهم وأنافهم. وأسرع أهل الثغور من الشام والجزيرة لنجدة إخوانهم ـ إلا من لم يكن له دابة ولا سلاح.

بلغ الأمر (المعتصم) وهو بسامراء؛ فاستعظمه وكبر عليه؛ وبلغه أن امرأة هاشمية صاحت وهي أسيرة في أيدي الروم (وامعتصماه) فأجابها وهو جالس على سريره (لبيك! لبيك!). ونهض من ساعته وصاح في قصره (النفير! النفير!) ثم ركب دابته وسمط خلفه شكالاً وسكة حديد وحقيبة فيها زاده، وانتقل الى دار العامة؛ وأحضر من أهل مدينة السلام قاضيها (عبدالرحمن بن اسحاق) و(شعبة بن سهل). ومعهما ثلثمائة وثمانية وعشرون رجلاً من أهل العدالة؛ **فأشهدهم على** ما وقف من الضياع فجعل ثلثاً لولده: وثلثاً لله؛ وثلثاً لمواليه، ثم أقام عسكره بغربي دجلة. ووجه قوات بقيادة (عجيف بن عنبسة) و (عمرو الفرغاني) و (محمد كوتاه) وجماعة من القواد إلى (زبطرة) إعانة لأهلها. فوجدوا ان ملك الروم قد انصرف إلى بلاده: فتوقفوا حتى رجع الناس الى قراهم واطمأنوا. ومضى المعتصم؛ فتجهز جهازاً لم يتجهز مثله قبله خليفة قط؛ من السلاح والعدد والآلة وحياض الأدم؛ والبغال؛ والروايا والقرب وآلة الحديد والنفط. ولما فرغ المعتصم من أمر (بابك الخرمي) سأل: «أي بلاد الروم أمنع وأحصن؟» فقيل له: **«عمورية، لم يعرض لها أحد من المسلمين منذ كان الاسلام؛ وهي عين النصرانية. وهي أشرف عندهم من**

القسطنطينية » . ونظم (المعتصم) جيشه ؛ وجعل على مقدمته (أشناس) ويتلوه (محمد بن ابراهيم) وعلى ميمنته (ايتاخ) وعلى ميسرته (جعفر بن دينار بن عبدالله الخياط) وعلى القلب (عجيف بن عنبسة) .

سار (المعتصم) بجيشه؛ ودخل بلاد الروم، وأقام على نهر اللمس أو (لامـس) وهو على (سلوقية) قريباً من البحر، بينه وبين (طرسوس) مسيرة يوم؛ وعليه كان يتم الفداء ـ تبادل الأسرى ـ بين المسلمين والروم. وأمضى المعتصم (الأفشين خيذر بن كاوس) الى مدينة (سروج) وأمره بالانطلاق منها الى (درب الحدث) وحدد له يوماً معيناً للدخول؛ وترك يوماً بينه وبين دخول القوة التي يقودها (أشناس) ويوماً بين القوة التي يرافقها (المعتصم) وبين (أشناس). وحدد مدينة (أنقرة) مكاناً لالتقاء قوى (الأفشين) و (أشناس) وقوته. على أن يتم الانطلاق منها إذا ما فتحها الله على المسلمين إلى (عمورية). وأمرَ المعتصم بأن يسير أشناس وقوته من درب طرسوس. وأمره أن ينتظره (بالصفصاف). ثم دفع المعتصم مقدماته بعد يومين بقيادة (وصيف).

وصل (أشناس) إلى (مرج الأسقف) وهناك وصله كتاب من المعتصم الذي كان قد وصل الى المطامير؛ يعلمه فيه أن ملك الروم موجود في المنطقة وأنه ينتظر وصول جند المسلمين حتى نهر (لامس) ليباغتهم بهجومه. وأمر المعتصم قائده (أشناس) بالتوقف في (مرج الاسقف) لأنه كان ينتظر وصول المؤخرة (الساقة) التي كان يتولى قيادتها (جعفر بن دينار) والتي كانت لا تزال تعبر مضيق الدرب؛ ومعها الأثقال والمجانيق، فإذا ما انتهى عبور المؤخرة، فسينطلق المعتصم للتوغل في بلاد الروم.

أقام (أشناس) بمرج الأسقف ثلاثة أيام؛ ثم وصله أمر من المعتصم بتوجيه سرية بقيادة قائد من قواده للحصول على معلومات عن العدو؛ وأخذ أسرى. فوجه أشناس سرية من مائتي رجل بقيادة (عمرو الفرغاني). وسارت السرية طوال الليل حتى وصلت (حصن قرة) وحاولت الحصول على بعض الأسرى فلم تتمكن من ذلك؛ وشعر قائد (حصن قرة) بوجود سرية المسلمين فقاد قوة من فرسانه؛ وخرج من حصن قرة. وأقام كميناً في شعاب الجبل الكبير المحيط بناحية ـ رستاق ـ قرة. وعرف (عمر الفرغاني) بأمر الكمين الذي أعده له قائد حصن قرة بين (قرة) و (درة) فقاد سريته

الى (درة) ونصب كميناً أمضى به ليلته، فلما انفجر عمود الصبح وزع سريته على ثلاث مجموعات، وأمرهم أن يركضوا ركضاً سريعاً، وبأقصى ما يستطيعونه؛ حتى يأتوه بأسير يعرف شيئاً عن مكان ملك الروم وما لديه من القوات، ووعد قادة المجموعات ان يوافوه في بعض المواضع التي عرفها الأدلاء؛ ووجه مع كل مجموعة دليلين. وانطلقت المجموعات الثلاث مع الصبح، وسارت على ثلاث اتجاهات؛ وأمكن لها الحصول على عدد من أسرى الروم؛ كان بعضهم من أهل عسكر الملك؛ وبعضهم من الضواحي؛ وأخذ (عمر) رجلاً من فرسان أهل (قرة) واستجوبه؛ فعلم منه ان ملك الروم وجنده قد توقفوا على بعد أربعة فراسخ وراء نهر اللمس؛ وأن قائد حصن قرة قد عرف بأمرهم فقاد قوة ونصب كميناً في الجبل المشرف على موقعهم؛ فوقف عمرو في نقطة الازدلاف التي وعد فيها قادة مجموعاته للالتقاء معه، وأمر الأدلاء الذين معه ان يتفرقوا في رؤوس الجبال؛ وأن يشرفوا على المجموعات التي تفرقت في شعاب الجبل؛ وإنذارها حتى لا يباغتها كمين قائد حصن قرة. فرأى الأدلاء المجموعات. ولوحوا لها؛ فأقبلت واجتمع الجميع ثم نزلوا الجبل؛ وارتحلوا نحو المعسكر - ومعهم عدد من أسرى جند ملك الروم؛ وساروا حتى وصلوا معسكر أشناس في اللمس.
وعرف (القائد أشناس) من الأسرى الذين قام باستجوابهم بأن ملك الروم قد أقام مع جنده في معسكره عند نهر اللمس طوال ثلاثين يوماً وهو ينتظر عبور المعتصم ومقدمته؛ ثم إنه علم بتقدم جيش ضخم من خلفه - بقيادة الأفشين فقاد جيشه وسار في ناحية الأرمنياق - بعد أن استخلف على معسكره ابن خاله. فما كان من (أشناس) إلا أن أسرع بإرسال الرجل الذي أعلمه بهذه المعلومات الى المعتصم؛ فوجه المعتصم من عسكره قوماً من الأدلاء؛ وضمن لكل رجل منهم عشرة الآف درهم، إن هم استطاعوا حمل رسالته الى الافشين، وقد تضمنت الرسالة تحديد المكان الذي وصل اليه المعتصم، مع أمر الافشين بالتوقف في مكانه إشفاقاً من أن يباغته ملك الروم بهجومه. كما كتب المعتصم رسالة إلى أشناس أمره فيها بتوجيه رسالة من قبله - من الأدلاء الذين يعرفون الجبال والشعاب؛ وضمن لكل رجل منهم عشرة آلاف درهم؛ إن هو أوصل الكتاب لاعلام الافشين عن تقدم ملك الروم نحوه، مع الطلب إليه بالتوقف الى

أن يصله أمر جديد من أمير المؤمنين ـ المعتصم ـ.

توجهت الرسل إلى ناحية (الأفشين) فلم يلحقه أحد منهم؛ وذلك لأنه كان قد أوغل في بلاد الروم؛ ووصلت مؤخرة القوات والأثقال فأصدر (المعتصم) أمره إلى (أشناس) بالتقدم، وتبعه بفاصل مرحلة واحدة بينهما؛ حتى وصلوا على بعد ثلاث مراحل من (أنقرة) ولما تصلهم أي معلومات عن الأفشين. **وتعرض معسكر المعتصم لضيق شديد في الحصول على الماء والمواد التموينية والعلف.** وكان (أشناس) قد تمكن خلال تقدمه من أسر عدد من جند الروم؛ فأمر بضرب أعناقهم؛ فتقدم إليه شيخ كبير؛ وقال له: «ما تنتفع من القتل وأنت في هذا الضيق؛ وعسكرك في حاجة للماء والزاد؛ وها هنا قوم قد هربوا من أنقرة خوفاً من أن ينزل بهم ملك العرب؛ وهم بالقرب منا ها هنا؛ معهم من الميرة والطعام والشعير شيء كثير؟ وجه معي قوماً لأدفعهم إليهم وخل سبيلي!». واختار أشناس خمسمائة من أفضل فرسانه الذين تطوعوا لمهمة مرافقة الشيخ؛ وقام بنفسه باختبار خيولهم؛ ثم سار هؤلاء ومعهم الادلاء (بقيادة مالك بن كيدر) وأمضوا ليلتهم في مسيرة شاقة عبر شعاب الوادي الصعبة؛ فلما طلع الفجر، سار مالك بمن معه حتى أشرف على معسكر أهل أنقرة ـ وهم في طرف ملاحة ـ. فهاجمهم، واشتبك معهم، وأسر عدداً من الجرحى؛ وسألهم عن سبب جراحاتهم؛ فعلم منهم أن ملك الروم قد اشتبك في معركة ضارية مع (الأفشين) وقد هزم الأفشين في البداية، ثم أعاد تنظيم قواته وفرسانه وهاجم ملك الروم من جديد، حتى أمكن له الانتصار عليه في آخر النهار. فلما انسحب الملك بمن بقي معه إلى معسكره عند نهر اللمس، وجد أن معسكره قد قوض؛ وجنده قد تمزق؛ فكتب إلى المدن والحصون بإعادة كافة الجنود إلى موضع عينه حتى يهاجم ملك العرب عند عمورية.

أسرع (مالك بن كيدر) بقيادة جنده على طريق العودة إلى معسكر أشناس، وقد حمل معه الأسرى والكثير من البقر والأغنام والحبوب، وسار مجداً حتى لحق بأنقرة. ووصل المعتصم وقواته في اليوم التالي، فعلم بالمعركة الظافرة التي قادها (الأفشين) فسر بذلك سروراً كبيراً. ثم ورده بعد ذلك بيوم واحد رسول من قبل الأفشين يعلمه أنه

قادم عليه بأنقرة. **وعندما تكامل تجمع الجيش، أعاد المعتصم تنظيم قواته؛ فقسمها إلى ثلاث جيوش، جيش على الأيسر بقيادة أشناس، وجيش في الوسط ـ بقيادة المعتصم، وجيش على الميمنة بقيادة الأفشين، وترك مسافة فرسخين لتفصل بين كل جيش والجيش التالي المجاور له؛ وأمر كل جيش بأن يكون له ميمنة وميسرة. كما أمرهم بان يحرقوا القرى ويخربوها، ويأخذوا من لحقوا فيها من السبي. ولما كانت هناك مسافة سبع مراحل بين انقرة وعمورية. فقد حدد المعتصم مكان النزول لكل مرحلة على أن يقيم كل جيش عند نزوله باتخاذ الترتيبات محافظاً على نظام التحرك ذاته، وبحيث يكون لكل جيش معسكره، المنفصل عن الجيشين الآخرين.**

كان رجل من المسلمين قد أسره أهل عمورية، وحملوه على التنصر وزوجوه فتاة منهم، فلما وصل المسلمون قرر اللحاق بهم؛ وأخذ في انتظار الفرصة. ووصل المعتصم بجيشه، وأجرى الاستطلاع، وجال حول عمورية ثم قسمها إلى ثلاثة قطاعات، لكل جيش قطاع، وصير لكل واحد منهم أبراجاً على قدر عدد أفراد الجيش وقوته، فكان لكل قائد ما بين البرجين إلى عشرين برجاً؛ وتحصن أهل عمورية؛ وتحرزوا؛ وأظهروا تصميمهم على القتال. وأفاد المسلم المتنصر من غفلة حرس باب الحصن، فهرب وجاء إلى المعتصم؛ وأعلمه أن موضعاً من المدينة قد اجتاحه سيل شديد فهدم سوره، فكتب ملك الروم إلى قائد عمورية ببناء ذلك الموضع؛ غير أن هذا القائد توانى في بنائه حتى كان خروج الملك من القسطنطينية إلى بعض المواضع؛ فتخوف القائد أن يمر الملك على تلك الناحية فيشاهد الثلمة في السور، فوجه الصناع وبنى وجه السور بصف واحد من الحجارة، وصير وراءه من جانب المدينة حشواً. ثم عقد فوقه الشرف كما كان. وحدد ذلك الرجل للمعتصم مكان الثلمة، فأمر المعتصم بإقامة مضربه في ذلك الموضع؛ ونصب المجانيق على ذلك البناء؛ فانفرج السور عن الثغرة من المكان الذي حدده الرجل؛ فلما رأى أهل عمورية انفراج السور، علقوا عليه الخشب الكبار ـ العمد ـ وكل واحد يلاصق الآخر؛ فكان حجر المنجنيق إذا وقع على الخشب تكسر، فعلقوا خشباً غيره، وصيروا فوق الخشب البراذع ليدعموا السور. فلما ألحت المجانيق على ذلك

الموضع انصدع السور ؛ فكتب قائد حامية عمورية (ياطس) إلى ملك الروم يعلمه أمر السور : وأرسل الكتاب مع غلام رومي ورجل يتحدث باللغة العربية بفصاحة ؛ فلما خرجا من الخندق أمسك بهما الجند المسلمون وحملوهما إلى (عمرو الفرغاني بن أربخا) فوجههما عمرو إلى القائد (أشناس) فأرسلهما أشناس إلى المعتصم ، فاستجوبهما وفتشهما ، فعثر على الكتاب. الذي تضمن نصه: « إعلاماً لملك الروم بإحاطة جند المسلمين لعمورية بجيش كثيف؛ حتى ضاق بهم الموضع ، وأن قائد حامية عمورية ـ ياطس ـ قد قرر جمع فرسانه والخروج بهم ليلاً للهجوم على المسلمين بصورة مباغتة ، في محاولة للخروج من دائرة الحصار والوصول إلى الملك ـ ملك الروم ». فلما قرأ المعتصم الكتاب ، أمر للرجل الذي يتكلم منهما بالعربية والغلام الرومي. بمال وفير ؛ فأسلما ؛ وخلع عليهما ؛ وأمر بهما حين طلعت الشمس فطافا حول عمورية. وتوقفا في مواجهة البرج الذي يقف فيه ياطس وهما يلبسان الثياب التي أهداها لهما المعتصم ـ خلعها عليهما ـ ومعهما الكتاب يلوحان به ، فعرف ياطس أن رسالته قد وصلت المعتصم. وأمر المعتصم بتشديد الحراسة وتنظيم المناوبة. وإقامة الفرسان على خيولهم وهم على استعداد كامل للقتال ، خشية المباغتة. واستمر الحصار الشديد إلى أن تم هدم السور ؛ وأحدث انهياره وسقوطه دوياً مرعباً ؛ طابت له نفوس المسلمين؛ وتفطرت له قلوب النصارى.

كان المعتصم حين نزل عمورية ، وشاهد سعة خندقها وطول سورها ، قد أمر بضع مجانيق كبيرة على قدر اتساع السور. يسع كل منجنيق منها أربعة رجال؛ فتم صنعها بإتقان واحكام ، وكانت تتحرك على مساند لها عجلات. وأمر الجنود بحشو جلود الأغنام والماعز وما يتم ذبحه وأكل لحمه ، بالتراب؛ ثم دحرجتها لردم الخندق. وتم أيضاً صنع دبابات كبار تتسع كل دبابة منها عشرة رجال. وبدأ العمل ـ بجهد ـ إلى أن تم ردم الخندق بالتراب وتسويته مع الأرض ثم دفعت الدبابات ، إلا أنها تعلقت هي والمجانيق في منتصف المسافة بسبب تشابكها بالجلود ، ولم يتخلص الجنود منها إلا بصعوبة. وبطل عمل الدبابات والمجانيق والسلاليم وغير ذلك حتى أحرقت.

جاء اليوم التالي؛ واحتدم القتال عند الثلمة ، وكان القائد (أشناس) وقواته ؛ هم الذين بدؤوا الحرب؛ وكان الموضع ضيقاً ؛ فلم يتمكنوا من تطوير الأعمال القتالية. فأمر

المعتصم بالمنجنيقات الكبار التي كانت متفرقة حول السور؛ فجمع بعضها إلى بعض؛ وحشدها جميعها في مواجهة الثلمة، وأمر بتركيز الرمي على ذلك الموضع. وكانت الحرب في اليوم الثاني على الأفشين وأصحابه؛ فأجادوا الحرب وتقدموا. وكان المعتصم ممتطياً صهوة جواده في مواجهة الثلمة؛ ومعه كبار القواد وفيهم أفشين وأشناس؛ فيما كان بقية القواد مع جند المشاة. وأعجب المعتصم بما أظهره جنده من الشجاعة ومن العناد في القتال، فقال: «ما كان أحسن الحرب اليوم!». وقال عمرو الفرغاني معقباً: «الحرب اليوم هي أجود مما كانت عليه بالأمس». وسمعها أشناس، فكتمها في نفسه، حتى إذا ما انتصف النهار؛ وانصرف المعتصم إلى مضربه، وانصرف القواد إلى مضاربهم لتناول طعام الغداء؛ واقترب أشناس من مضربه؛ ترجل له قواده كما كانوا يفعلون - وفيهم عمرو الفرغاني وأحمد بن الخليل بن هشام؛ فمشوا بين يديه كعادتهم عند مضربه؛ فقال لهم أشناس: «يا أولاد الزنا! إيش تمشون بين يدي! كان ينبغي أن تقاتلوا أمس حيث تقفون بين يدي أمير المؤمنين فتقولون: إن الحرب اليوم هي أجود مما كانت عليه بالأمس - وكأن الذين قاتلوا بالأمس هم جند غيركم - انصرفوا إلى مضاربكم».

كانت الحرب في اليوم الثالث على اصحاب أمير المؤمنين خاصة؛ ومعهم المغاربة والأتراك. وكان القائد (ايتاخ) هو قائد حرب هذا اليوم. فقاتل الجند وأحسنوا القتال، واتسع لهم الموضع المنثلم؛ فلم تزل الحرب كذلك حتى كثرت في الروم الجراحات. وكان قواد ملك الروم عندما نزل بهم عسكر المعتصم قد اقتسموا البروج؛ لكل قائد وأصحابه عدة أبرجة؛ وكان المسؤول عن الموضع الذي انثلم من السور رجلاً من قواد الروم يقال له (وندوا) وتفسيره بالعربية (ثَور) فقاتل الرجل وأصحابه قتالاً شديداً بالليل والنهار والحرب عليه وعلى أصحابه، ولم يدعمه (ياطس) أو غيره بأي دعم. فلما كان الليل؛ مضى القائد الموكل بالثلمة إلى أصحابه - بقية القادة - وقال لهم: «إن الحرب علي وعلى أصحابي. ولم يبق معي أحد إلا قد جرح. فصيروا أصحابكم على الثلمة يرمون قليلاً. وإلا افتضحتم وذهبت المدينة». فأبوا أن يمدوه بأحد - وقالوا له: «سلم السور من ناحيتك ولسنا نسألك أن تمدنا؛ فشأنك وناحيتك؛ فليس لك

عندنا مدد». فاعتزم هو وأصحابه على أن يخرجوا إلى أمير المؤمنين المعتصم؛ ويسألوه الأمان على الذرية؛ ويسلموا إليه الحصن بما فيه من المتاع والأثاث والسلاح وغير ذلك. فلما أصبح؛ وكل أصحابه بحماية جانبي الثلمة؛ وخرج فقال: «إني أريد أمير المؤمنين» وأمر أصحابه ألا يحاربوا حتى يعود إليهم؛ فخرج حتى وصل إلى المعتصم. وكان جند المسلمين أثناء ذلك يتقدمون إلى الثلمة حتى وصلوا إلى السور؛ وامتنع الروم عن مقاتلتهم. ودعا المعتصم بفرس فحمل (وندوا) عليه وسار معه حتى صار الناس معهم على حرف الثلمة. وأومأ (عبد الوهاب بن علي) الذي كان يسير في ركب المعتصم إلى الناس: «أن ادخلوا» فدخل الناس المدينة، فالتفت (وندوا) وضرب بيده لحيته؛ فقال له المعتصم: «مالك؟». قال: جئت وأنا أريد أن أسمع كلامك وتسمع كلامي؛ فغدرت بي، فقال له المعتصم: «كل شيء تريد أن تقوله فهو لك علي؛ قل ما شئت؛ فإني لست أخالفك» فرد (وندوا) بقوله: «كيف لا تخالفني وقد دخلوا المدينة؟» فأجابه المعتصم: «اضرب بيدك إلى ما شئت فهو لك؛ واطلب ما شئت فإني أعطيكه» وعاد (وندوا) برفقة المعتصم إلى مضربه.

وقف (ياطس) في برجه؛ وحوله جنده، وقاتلوا بعناد؛ ولجأت طائفة منهم إلى الكنيسة الكبيرة في ناحية من عمورية؛ فقاتلوا قتالاً شديداً؛ فأحرق الناس الكنيسة عليهم، فاحترقوا عن آخرهم؛ ووقعت أعداد كبيرة من جند الروم بين قتيل وجريح. وحاول المعتصم ايقاف الاقتتال، فاستنزل (ياطس) من برجه؛ فحاول هذا المراوغة؛ إلا أنه اضطر للاستسلام في النهاية؛ ورمى سيفه؛ وتقدم إلى المعتصم الذي قنعه بسوطه. وانتهى القتال. وحمل (ياطس) وكبار القادة إلى مضرب المعتصم؛ فيما كان الدمار واللهب يلتهم عمورية (*).

(*) لقد خلد الشاعر العربي أبو تمام حبيب بن أوس الطائي هذه المعركة في قصيدته الشهيرة التي جاء فيها:

السيف أصدق أنباء من الكتب ... في حده الحد بين الجد واللعب

بيض الصفائح لا سود الصحائف في ... متونهن جلاء الشك والريب

يا يوم وقعة عمورية انصرفت ... عنك المنى حفلاً معسولة الحلب

أقبل جند المسلمين بالأسرى والسبي من كل وجه حتى امتلأ العسكر؛ فأمر المعتصم (سيل الترجمان) بتمييز الأسرى، وعزل أهل الشرف والقدر من الروم؛ ووضعهم في ناحية؛ وعزل الباقين في ناحية أخرى. ثم أمر المعتصم فوكل بالمقاسم قواده. ووكل (أشناس) بما يخرج من ناحيته، ووكل الأفشين بما يخرج من ناحيته، وكذلك وكل ايتاخ بناحيته، وجعفراً الخياط بمثل ذلك في ناحيته؛ ووكل مع كل قائد من هؤلاء رجلاً من قبل (أحمد بن أبي داود) يحصي عليه. فبيعت المقاسم في خمسة أيام؛ فبيع منها ما استباع؛ وأمر بالباقي فضرب بالنار؛ وارتحل المعتصم منصرفاً إلى أرض طرسوس. ولما كان يوم (ايتاخ) قبل أن يرتحل المعتصم منصرفاً؛ وثب الناس على المغنم الذي كان إيتاخ على بيعه. فركب المعتصم بنفسه؛ وجاء مسرعاً؛ وسل سيفه؛ فتنحى الناس عنه، وفروا من بين يديه؛ وكفوا عن انتهاب المغنم؛ فرجع إلى مضربه؛ فلما كان من الغد، أمر ألا ينادى على السبي إلا ثلاثة أصوات؛ ليتروج البيع؛ فمن زاد بعد ثلاثة أصوات وإلا بيع ما يتم بيعه. فكان يفعل ذلك في اليوم الخامس. فكان ينادى على الرقيق خمسة خمسة، وعشرة عشرة، والمتاع الكثير جملة واحدة.

كان ملك الروم قد وجه رسولاً في أول يوم لنزول المعتصم على عمورية؛ فأمر به المعتصم فأنزل على موضع الماء الذي كان الناس يستقون منه؛ وكان بينه وبين عمورية ثلاثة أميال. ولم يسمح له بمقابلته حتى تم فتح عمورية؛ فلما تم فتحها أذن له في الانصراف إلى ملك الروم؛ فانصرف فيما كان المعتصم يتوجه وجيشه نحو الثغور؛

= أبقيت جد بني الإسلام في صعد ... والمشركين ودار الشرك في صبب
أم هم لو رجوا أن تفتدى جعلوا ... فداءها كل أم منهم وأب
لقد تركت أمير المؤمنين بها ... للنار يوما ذليل الصخر والخشب
غادرت فيها بهيم الليل وهو ضحى ... يشله وسطها صبح من اللهب
تدبير معتصم بالله منتقم ... لله مرتقب في الله مرتغب
لم يغز قوماً ولم ينهد إلى بلد ... إلا تقدمه جيش من الرعب
تسعون ألفاً كآساد الشرى نضجت ... أعمارهم قبل نضج التين والعنب
خليفة الله جازى الله سعيك عن ... جرثومة الدين والإسلام والحسب

شاعر وقصيدة ـ العماد مصطفى طلاس ـ ١٣٩٩ هـ ـ ١٩٧٧ م ـ ص١٦٦ ـ ١٧١.

وذلك أنه بلغه أن ملك الروم يريد الخروج في أثره لأخذ مؤخرات الجيش والغدر بها. وقضى على الطريق الرئيسي مرحلة، ثم رجع إلى عمورية؛ وأمر الناس بالرجوع، ثم عدل اتجاه سيره، فسلك وجيشه طريق وادي الجوز، وفرق الأسرى على القواد، ودفع إلى كل قائد من القواد طائفة منهم للمحافظة عليهم؛ وفرقهم القواد على أصحابهم؛ فساروا في طريق لمسافة أربعين ميلاً، وهو طريق ليس فيه ماء. وتعرض الجند لمعاناة صعبة. وتقدم المعتصم فحمل ومجموعة من جنده الماء خشية أن يهلك الجند عطشاً. وحاول بعض الأسرى الافادة من وعورة الطريق وصعوبة التموين لإحداث الاضطراب. فأمر المعتصم بقتلهم؛ فقتل ستة آلاف رجل في موضعين من وادي الجوز. ورحل المعتصم من ذلك الموضع؛ يريد الثغر حتى دخل طرسوس. وكان قد نصب له الحياض من الأدم حول العسكر من الماء إلى العسكر، بعمورية، والحياض مملوءة، والناس يشربون فيها؛ لا يتعبون في طلب الماء.

لقد استمرت هذه الحملة لمدة خمسة وخمسين يوماً. وكان عدد جند المسلمين - فيما ذكره الشاعر أبو تمام تسعين ألفاً، فيما كان جيش الروم قد زاد على مائة ألف. وقد أظهر الطرفان المتصارعان روحاً هجومية عالية؛ وإرادة للقتال. غير أن ادارة الحرب في معسكر المعتصم كانت متفوقة بوضوح.



توفي المعتصم سنة ٢٢٧ هـ = ٨٤١ م. وتوفي ملك الروم (توفيل) في السنة ذاتها. وتم تنصيب امرأته (تذورة) وابنها ميخائيل بن توفيل الذي كان صبياً - على عرش مملكة الروم. وشهدت جبهة الصراع مع الروم - البيزنطيين - عودة للهدوء النسبي. وتميزت هذه الفترة بحدوث ما كان يتكرر حدوثه في مثل هذه الفترات مثل تبادل الأسرى؛ أو ما كان يعرف بعملية (الفداء بين المسلمين والروم). ففي سنة ٢٣١ هـ = ٨٤٥ م؛ وصل إلى أمير المؤمنين (الواثق) رسول من قبل ملك الروم (ميخائيل بن توفيل) يسأله أن يفاديَ بمن في يده من أسارى المسلمين. ووافق (الواثق) وحدد يوم عاشوراء (العاشر من المحرم) موعداً للفداء. ثم عقد (الواثق) لأحمد بن سعيد بن سلم

ابن قتيبة الباهلي على الثغور والعواصم؛ وأمره بحضور الفداء. فخرج ومعه سبعة عشر رجلاً من رجال البريد. وكان رسل الروم الذين تقدموا بطلب الفداء قد اختلفوا مع قادة المسلمين في موضوع الفداء؛ وقالوا: «لا نأخذ في الفداء امرأة عجوزاً ولا شيخاً كبيراً ولا صبياً». فلم يزل ذلك بينهم أياماً حتى رضوا عن كل نفس بنفس. ووجه الواثق بالله - أمير المؤمنين - إلى بغداد والرقة في شراء من يباع من الرقيق من مماليك؛ فاشترى من قدر عليه منهم، فلم يتكامل العدد المطلوب؛ فأخرج الواثق بالله من قصره من النساء الروميات حتى تكامل العدد. وكان (خاقان الخادم) قد نشأ في الثغر؛ وعمل في خدمة الرشيد؛ وبقي عيناً للمسلمين على الروم في الثغور؛ فكلفه أمير المؤمنين الواثق بالله بالاشراف على عملية الفداء؛ وأمره بامتحان الأسرى المسلمين، فمن قال: «بأن القرآن مخلوق» فودي به. ومن أبى ذلك ترك في أيدي الروم؛ كما أمر بإعطاء جميع من قال: «ان القرآن مخلوق» ممن فودي به ديناراً لكل انسان. وجاء يوم عاشوراء؛ واجتمع المسلمون ومن معهم وقائدان من قواد الروم، والمسلمون والمطوعة في أربعة آلاف بين فارس وراجل. ووقف المسلمون ومن معهم من أسرى الروم من جانب الطرف الشرقي من نهر اللامس؛ فيما وقف الروم ومن معهم من أسرى المسلمين على الجانب الغربي لنهر اللامس. وعقد المسلمون جسراً على النهر؛ وعقد الروم جسراً، فكان المسلمون يرسلون الرومي على جسرهم، ويرسل الروم الأسير المسلم على جسرهم فيلتقي هذا وذاك في منتصف النهر. فإذا صار المسلم إلى المسلمين كبر وكبروا، وإذا صار الرومي إلى الروم تكلم بكلامهم؛ وتكلموا شبيهاً بالتكبير. وخاف الروم عدد المسلمين لقلتهم وكثرة المسلمين، فآمنهم (خاقان الخادم). وطمأنهم، وضرب بينهم وبين المسلمين أربعين يوماً لا يغزون حتى يصلوا إلى بلادهم ومأمنهم. وقد استمرت عملية الفداء أربعة أيام؛ تم فيها افتداء أربعة آلاف وستمائة انسان مسلم - منهم صبيان ونساء ستمائة - ومنهم من أهل الذمة أقل من خمسمائة؛ والباقون رجال من جميع الآفاق. وتم في هذه العملية استخلاص جميع من كان في بلاد الروم من أسرى المسلمين. وفضل مع - خاقان الخادم - عدد كبير من الروم؛ ممن كان أعطاه أمير المؤمنين للفداء؛ فأعطى صاحب الروم مائة نفس؛ ليكون عليهم الفضل؛ استظهاراً مكان من يخشى أن يأسروه

من المسلمين إلى انقضاء المدة؛ ورد الباقين إلى طرسوس. وكان من بين الذين تم افتداؤهم ـ تحريرهم من الأسر ـ ثلاثون رجلاً قد تنصروا عندما كانوا في بلاد الروم.

انقضت مدة الأربعين يوماً؛ والتي تم الاتفاق عليها باعتبارها فترة هدنة بين خاقان الخادم وقادة الروم. فتولى (أحمد بن سعيد بن سلم بن قتيبة) غزوة لبلاد الروم؛ فأصاب الناس الثلج والمطر؛ فمات منهم قدر مائتي إنسان؛ وغرق منهم في (البدندون) قوم كثير؛ وأسر منهم نحو من مائتين. فغضب أمير المؤمنين الواثق لذلك، لا سيما عندما بلغه أن أحمد بن سعيد؛ ومعه سبعة آلاف رجل؛ قد جبن عن لقاء قوة للروم؛ رغم تحريض وجوه الناس له ـ وقولهم: «إن عسكراً فيه سبعة آلاف لا يتخوف عليه، فإن كنت لا تواجه القوم فلماذا تطرق بلادهم» ولكنه رغم ذلك تجنب القتال؛ واكتفى باقتياد حوالى ألف بقرة وعشرة آلاف شاة. ولهذا أصدر الواثق أمراً بعزله؛ وتعيين (نصر بن حمزة الخزاعي) مكانه. ولم تحدث بعد ذلك غزوات كبرى؛ أو انتظام في أعمال الصوائف؛ وكل ما حدث طوال خمسة عشر عاماً تقريباً هو نوع من الاشتباكات المحدودة والمتباعدة؛ على نحو ما حدث سنة ٢٤١ هـ، عندما أغارت قوة من الروم على (عين زربة) فأسرت من كان بها من الزط؛ مع نسائهم وذراريهم وجواميسهم وبقرهم. وتكررت عملية تبادل الأسرى ـ الفداء ـ في السنة ذاتها؛ إذ أرسلت ملكة الروم (تذورة أم ميخائيل) إلى أمير المؤمنين المتوكل عليه؛ وعرضت عليه المفاداة لمن في أيدي الروم من المسلمين. فوجه المتوكل رجلاً إلى بلاد الروم لمعرفة صحة من في أيدي الروم من أسارى المسلمين. ليأمر بمفاداتهم. وذكر أن (تذورة) أمرت بعد خروج رسول الخليفة من بلاد الروم بإغراء الأسرى بالتنصر؛ فمن قبل التنصر صار مثله كمثل من سبقه وتنصر، ومن أبى قتلته؛ فقيل بأنها قتلت من الأسرى اثني عشر ألفاً. وأرسل المتوكل إلى عمال الثغور الشامية والجزرية؛ ما تقرر بشأن الفداء الذي حدد موعده في يوم عيد الفطر من سنة ٢٤١ هـ ـ وقد جرى الفداء على نهر اللامس ـ فتم افتداء سبعمائة وخمسة وثمانين مسلماً ومن النساء مائة وخمساً وعشرين امرأة. **وفي السنة التالية (٢٤٢ هـ = ٨٥٦ م» خرجت الروم من ناحية**

شمشاط حتى قاربوا (آمد) ثم خرجوا من الثغور الجزرية . فانتهبوا عدة قرى؛ وأسروا نحواً من عشرة آلاف إنسان. ثم انصرفوا راجعين إلى بلادهم، فخرج (قربياس) و(عمر بن عبدالله الأقطع) وقوم من المتطوعة في أثرهم. فلم يلحقوا منهم أحداً. وبعد سنتين (سنة ٢٤٤ هـ) وجه المتوكل قوة الصائفة بقيادة القائد (بغا) لغزو بلاد الروم؛ فقام (بغا) بافتتاح (صملة). فأرسل ملك الروم في السنة التالية مجموعة من أسرى المسلمين إلى (المتوكل). وسأله المفاداة بمن عنده؛ غير أنه لم يحدث أي اتفاق على تبادل الأسرى.

فلما كانت السنة التالية (٢٤٥ هـ) قام الروم بالاغارة على (سميساط) فقتلوا وسبوا نحواً من خمسمائة أسير. ورد المسلمون على ذلك بتوجيه الصائفة بقيادة (علي بن يحيي الأرمني) فقام أهل (لؤلؤة) بمنع رئيسهم من الصعود إليها ثلاثين يوماً. فبعث ملك الروم إليهم بطريقاً يضمن لكل رجل منهم ألف دينار على أن يسلموا إليه (لؤلؤة) فقام أهلها بتسليم البطريق إلى المسلمين، فعرضوا عليه الإسلام أو القتل، فكتب ملك الروم إلى المتوكل يعرض عليه مبادلة البطريق بألف رجل من أسرى المسلمين - غير أنه لم يتم الاتفاق على تبادل الأسرى. عمل المسلمون سنة (٢٤٦ هـ) على تكثيف الصوائف. فتولى (عمر بن عبيدالله الأقطع) قيادة الصائفة؛ فأخرج سبعة آلاف رأس. وقام بغزو (قربياس) فأخرج منها خمسة آلاف رأس، وقام (الفضل بن قارن) بقيادة عشرين مركباً وهاجم عن طريق البحر - أنطاكية - وافتتح حصنها، ثم قام بالغزو (بلكاجور) فغنم وسبى. وقام (علي بن يحيي الأرمني) أيضاً بقيادة الصائفة، فأخرج خمسة آلاف رأس ومن الخيول والحمير نحواً من عشرة آلاف. ووجه المتوكل وفداً إلى ملك الروم برئاسة (نصر بن الأزهر) ومعه الهدايا ونحواً من ألف نافجة مسك وثيابٌ حرير وزعفران كثير وطرائف وفاوض ملك الروم بشأن المفاداة، فتم الاتفاق على الفداء. وأطلق الروم سراح اكثر من ألفي مسلم - منهم عشرون امرأة معهن عشرة من الصبيان - مقابل أكثر بقليل من ألف من الروم.

لعل أكبر تحول حدث في هذه الفترة هو الانصراف عن (هدف الحرب) فلم يعد هذا الهدف هو (ضبط الروم) على نحو ما كان عليه في العهد الأموي.

ولم يعد المحافظة على منعة المسلمين واعزازهم والدفاع عنهم على نحو ما كان عليه في صدر العهد العباسي. وأصبح هذا الهدف ـ في هذه المرحلة ـ هو مجرد الحصول على مغنم مادي؛ أو ـ في أفضل الظروف ـ فتح مطمورة أو حصن ثانوي. وتبع ذلك بداهة تناقص في حجم القوى؛ وتراجع في (فن الحرب). واختفت تلك الأعمال الرائعة التي كانت تعتمد على كفاءة القادة. وعلى الروح المعنوية العالية للمسلمين. فلا غرابة إن انتقلت المبادأة إلى أيدي الروم الذين توافرت لهم الظروف المناسبة للعمل بحرية؛ ولم تكن عملية (الحصول على الأسرى) بمثل تلك الأعداد الكبيرة واحتجازهم إلا الدليل المادي الذي حرص الروم على استثماره للبرهان على ما توافر لهم من الاقتدار؛ ولإقناع المسلمين بعجزهم عن مجابهة الروم. ولعل بالمستطاع ملاحظة هذا التحول من خلال موقف أمير المؤمنين المنتصر (٢٢٣-٢٤٨ هـ = ٨٣٧-٨٦٢ م) تجاه حرب العواصم ـ الثغور ـ سواء من أجل ابعاد (الحاجب وصيف). أو في طريقة استنفار المجاهدين في الأقاليم؛ مما يبرز ضعف القيادة وعجزها عن معالجة حرب العواصم بمثل ما كانت عليه معالجتها في السابق، سواء من حيث نجاعة هذه المعالجة وقوتها؛ أو من حيث تعاملها مع مشكلة الصراع المسلح.

د ـ ضعف القيادة:

اسندت إلى (المنتصر بالله) (*) إمارة المؤمنين وليس له من الأمر شيء؛ فقد آلت السلطة إلى قادة الجند وإلى كبار رجال الحاشية، يعزلون ويقتلون؛ ويمارسون السلطة

(*) المنتصر بالله ـ هو الحادي عشر بين الخلفاء العباسيين واسمه محمد بن جعفر (٢٢٣-٢٤٨ هـ = ٨٣٧-٨٦٢ م) تولى الخلافة لمدة ستة أشهر فقط ومات وهو ابن خمس وعشرين سنة. بويع من بعده للمستعين بالله ـ ثاني عشر خلفاء العباسيين (٢٢٨-٢٥٢ هـ = ٨٤٢-٨٦٦ م) وكانت مدة خلافته ثلاث سنين وتسعة أشهر؛ وعمره أربع وعشرون سنة ومات مقتولاً بويع من بعده للمعتز بالله ـ ثالث عشر خلفاء العباسيين (٢٣١-٢٥٥ هـ = ٨٤٥-٨٦٨ م) وكانت مدة خلافته أربع سنين وستة أشهر؛ وقتل وعمره أربع وعشرون سنة. بويع من بعده للمهتدي بالله محمد بن الواثق فكان الرابع عشر من الخلفاء العباسيين (٢١٨-٢٥٦ هـ = ٨٣٣-٨٦٩ م) كانت مدة خلافته أحد عشر شهراً وعمره ٣٧ عاماً. وهكذا فقد تم خلال ثمانية أعوام فقط خلع اربعة خلفاء ذهب ثلاثة منهم قتلاً. خلال الفترة (٢٤٨-٢٥٦ هـ = ٨٦٢-٨٦٩ م).

بحرية شبه كاملة. وكان (أحمد بن الخصيب) هو وزير المنتصر بالله؛ وكانت بينه وبين قائد الجند (وصيف) شحناء وتباغض؛ فقام أحمد بن الخصيب بتحريض أمير المؤمنين المنتصر على (وصيف) من أجل ابعاده وتعيينه لقيادة الغزو في الثغور. وقام (المنتصر بالله) بإحضار القائد (وصيف)، فلما حضر، جلس إليه (المنتصر بالله) وقال له: **«إن الطاغية - ملك الروم - قد تحرك، وهو يريد الثغور؛ ولست آمنه أن يهلك كل ما يمر به من بلاد الإسلام؛ ويقتل ويسبي الذراري؛ وهذا أمر لا يمكن الإمساك عنه؛ فإما شخصت أنا وإما شخصت أنت - فإذا غزوت وأردت الرجعة؛ انصرفت إلى باب أمير المؤمنين من فورك»**. فرد عليه وصيف: «بل أشخص أنا يا أمير المؤمنين». وعندها التفت (المنتصر بالله) إلى وزيره (أحمد بن الخصيب) وقال له: «يا أحمد! انظر ما يحتاج إليه؛ على أبلغ ما يكون، فأقمه له» ثم عاد لمخاطبة وصيف وقال له: «يا وصيف! مر كاتبك فليوافقه على ما تحتاج إليه». وقام وصيف وابن الخصيب فشرعا على الفور بالاعداد للغزو. وجمع حوالى عشرة آلاف رجل؛ ونظمهم في جيش وضع على مقدمته مزاحم بن خاقان وعلى الميمنة السندي بن بختاشة وعلى المشاة نصر بن سعيد المغربي وعلى الساقة محمد بن رجاء؛ واستعمل على الناس والعسكر خليفته، أباعون، ثم غادر الموصل، **وقام بغزوته (فما أفلح ولا أنجح). فلما عاد، وصله أمر من (المنتصر بالله) بالمقام ببلاد الثغر أربع سنين؛ يغزو في أوقات الغزو منها إلى أن يأتيه رأي أمير المؤمنين.**

تجدر الإشارة إلى ذلك الكتاب الذي وجهه أمير المؤمنين المنتصر بالله عندما أغزى مولاه وصيفاً - إلى محمد بن عبد الله بن طاهر - والذي كانت نسخته:

«بسم الله الرحمن الرحيم: من عبدالله محمد المنتصر بالله أمير المؤمنين إلى محمد ابن عبدالله مولى أمير المؤمنين: سلام عليك! فإن أمير المؤمنين يحمد إليك الله الذي لا إله إلا هو؛ ويسأله أن يصلي على محمد عبده ورسوله صلى الله عليه وعلى آله. أما بعد، فإن الله وله الحمد على آلائه؛ والشكر بجميل بلائه، اختار الإسلام وفضله؛ وأتمه وأكمله؛ وجعله وسيلة إلى رضاه ومثوبته؛ وسبيلاً نهجاً إلى رحمته؛ وسبباً إلى مذخور كرامته؛ فقهر له من خالفه، وأذل له من عَنَدَ عن حقه؛ وابتغى غير سبيله؛ وخصه بأتم الشرائع

وأكملها؛ وأفضل الأحكام وأعدلها؛ وبعث به خيرته من خلقه؛ وصفوته من عباده؛ محمداً ﷺ؛ وجعل الجهاد أعظم فرائضه منزلة عنده؛ وأعلاها رتبة لديه؛ وأنجحها وسيلة إليه؛ لأن الله عز وجل أعز دينه؛ وأذل عتاة الشرك. قال عز وجل آمراً بالجهاد، ومفترضاً له ﴿ٱنْفِـرُوا خِفَافاً وَثِقَالاً وَجَاهِدُوا بِأَمْوَالِكُم وأَنْفُسِكُمْ فِي سَبِيلِ آللهِ؛ ذٰلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُـونَ﴾[1].

وليست تمضي بالمجاهد في سبيل الله حال لا يكابد في الله نصباً ولا أذى؛ ولا ينفق نفقة؛ ولا يقارع عدواً؛ ولا يقطع بلداً؛ ولا يطأ أرضاً؛ إلا وله بذلك أمر مكتوب؛ وثواب جزيل؛ وأجر مأمول؛ قال الله عز وجل: ﴿ذٰلِكَ بِأَنَّهم لاَ يُصِيبُهُمْ ظَمأ وَلاَ نَصَبٌ وَلاَ مَخْمَصَةٌ فِي سَبِيلِ آللهِ ولا يطؤون موطئاً يَغيظُ ٱلْكُفار؛ وَلاَ يَنَالُون مِنْ عَدوٍ نَيْلاً إِلاَّ كُتِبَ لَهُم بِهِ عَمَلٌ صَالِحٌ إِنَّ آللهَ لا يُضِيعُ أَجْرَ الـمُحْسِنِينَ ★ وَلاَ يُنْفِقُون نَفَقَةً صَغِيرةً وَلاَ كَبِيرةً وَلاَ يَقْطَعُونَ وادياً إِلاَّ كُتِبَ لَهُمْ لِيجْزِيَهُمْ آللهُ أَحْسَنَ مَا كَانُوا يَعْمَلُـــونَ﴾[2].

ثم أثنى عز وجل بفضل منزلة المجاهدين على القاعدين عنده، وما وعدهم من جزائه ومثوبته، وما لهم من الزلفى عنده فقال: ﴿لاَ يَسْتَـوِي ٱلْقَـاعِـدُون مِـنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ غَيْر أُولِي آلضَرَر والمُجاهِدُون فِي سَبِيلِ آللهِ بِأَمْوالِهِمْ وأَنْفُسِهم. فَضَّلَ آللهُ ٱلْمُجَاهِدِينَ بِأَمْوالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ عَلَى ٱلْقَاعِدِينَ دَرَجَةً وَكلاً وَعَدَ آللهُ الْحُسْنَى. وَفَضَّلَ آللهُ الْمُجَاهِدِين عَلَى الْقَاعِدِينَ أَجْراً عَظِيماً﴾[3].

فبالجهاد اشترى الله من المؤمنين أنفسهم وأموالهم؛ وجعل جنته ثمناً لهم، ورضوانه جزاء لهم على بذلها؛ وعداً منه حقاً لا ريب فيه، وحكماً عدلاً لا تبديل له. قال الله عزّ وجل:

﴿إِنَّ آللهُ آشْتَرى مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوالَهُمْ بِأَن لَهُم ٱلْجَنَّةَ يُقَاتِلونَ فِي

---

(١) الجزء العاشر ـ سورة التوبة ـ الآية ٤١

(٢) الجزء الحادي عشر ـ سورة التوبة الآية ١٢٠ و ١٢١.

(٣) سورة النساء ٩٥.

سَبِيلِ ٱللهِ فَيَقتُلُون وَيُقْتَلُونَ وَعْداً عليهِ حَقاً في ٱلتَوراة وَالإِنْجِيل وٱلْقُرآن وَمَنْ أَوْفَى بِعَهْدِهِ مِنَ ٱللهِ فَٱسْتَبْشِروا بِبَيْعِكُم ٱلّذي بَايَعْتُمْ بِهِ وَذلِكَ ٱلْفوز الْعَظِيمُ﴾ [1] .

وحكم الله عز وجل لأحياء المجاهدين بنصره والفوز برحمته ؛ وأشهد لموتاهم بالحياة الدائمة ؛ والزلفى لديه ؛ والحظ الجزيل من ثوابه . فقال:

﴿وَلاَ يَحْسَبَنَّ ٱلّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ ٱللهِ أَمْوَاتاً بَلْ أَحْيَاءٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ ★ فَرِحِينَ بِمَا آتَاهُمُ اللهُ مِنْ فَضْلِهِ وَيَسْتَبْشِرُون بِالّذِينَ لَمْ يَلحَقُوا بِهِمْ مِنْ خَلْفِهِمْ أَلاَّ خَوفٌ عَلَيْهِمْ وَلاَ هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ [2] .

وليس من شيء يتقرب به المؤمنون إلى الله عز وجل من أعمالهم ؛ ويسعون به في حط أوزارهم ؛ وفكاك رقابهم ؛ ويستوجبون به الثواب من ربهم ؛ إلا والجهاد عنده أعظم منه منزلة ؛ وأعلى لديه رتبة ؛ وأولى بالفوز في العاجلة والآجلة ، لأن أهله بذلوا لله أنفسهم ، لتكون كلمة الله هي العليا . وسمحوا بها دون من وراءهم من إخوانهم وحريم المسلمين وبيضتهم ؛ ووقموا بجهادهم العدو .

وقد رأى أمير المؤمنين ـ لما يحبه من التقرب إلى الله بجهاد عدوه ؛ وقضاء حقه عليه فيما استحفظه من دينه ؛ والتماس الزلفى له في إعزاز أوليائه ؛ وإحلال البأس والنقمة بمن حاد عن دينه وكذب رسله وفارق طاعته ؛ أن ينهض ـ وصيفاً ـ مولى أمير المؤمنين في هذا العام الى بلاد الأعداء لله من الكفرة والروم ؛ غازياً لما عرف الله أمير المؤمنين من طاعته ؛ ومن مناصحته ومحمود نقيبته ؛ وخلوص نيته ، في كل ما قربه من الله ومن خليفته .

وقد رأى أمير المؤمنين ؛ والله ولي معونته وتوفيقه ؛ أن تكون موافاة وصيف فيمن أنهض أمير المؤمنين معه من مواليه وجنده وشاكريته ثغر ملطية لأثنتي عشرة ليلة تخلو من شهر ربيع الآخر سنة ثمان وأربعين ومائتين ؛ وذلك من شهور العجم للنصف من

---

(١) سورة التوبة ١١١ .

(٢) آل عمران الآية ١٦٩ و ١٧٠ . وانظر تاريخ الطبري والكامل في التاريخ ـ احداث سنة ٢٤٨ هـ .

حزيران ودخوله بلاد أعداء الله في أول يوم من تموز. فاعلم ذلك؛ واكتب الى عمالك على نواحي عملك بنسخة كتاب أمير المؤمنين هذا؛ ومرهم بقراءته على من قبلهم من المسلمين؛ وترغيبهم في الجهاد؛ وحثهم عليه؛ واستنفارهم إليه؛ وتعريفهم ما جعل الله من الثواب لأهله ليعمل ذوو النيات والحسبة والرغبة في الجهاد على حسب ذلك في النهوض إلى عدوهم؛ والخفوف إلى معاونة إخوانهم؛ والذياد عن دينهم؛ والرمي من وراء حوزتهم؛ بموافاة عسكر وصيف مولى أمير المؤمنين ملطية؛ في الوقت الذي حده أمير المؤمنين لهم إن شاء الله؛ والسلام عليك ورحمة الله وبركاته».

لم يكن من عادة أمراء المسلمين تحريض المجاهدين في سبيل الله بمثل هذا الاسلوب؛ على نحو ما سبق عرضه؛ ولم تكن هناك حاجة للأخذ بمثل هذا النهج في تجهيز غزوة لم يتجاوز عدد مقاتليها عشرة آلاف مقاتل؛ لو لم يكن موقف الخليفة (المنتصر بالله) ضعيفاً في مواجهة قائده (وصيف). ولقد كان من عادة امراء المسلمين تكليف أبنائهم أو اخوانهم أو أكثر قادتهم شهرة وكفاءة تشريفاً لهم بقيادة الغزو - ولم يكن هذا العمل من قبل عقوبة أو إبعاداً ونفياً. وعلى كل حال؛ فقد أقام (وصيف) في الثغر؛ حتى ورد عليه نبأ موت المنتصر؛ ثم دخل بلاد الروم، وافتتح حصناً يقال له (فروريه) وعاد من غزاته دون أن يحقق نصراً كبيراً. فلما كانت السنة التالية (٢٤٩ هـ = ٨٦٣ م) تولى (جعفر بن دينار) قيادة الصائفة؛ فافتتح حصناً ومطامير؛ واستأذنه (عمر بن عبيدالله الأقطع) بالتوجه الى ناحية من بلاد الروم؛ فأذن له؛ فسار ومعه خلق كثير من أهل (ملطية) فلقيه ملك الروم في جمع عظيم من الروم في موضع (أرز - من مرج الأسقف) فحاربه بمن معه محاربة شديدة؛ قتل فيها خلق كثير من الفريقين، ثم أحاطت به الروم وهم - خمسون ألفاً - فقتل (عمر بن عبيد الله الأقطع) وألفا رجل من المسلمين. وكان النصر للروم الذين استثمروا هذا النصر فساروا الى الثغور الجزرية؛ وكلبوا عليها وعلى حرم المسلمين بها. فبلغ ذلك (علي بن يحيى) وهو راجع من غزاته من أرمينية إلى ميافارقين، فنفر إليهم في جماعة من أهل ميافارقين فقتل في نحو من أربعمائة رجل، وسرعان ما انتشرت أنباء الهزيمة في مدينة السلام

وسامراء وسائر ما قرب منها من مدن الإسلام. وزاد من وقع الهزيمة استشهاد (عمر بن عبيدالله الأقطع) و(علي بن يحيى الأرمني) اللذين كانا نابين من أنياب المسلمين؛ شديداً بأسهما؛ عظيماً غناؤهما عنهم في الثغور التي هما بها، فشق ذلك على المسلمين؛ وعظم مقتلهما في صدورهم؛ مع قرب مقتل أحدهما من مقتل الآخر. **هذا مع ما لحقهم من استفظاعهم من الأتراك قتل المتوكل واستيلائهم على أمور المسلمين؛ وقتلهم من أرادوا قتله من الخلفاء واستخلافهم من أحبوا استخلافه من غير رجوع منهم الى ديانة ولا نظر للمسلمين؛ فاجتمعت العامة ببغداد بالصراخ والنداء بالنفير؛ وانضمت إليها الأبناء والجند ـ الشاكرية ـ تظهر أنها تطلب الأرزاق.** وفتحوا سجن (نصر بن مالك) وأخرجوا من فيه ومن كان في (القنطرة) بباب الجسر، حيث كان فيه جماعة من نواحي خراسان والصعاليك من أهل الجبال والمحمرة وغيرهم. وقطعوا أحد الجسرين؛ وضربوا الآخر بالنار فانحدرت سفنه؛ وانتهبوا ديوان قصص المحبسين، وقطعت الدفاتر وألقيت في الماء، كما انتهبوا دار بشر وابراهيم ابني هارون النصرانيين كاتبي (محمد بن عبدالله) وذلك كله بالجانب الشرقي من بغداد. ثم أخرج أهل اليسار من أهل بغداد وسامراء أموالاً كثيرة من أموالهم؛ فقووا من خف للنهوض الى الثغور لحرب الروم بذلك؛ واقبلت العامة من نواحي الجبل وفارس والأهواز وغيرها لغزو الروم؛ ولكن ذلك لم يغير من موقف السلطان، الذي لم يوجه جيشاً لحرب الروم في تلك الأيام؛ ولقد حدث في سامراء ما حدث في بغداد؛ فقد وثب نفر من الناس بسامرا ـ لم يعرفهم أحد ـ ففتحوا السجن الذي بها؛ وأخرجوا من فيه؛ فوجه القائد (زرافة) جماعة في طلب الذين فعلوا ذلك؛ فوثبت بهم العامة فهزموهم، ثم ركب القادة (اوتامش) و (وصيف) و (بغا) وعامة الأتراك؛ فقتلوا من العامة جماعة، وألقي على وصيف قدر مطبوخ، ورمي بالحجارة؛ فأمر (وصيف) النفاطين؛ فقذفوا ما هنالك من حوانيت التجار ومنازل الناس بالنار. وقامت المغاربة بانتهاب منازل جماعة من العامة في ذلك اليوم، ثم سكن الأمر في نهاية ذلك اليوم.

* * *

لقد أدت سياسة الضعف الداخلية الى انهيارات على جبهة الصراع المسلح الخارجية؛ وانعكست تلك الهزائم الخارجية على الجبهة الداخلية؛ فبرزت الفتن وتعاظمت اعمال التمرد والعصيان. وتوقفت اعمال الصوائف، إلا من بعض اعمال ثانوية. وعلى الرغم من تمكن (المعتمد على الله) (*) من تحقيق انتصارات كثيرة لفرض وجود الدولة - داخلياً - إلا أن ما بذله من جهد لضمان الأمن وتحقيق الاستقرار قد صرفه عن الغزو؛ الأمر الذي سمح للروم بالحصول على الفرصة المناسبة لبناء جبهتهم الداخلية، وامتلاك المبادأة، وممارسة أعمال الغزو؛ والهجوم على ثغور المسلمين.

لقد غاب ذكر الصوائف وغزو بلاد الروم طويلاً حتى إذا ما كانت سنة ٢٦٤ هـ = ٨٧٧ م قام قائد الثغور (عبدالله بن رشيد بن كاوس) بقيادة من **أربعة آلاف مقاتل** ودخل بهم إلى بلاد الروم عن طريق - الثغور الشامية - ووصل إلى (حصنين) و(المسكنين) فغنم المسلمون؛ ورجعوا، فلما تجاوزوا (البدّندون) خرج عليهم بطريق سلوقية؛ وبطريق قذيذية؛ وبطريق قرة وكوكب وخرشنة؛ فأحدقوا بالمسلمين، فنزل هؤلاء عن خيولهم، وقاتلوا وقتلوا وتمكن خمسمائة أو ستمائة منهم من الفرار؛ وأسر (عبدالله بن رشيد) بعد أن اثخنته الجراح، وحمل الى لؤلؤة ثم حمل إلى ملك الروم. فلما كانت السنة التالية (٢٦٥ هـ = ٨٧٨ م) خرج خمسة من بطارقة الروم **في ثلاثين ألفاً من جند الروم**؛ ووصلوا الى أذنه. ثم الى الموصل؛ وأسروا والي الثغور (أرخوز) وأسروا معه نحو من أربعمائة رجل؛ وقتلوا ممن نفر اليهم نحواً من ألف وأربعمائة رجل؛ وانصرفوا في اليوم الرابع الى بلادهم. ولما كانت الثغور قد أصبحت تحت ولاية والي مصر (أحمد بن طولون) (*) فقد رغب ملك الروم أن يتقدم بمبادأة (حسن نية)

(*) المعتمد على الله - احمد بن أبي جعفر - (٢٢٩ - ٢٧٩ هـ = ٨٤٣ - ٨٩٢ م) هو الخامس عشر بين خلفاء بني العباس - بويع بالخلافة سنة ٢٥٦ هـ = ٨٦٩ م وعمره ٢٥ سنة. وحكم ثلاثاً وعشرين سنة وستة أشهر. فبويع المعتضد بالله - أبو العباس احمد بن الموفق ابن المتوكل.

(*) أحمد بن طولون. مؤسس دولة الطولونيين في مصر. ولي مصر سنة ٢٤٤ هـ = ٨٥٥ م وأفاد من ضعف الدولة العباسية حتى صار إليه حكم مصر والشام والثغور الشامية؛ وقد أظهر باستمرار ولاءه للدولة العباسية ودعمه للخليفة؛ كان عاقلاً حازماً كثير المعروف والصدقة متديناً؛ يحب

فأرسل اليه الأسير قائد الثغور (عبدالله بن رشيد بن كاوس). مع عدد من الأسرى، وعدة مصاحف هدية منه له. فلما كانت السنة التالية (٢٦٦ هـ = ٨٧٩ م) خرجت سرية من جند الروم حتى وصلت (تل بَسْمَى) من ديار ربيعة، فقتلت من المسلمين؛ وأسرت نحواً من مائتين وخمسين إنساناً؛ فنفر أهل نصيبين وأهل الموصل؛ فرجعت الروم الى بلادها ـ عبر الثغور الجزرية ـ. وما لبث عامل أحمد بن طولون على الثغور الشامية (سيما) أن قاد **ثلاثمائة رجل من أهل طرسوس**؛ فخرج إليهم الروم من هرقلة بقوة أربعة آلاف مقاتل؛ فاقتتلوا قتالاً شديداً؛ فقتل المسلمون من الروم خلقاً كثيراً، وأصيب من المسلمين جماعة كثيرة. وفي سنة (٢٦٨ هـ = ٨٨١ م) خرج طاغية الروم (ابن الصقلبية) فنزل على (ملطية). وأسرع أهل مرعش والحدث لنجدة حامية ملطية مما أرغم قوات الروم على الانسحاب. وقام عامل ابن طولون على الثغور الشامية (خلف الفرغاني) فقتل من الروم بضعة عشر ألفاً؛ وغنم الناس، فبلغ السهم ـ نصيب أو حصة ـ المجاهد أربعين ديناراً. ولكن الثغور الشامية ما لبثت ان أعلنت تمردها على (ابن طولون) فسار ابن طولون في السنة التالية (٢٦٩ هـ = ٨٨٢ م) وغادر مصر، حتى وصل الى دمشق؛ ثم سار الى الثغور الشامية، فنزل (أذنة) و (سديازمان) ثم رجع الى انطاكية ومنها الى حمص، فدمشق؛ ثم عاد الى مصر.

وجاءت سنة ٢٧٠ هـ = ٨٨٣ م. وفيها خرجت الروم في مائة ألف؛ فنزلوا على قلمية ـ وهي على بعد ستة أميال من طرسوس ـ. وعلم عامل ابن طولون على الثغور الشامية (بازمار) فقاد قوة، وباغت جيش الروم بهجوم ليلي؛ فقتل منهم سبعين ألفاً ـ على ما قيل ـ وقتل مقدمهم وهو بطريق البطارقة؛ وقتل أيضاً بطريق القباذيق. وبطريق الباطليق، وهرب بطريق قرة بعد ان أثخنته الجراح. وغنم المسلمون فيما غنموا سبع صلبان من ذهب وفضة؛ وصليبهم الأعظم المصنوع من الذهب والمزين بالجواهر؛ كما غنم المسلمون خمسة عشر ألف دابة وبغل ومن السروج وغير ذلك؛ وسيوفاً محلاة

= العلماء وأهل الدين، وعمل كثيراً من أعمال البر ومصالح المسلمين؛ وهو الذي بنى قلعة يافا، وكان يميل الى مذهب الشافعي، ويكرم أصحابه. توفي سنة ٢٧٠ هـ = ٨٨٣م ودفن عند سفح المقطم ـ على الطريق المواجه للقرافة الصغرى. واقيم ابنه (خمارويه) في مكانه ولقب بأبي الجيوش.

وأربع كراسي من ذهب؛ ومائتي كرسي من فضة وآنية كثيرة؛ ونحواً من عشرة آلاف علم ديباج؛ وديباجاً كثيراً وغنائم متنوعة كثيرة. وعاد قائد الثغور الشامية (بازمار) فقاد جيشه سنة ٢٧٤ هـ = ٨٨٧ م، وأوغل في أرض الروم، فأوقع فيها بكثير من أهلها؛ وقتل وغنم وسبى وأسر وعاد سالماً إلى طرسوس. فلما كانت سنة ٢٧٨ هـ = ٨٩١ م. قاد (بازمار) الصائفة ووصل الى (شكند ـ أوسلند) فأصابت (بازمار) شظية من حجر منجنيق في أضلاعه؛ فارتحل عنها بعد ان أشرف على فتحها. وتوفي في الطريق؛ فحمل الى طرسوس؛ ودفن بها.

لقد حاول الخليفة (المعتضد بالله) (*) السيطرة على الأمور؛ وسار على نهج المعتمد؛ إلا أنه لم يتمكن من تحقيق نجاح في حرب الثغور - رغم ما اشتهر به من الشجاعة والاقدام. ولقد كان لضعف الطولونيين وصراعاتهم للسيطرة على بلاد الشام والثغور دور في إضعاف الثغور. وقد حدث في سنة ٢٨٧ هـ = ٩٠٠ م، أن اجتمعت الروم؛ وحشدت قواتها، وسارت حتى وصلت باب قلمية من طرسوس؛ فنفر إليهم أمير طرسوس (أبو ثابت) وسار الى نهر الرجان، ولكن الروم أسروه وأصيب الناس معه بنكبة، وكان (ابن كلوب) غازياً في درب السلامة، فلما عاد؛ جمع مشايخ الثغر ليتراضوا بأمير؛ فأجمعوا رأيهم على (ابن الاعرابي) فولوه أمرهم لحرب الثغور. ولكن (محمد بن أبي الساج) تآمر مع مولاه (وصيف خادم) واتفق معه على السيطرة على الثغور. وتنفيذاً لهذا الاتفاق تظاهر (وصيف خادم) بالفرار من (برذعة) الى (ملطية) وكتب الى أمير المؤمنين المعتضد، سأله في رسالته ان يوليه الثغور. ولكن المعتضد شك في الأمر؛ فاستجوب الرسل، فاعترفوا بأن وصيف خادم قد اتفق مع مولاه على خطة لتولي الثغور؛ حتى اذا ما صارت الولاية لوصيف سار إليه مولاه (محمد بن أبي الساج) وقصدا ديار مضر، وتغلبا عليها. فسار المعتضد حتى وصل (عين زربة) ودفع قوة هاجمت (وصيف خادم) وأخذته أسيراً بعد معركة قصيرة؛ وجاءت به الى المعتضد فحبسه؛ وأمر العسكر برد ما نهبوه؛ ففعلوا.

(*) المعتضد بالله ـ أبو العباس أحمد بن الموفق ابن المتوكل. ولي الخلافة سنة ٢٧٩ هـ وهو السادس عشر بين خلفاء بني العباس (٢٤٢ - ٢٨٩ هـ = ٨٥٦ - ٩٠١م) وصف بأنه: «كان مهيباً عند أصحابه يتقون سطوته؛ ويكفون عن الظلم خوفاً منه». وخلفه بعده ولده المكتفي بالله أبو محمد.

فلما فرغ المعتضد من أمر (وصيف) سار إلى (المصيصة) .وأحضر رؤساء طرسوس فقبض عليهم لأنهم كاتبوا وصيفاً ؛ وأمر بإحراق مراكب طرسوس التي كانوا يغزون فيها ؛ فأحرقت وجميع آلاتها ؛ وكان من جملتها نحواً من خمسين مركباً قديمة أنفق عليها من الأموال ما لا يحصى؛ ولا يمكن عمل مثلها ؛ فأضر ذلك بالمسلمين؛ وفت في أعضادهم؛ وساعد الروم على الغزو في البحر. وكان إحراقها بإشارة (دميانة غلام بازمار) لشيء كان في نفسه على أهل طرسوس. واستعمل المعتضد على أهل الثغور (الحسن بن علي كورة) ثم عاد الى انطاكية وحلب وغيرهما. فلما كانت السنة التالية (٢٨٨ هـ = ٩٠١ م) وجه (الحسن بن علي كورة) قوة الصائفة بقيادة صاحبه (نزار بن محمد) لغزو بلاد الروم.. فغزا؛ وفتح حصوناً كثيرة للروم؛ وعاد ومعه الأسرى. **ثم ان الروم ساروا في البر والبحر الى ناحية (كيسوم) فأخذوا من المسلمين أكثر من خمسة عشر الف أسير ـ وعادوا بهم الى بلادهم.**

حدث في عهد أمير المؤمنين (المكتفي بالله) (*) ـ في سنة ٢٩١ هـ = ٩٠٣ م أن أخرج الروم عشرة صلبان مع كل صليب عشرة آلاف رجل لغزو ثغور المسلمين. فقصد جماعة منهم الى (الحدث) فأغاروا وسبوا وأحرقوا. فسار المعروف (بغلام زرافة) من طرسوس نحو بلاد الروم؛ ففتح مدينة أنطاكية ـ وهي تعادل القسطنطينية عندهم ـ وفتحها بالسيف عنوة؛ فقتل خمسة آلاف رجل؛ وأسر مثلهم؛ واستنقذ من أسارى المسلمين خمسة آلاف؛ وأخذ لهم ستين مركباً؛ فحمل فيها ما غنم لهم من الأموال والمتاع والرقيق. وقدر نصيب كل رجل ألف دينار. واستبشر المسلمون بذلك؛ ورد الروم على ذلك في السنة التالية (٢٩٢ هـ = ٩٠٤ م) بإغارة تولى قيادتها (اندرونقس الرومي) فهاجم مرعش ونواحيها؛ فنفر أهل المصيصة وأهل طرسوس؛ فأصيب جماعة من المسلمين.

(*) المكتفي بالله ـ أبو محمد علي بن المعتضد بالله ـ السابع عشر بين خلفاء بني العباس (٢٦٤ ـ ٢٩٥ هـ = ٨٧٧ ـ ٩٠٧ م) بويع بالخلافة سنة ٢٩٥ هـ ـ فكانت مدة خلافته ست سنين وسبعة أشهر، بويع من بعده المقتدر بالله أبو الفضل جعفر بن المعتضد.

تولى (ابن كيغلغ) سنة ٢٩٤ هـ = ٩٠٦م قيادة غزو بلاد الروم؛ فخرج من طرسوس، ووصل الى شكنـد وفتحها الله عليه؛ وسار الى أليس؛ فسبى من الروم أربعة آلاف أسير، وغنم نحواً من خمسين ألف رأس؛ وقتل من الروم مقتلة عظيمة، وعاد وجيشه سالمين؛ فما كان من قائد الروم في حرب الثغور (البطريق اندرونقس) إلا أن كتب الى أمير المؤمنين المكتفي بالله ـ طالباً الأمان، فأعطاه المكتفي كل ما طلبه: فخرج ومعه مائتا أسير من المسلمين كانوا في حصنه؛ وأعطى هؤلاء المسلمين سلاحاً، ويظهر ان ملك الروم قد عرف ما يريد ان يفعله قائده (أندرونقس) فأرسل جيشاً لاحباط محاولته؛ وسار جمع من المسلمين لدعم (أندرونقس) حتى بلغوا (قونية). وكان أندرونقس ومن معه من المسلمين قد نجحوا في تنفيذ اغارة ليلية على معسكر قوات الملك، وقتلوا خلقاً كثيراً وغنموا ما في عسكرهم.

ولما علم الروم بقيام المسلمين بتخريب قونية، وتقدم قواتهم؛ رجعوا الى بلادهم، ووصل البطريق (أندرونقس) الى بغداد، وأسلم؛ ثم ان ملك الروم أرسل الى أمير المؤمنين المكتفي بطلب الفداء. وتم هذا الفداء بين المسلمين والروم؛ وكان عدة من فودي به من الرجال والنساء ثلاثة آلاف. **وتوافق هذا الفداء مع وفاة أمير المؤمنين المكتفي؛ وخلافة (المقتدر بالله) (*) الذي حاول إعطاء الثغور وحرب الروم ما تستحق من الأهمية، غير أن استفحال دور القرامطة؛ وشق عصا الطاعة في المغرب بظهور الدعوة العلوية؛ وتكاثر الفتن؛ قد صرفه عن غايته**. وذكر ان امير الثغور (رستم) قام سنة ٢٩٩ هـ = ٩١١ م بقيادة الصائفة وغزو بلاد الروم من ناحية طرسوس، فحصر حصن (مليح الأرمني) ثم دخل بلده وأحرقه. وفي سنة ٣٠٢ هـ = ٩١٤ م قام والي طرسوس (بشر الخادم) بغزو بلاد الروم؛ ففتح فيها وغنم وسبى؛ وسبى وأسر مائة وخمسين بطريقاً. وكان مجموع السبي ألفي أسير. **غير ان**

(*) المقتدر بالله ـ أبو الفضل جعفر بن المعتضد؛ الثامن عشر بين خلفاء بني العباس. (٢٨٢ ـ ٣٢٠ هـ = ٨٩٥ ـ ٩٣٢ م). ولي الخلافة سنة ٢٩٥ هـ = ٩٠٧ م. وكانت مدة خلافته ٢٤ سنة وأحد عشر شهراً. اشتهر عهده بالضعف والتمزق؛ رغم طول مدته. وقد خلفه القاهر بالله ـ الابن الثالث للمعتضد بالله ـ إلا أنه لم يحكم اكثر من سنة ونصف السنة فخلفه الراضي بالله.

أهم حدث وقع في تلك الفترة هو قدوم رسل ملك الروم الى المقتدر في مدينة السلام (سنة ٣٠٥ هـ = ٩١٧ م) بطلب الهدنة والفداء ؛ ورئيساهم شيخ وحدث ؛ ومعهما عشرون رومياً ؛ فخلع المقتدر عليهما وأكرمهما ؛ وكان في الخلع طيالسة ديباج مثقلة ؛ وأمر لكل واحد من الاثنين بعشرين ألف درهم . ووصف احتفال المقتدر بمجيء رسل الروم بما يدهش العقول ويشرح الصدور ويسر النفوس ؛ من حشد الجند والزينة وآلات الذهب والفضة والجوهر والفرش والفيلة والزرافات والسباع والفهود والطيور حتى بهروا مما رأوا وأجفلوا . وقد أدخل الرسل في البداية على الوزير ، وهو في أكمل أبهة ، وصفت الأجناد بالسلاح والزينة التامة ، وأديا الرسالة إليه ، ثم إنهما دخلا على المقتدر ؛ وقد جلس لهما ، واصطف الأجناد بالسلاح والزينة التامة ؛ وأديا الرسالة ، فأجابهما المقتدر إلى ما طلب ملك الروم من الفداء ، وسير (مؤنساً الخادم) ليحضر الفداء ؛ وجعله أميراً على كل بلد يدخله ؛ يتصرف فيه على ما يريد إلى أن يخرج منه ؛ وسير معه جمعاً من الجنود ؛ وأطلق لهم أرزاقاً واسعة ؛ وأنفذ معه مائة ألف وعشرين ألف دينار لفداء أسارى المسلمين . وسار مؤنس والرسل ؛ وكان الفداء على يد مؤنس .

لم تستمر حالة الهدوء على اثر ذلك لأكثر من تسع سنين ؛ ففي سنة ٣١٤ هـ = ٩٢٦ م خرجت الروم الى (ملطية) وما يليها بقيادة (الدمستق) و (مليح الأرمني) صاحب الدروب فنزلوا على (ملطية) وحصروها . فصبر أهلها ؛ ففتح الروم أبواباً من الربض ، ودخلوا ملطية ؛ فقاتلهم أهلها وأخرجوهم من المدينة ، ولم يظفر الروم من ملطية بشيء ، فقاموا بتخريب قرى كثيرة من قراها . ونبشوا الموتى ومثلوا بهم ورحلوا عنهم . وقصد أهل ملطية بغداد مستغيثين ، فلم يغاثوا ، فعادوا بغير فائدة . وقام اهل طرسوس بغزو الروم في الصائفة فغنموا وعادوا سالمين . وفي سنة ٣١٦ هـ = ٩٢٨ م . **وصل الى بغداد كتاب بموت ملك النصارى الدمستق ، فقرىء الكتاب على المنابر (؟) . ولكن الفرحة بموت ملك الروم لم تستمر طويلاً ؛ إذ سرعان ما جاء الملك الجديد وقاد جيشاً بلغ عدد أفراده ثلاثمائة ألف جندي ، وسار به الى (أرمينية) وحاصر خلاط ، فصالحه اهلها بعد ما قتل وسبى على قطيعة وعشرة**

آلاف دينار، ثم رحل عنهم بعد أن أخرج المنبر من الجامع وجعل مكانه صليباً، وفعل (ببدليس) كذلك؛ وخافه أهل (أرزن) وغيرهم؛ ففارقوا بلادهم؛ وانحدر أعيانهم الى بغداد؛ واستغاثوا الى الخليفة فلم يغاثوا. ووصل سبعمائة رجل من الروم والأرمن إلى (ملطية) ومعهم الفؤوس والمعاول؛ وأظهروا أنهم يتكسبون بالعمل. ثم ظهر ان قائد الثغور (مليحاً الأرمني) قد ارسلهم للإقامة فيها؛ فإذا حصرها سلموها إليه، فعلم أهل ملطية بهم؛ فقتلوهم؛ وأخذوا ما معهم. **وهكذا ضعفت الثغور الجزرية ضعفاً كبيراً؛ وباتت عاجزة عن دفع الروم؛ مما حمل أهل ملطية وميافارقين وآمد وأرزن. وغيرها على ارسال وفد الى بغداد لمقابلة الخليفة المقتدر بالله (سنة ٣١٧ هـ = ٩٢٩ م) لاستئذانه في تسليم الثغور لملك الروم، ولشرح عجزهم، ولاستمداده بالعساكر والجند، حتى تمنع عنهم أذى الروم. ولكن الخليفة المقتدر عجز عن نصرهم، ولم يحصلوا على فائدة؛ فعادوا الى ثغورهم** ولكن؛ وبالرغم من هذا الضعف؛ والتخاذل؛ فإن الثغور لم تعدم رجالاً يقومون بحمايتها؛ فمع عودة وفد الثغور من بغداد خائباً، التقى قائد الثغور (مفلح الساجي) مع قوات ملك الروم؛ فاقتتلوا، وانهزم ملك الروم، ودخل مفلح وراءه الى بلاد الروم. ثم حدث بعد سنتين (أي في سنة ٣١٩ هـ = ٩٣١ م) أن خرج والي طرسوس (ثمال) بجيشه، وعبر نهراً الى بلاد الروم، ونزل عليهم ثلج وصل الى صدور الخيل؛ وأتاهم جمع كثير من الروم، واشتبكوا معهم؛ فأنزل الله نصره على المسلمين؛ وقتلوا من الروم ستمائة وأسروا نحواً من ثلاثة آلاف؛ وغنموا من الذهب والفضة والديباج وغيره شيئاً كثيراً؛ وعادوا سالمين. حتى إذا ما مضت أربعة أشهر على الغزوة؛ جهز (ثمال) جيشه من جديد؛ وخرج من طرسوس؛ ودخل بلاد الروم في جمع كثير من الفرسان والمشاة؛ فبلغوا عمورية؛ وكان قد تجمع إليها كثير من الروم؛ ففارقوها لما سمعوا بتقدم (ثمال). ودخلها المسلمون فوجدوا فيها من الأمتعة والطعام شيئاً كثيراً؛ فأخذوه؛ وأحرقوا ما كان الروم قد عمروه منها. وأوغلوا في بلاد الروم ينهبون ويقتلون ويخربون حتى بلغوا أنقرة ـ وهي التي كانت تسمى انكورية ـ وعادوا سالمين؛ ولم يلقوا كيداً، فبلغت قيمة السبي مائة ألف دينار، وستة وثلاثين ألف دينار، وزادت مدة هذه الصائفة على الشهرين.

بينما كانت هذه التطورات تحقق نجاحاً في الثغور الشامية، كانت الثغور الجزرية تشهد تطورات مماثلة؛ ولكن بشكل مغاير؛ فقد وجه (ابن الديراني) وغيره من الأرمن وهم بأطراف أرمينية؛ رسائل الى ملك الروم؛ وحرضوه على دخول بلاد الاسلام، ووعدوه النصرة والدعم. فسارت الروم في خلق كثير؛ فخربوا (بزكرى وبلاد خلاط) وما جاورها؛ وقتل من المسلمين خلق كثير؛ وأسروا كثيراً منهم. فبلغ ذلك (مفلحاً غلام يوسف بن ابي الساج) وهو والي أذربيجان. فسار في عسكر كبير؛ وتبعه كثير من المتطوعة الى أرمينية. وقصد (مفلح) بلد (ابن الديراني) ومن حرض الروم؛ وقتل أهله ونهب أمواله. وتحصن (ابن الديراني) بقلعة له، وبالغ الناس في كثرة القتلى من الأرمن - حتى قيل انهم قتلوا مائة ألف قتيل، والله أعلم. وسارت عساكر الروم الى (سميساط) فحصروها، فاستنجد أهلها بوالي الموصل **(سعيد بن حمدان)**. وكان المقتدر قد ولاه الموصل وديار ربيعة وشرط عليه غزو الروم؛ وأن يستنقذ (ملطية) منهم؛ إذ كان أهلها قد ضعفوا فصالحوا الروم وسلموا مفاتيح البلد إليهم فحكموا على المسلمين. فلما جاء رسول أهل (سميساط) إلى (سعيد بن حمدان) تجهز وسار إليهم مسرعاً؛ فوصل وقد كاد الروم يفتحونها؛ فلما قاربهم هربوا منه. وسار منها الى (ملطية) وبها جمع من الروم ومن عسكر (مليح الأرمني) فلما أحسوا باقتراب (سعيد) خرجوا منها، خوفاً من أن يصل سعيد في عسكره ويثور أهلها بهم فيهلكوا؛ ففارقوها. فدخلها سعيد ثم استخلف عليها أميراً وعاد عنها؛ وأوغل في بلاد الروم غازياً ودفع أمامه سريتين فقتلا من الروم خلقاً كثيراً.

حدثت بعد ذلك اشتباكات وغزوات لم تتجاوز حدود الحصول على غنائم وأسرى؛ فلما كانت سنة ٣٢٦ هـ = ٩٣٨ م) وصل الى الخليفة (الراضي بالله) كتاب من ملك الروم مكتوب بالرومية؛ ومعه تفسير بالعربية؛ وقد كانت الرسالة الرومية مكتوبة بالذهب والعربية بالفضة وتضمن نصها: **« من رومانس وقسطنطين واسطفانس عظماء ملوك الروم الى الشريف البهي ضابط سلطان المسلمين. باسم الأب والابن وروح القدس الإله الواحد. الحمد لله ذي الفضل العظيم الرؤوف بعباده الجامع للمفترقات والمؤلف الأمم المختلفة في العداوة حتى يصيروا واحداً؛ الذي جعل**

الصلح أفضل الفضائل؛ إذ هو محمود العاقبة في السماء والأرض؛ ولما بلغنا ما رزقته أيها الأخ الشريف الجليل من وفور العقل وتمام الأدب واجتماع الفضائل أكثر ممن تقدمك من الخلفاء. حمدنا الله؛ وجئنا بطلب الهدنة». ووجه مع الكتاب بهدايا وألطاف كثيرة فاخرة. فكتب إليهم الراضي: «**بسم الله الرحمن الرحيم. من عبدالله أبي العباس الامام الراضي بالله أمير المؤمنين الى رومانس وقسطنطين واسطفانس رؤساء الروم. سلام على من اتبع الهدى وتمسك بالعروة الوثقى؛ وسلك سبيل النجاة والزلفى**» ثم أجابهم الى ما طلبوا؛ فكان عدة من فودي من المسلمين ستة آلاف وثلاثمائة بين ذكر وأنثى. وقد تم الفداء على نهر (البدندون).

لقد شن الرشيد الحرب على الروم؛ وفتح هرقلة؛ لمجرد ان بدأ ملك الروم رسالته بنفسه، ولقد تغيرت المواقف؛ وتبدلت موازين القوى بعد قرن ونصف القرن من عمر الزمن، ولكن بالرغم من ظواهر الضعف هذه؛ فقد بقيت للاسلام قوته، وبقي هناك من ينصره؛ وينتصر له.




٢ ـ الحمدانيون وحرب الثغور

ا ـ بنو حمدان .

ب ـ سيف الدولة والحروب مع الروم .

جـ ـ المأزق الصعب .

د ـ الأيام الأخيرة للحمدانيين .



ا ـ بنو حمدان :

كان بنو تغلب بن وائل من أعظم بطون ربيعة بن نزار ؛ ولهم محل في الكثرة والعدد ؛ وكانت مواطنهم بالجزيرة في ديار ربيعة ، وكانوا على دين النصرانية في الجاهلية ؛ وكانوا خاضعين لملك الروم ـ القيصر ـ . وحاربوا المسلمين مع غسان وهرقل أيام الفتوحات في نصارى العرب يومئذ من غسان وإياد وقضاعة وزابلة وسائر نصارى العرب ؛ ثم ارتحلوا مع هرقل إلى بلاد الروم ؛ ثم رجعوا إلى بلادهم في الجزيرة . وفرض عليهم عمر بن الخطاب رضي الله عنه الجزية ؛ فقالوا له : « يا أمير المؤمنين لا تذلنا بين العرب باسم الجزية ، واجعلها صدقة مضاعفة » ففعل (*) وكان قائدهم يومئذ (حنظلة ابن قيس بن هرير من بني مالك بن بكر بن حبيب بن عمرو بن غنم بن ثعلب ـ أو تغلب) . ثم كان منهم بعد ذلك في الإسلام ثلاثة بيوت ؛ آل عمر بن الخطاب العدوي ، وآل هرون المغمر ، وآل حمدان بن حمدون بن الحرث بن لقمان بن أسد . وقد ظهر

(*) تاريخ العلامة ابن خلدون ٤/٤٨٨ (دولة بني حمدان) وفي تاريخ الطبري (٤/٥٤ـ٥٦) قصة هؤلاء ـ كالتالي ـ « خرج الوليد بن عقبة سنة ١٧ هـ حتى قدم على بني تغلب وعرب الجزيرة ، فنهض معه مسلمهم وكافرهم؛ إلا إياد بن نزار ، فإنهم ارتحلوا بقليتهم ، فاقتحموا أرض الروم ، فكتب الوليد بذلك إلى عمر بن الخطاب؛ فكتب عمر إلى ملك الروم: « إنه بلغني أن حياً من أحياء العرب ترك دارنا؛ وأتى دارك ، فوالله لتخرجنه أو لننبذن إلى النصارى ، ثم لنخرجنهم إليك » . فأخرجهم ملك الروم ، فتم على الخروج أربعة آلاف مع أبي عدي بن زياد ، فتفرقوا فيما يلي الشام والجزيرة من بلاد الروم . فكل إيادي في أرض العرب من اولئك الأربعة الآلاف . وخرج وفد منهم إلى عمر ، فقال لهم عمر : « أدوا الجزية » فقالوا لعمر : « أبلغنا مأمننا ؛ والله لئن وضعت علينا الجزاء لندخلن أرض الروم . والله لتفضحنا من بين العرب » فقال لهم : « أنتم فضحتم أنفسكم وخالفتم أمتكم فيمن خالف وافتضح من عرب الضاحية وتالله لتؤدنه وأنتم صغرة قمأة . ولئن هربتم إلى الروم لأكتبن فيكم ثم لأسبينكم » . قالوا فخذ منا شيئاً ولا تسمه جزاء . فقال : « أما نحن فنسميه جزاء ؛ وسموه أنتم ما شئتم » وكان في بني تغلب عز وامتناع . فأضعف عليهم الوليد الجزاء . وشرط عليهم ألا ينصروا وليداً إذ أسلم آباؤهم .

منهم رجال كثر كان لهم دورهم في أيام العهد الأموي ثم في أيام العهد العباسي. ويمكن تجاوز تلك المراحل الطويلة؛ والأدوار التي اضطلع بها الرجال الحمدانيون للوصول إلى سنة ٢٩٣ هـ = ٩٠٥ م. ففي هذه السنة عمل أمير المؤمنين المكتفي بالله على تنصيب (**أبي الهيجاء عبدالله بن حمدان بن حمدون التغلبي العدوي**) أميراً على الموصل؛ بهدف كبح جماح (الأكراد الهذبانية) الذين أفسدوا البلاد. وسار أبو الهيجاء إلى الموصل؛ ولكنه ما كاد يستقر فيها حتى وصلته أصوات الاستغاثة منبعثة من (نينوى) لرد الأكراد الذين أغاروا عليها ونهبوها. فسار أبو الهيجاء من فوره وعبر الجسر إلى الجانب الشرقي، ولحق بالأكراد (عند المعروبة على الخازر) فقاتلوه وقتل رجل من أصحابه. وكتب إلى الخليفة يستدعي النجدة؛ لكن هذه النجدة تأخرت شهوراً كثيرة.

وعندما وصلته سار إلى الأكراد؛ فلما رأوا جده في مطاردتهم؛ هربوا إلى البابه في جبل السلق؛ وهو مضيق في جبل عال مشرف على شهـرزور؛ فامتنعوا فيه. ثم فاوضوه على الاستسلام له؛ وكان ذلك خدعة منهم له حتى يتمكنوا من الانسحاب إلى أذربيجان، فلما شعر أبو الهيجاء أنه خدع؛ اقتاد مجموعة من الفرسان الأشداء ومضى لمطاردتهم حتى تمكن منهم؛ واستولى على سوادهم وبيوتهم وأهلهم وأموالهم. وطلبوا الأمان فأمنهم وأبقى عليهم وردهم إلى بلد حرة، وأعاد لهم أموالهم وأهليهم؛ وأمنت البلاد معه؛ وأحسن السيرة في أهلها. فكان من نتيجة ذلك؛ ومن نتيجة أعمال مثلها؛ أن ولاه الخليفة أعمال قم وقاشان ثم رده بعد ذلك إلى ديار ربيعة؛ فيما كان الحسين بن حمدان على الجزيرة. غير أن الحسين أعلن تمرده سنة ٣٠٣ هـ = ٩١٥ م؛ بسبب مطالبته بمال كثير؛ فوجه إليه الخليفة المقتدر جيشاً؛ تمكن من قتله، وقبض على أبي الهيجاء وعلى جميع إخوته وحبسوا لفترة قصيرة. ثم أفرج عنهم، وإذ تبين للمقتدر براءتهم من الفتنة؛ وفي سنة ٣٠٨ هـ = ٩٢٠ م خلع المقتدر على أبي الهيجاء، وقلده طريق خراسان والدينور؛ كما خلع على أخويه أبي العلاء وأبي السرايا. وعاد الأكراد والعرب فأفسدوا بأرض الموصل وطريق خراسان؛ وكان أبو الهيجاء يتولى الجميع وهو ببغداد؛ فيما كان ابنه (ناصر الدولة) بالموصل؛ فأمر أبو الهيجاء ابنه بجمع الرجال والانحدار إلى تكريت؛ وسار هو إليها؛ وجمع العرب ونكل ببعضهم وطلب إليهم رد ما نهبوه،

فردوا على الناس شيئاً كثيراً، ورحل بهم إلى (شهرزور). فوطىء (الأكراد الجلالية) وقاتلهم؛ وانضم إليهم غيرهم فاشتدت شوكتهم؛ ثم انقادوا إليه لما رأوا قوته، وكفوا عن الفساد والشر. وضمن (أبو الهيجاء) للخليفة أعمال الخراج والضياع بالموصل وقردى وبازندى وما يجري معها. وابتسم الدهر (لأبي الهيجاء) ولكن إلى حين، ففي سنة ٣١٧ هـ = ٩٢٩ م، جرت محاولة لخلع الخليفة المقتدر؛ وقد فشلت المحاولة؛ غير أن أبا الهيجاء قتل فيها (*) وهرب أخوه (أبو السرايا نصر بن حمدان) من بغداد إلى الموصل. وأعاد الخليفة المقتدر في السنة التالية (٣١٨ هـ = ٩٣٠ م) تنظيم الدولة؛ فعزل (**ناصر الدولة الحسن بن عبدالله بن حمدان**) عن الموصل؛ وولاه ديار ربيعة ونصيبين وسنجار والخابور ورأس عين ومعها من ديار بكر ميافارقين وأرزن ـ وضمن (ناصر الدولة) ذلك بمبلغ معلوم. كما ولى على الموصل (سعيد ونصر ابني حمدان ـ وهما عمومة ناصر الدولة).

لقد وضع (أبو الهيجاء) حجر الأساس في كيان دولة عربية ـ إسلامية وسط الصراعات الشعوبية التي تميزت بها تلك الفترة. وكان على ورثته النهوض ببناء هذه الدولة وسط متاهة مظلمة من التناقضات الغريبة والمثيرة. من ذلك ما حدث سنة ٣٢١ هـ = ٩٣٣ م عندما اجتمعت بنو ثعلبة إلى بني أسد القاصدين إلى أرض الموصل ومن معهم من طيء؛ فصاروا يداً واحدة على (بني مالك) ومن معهم من (تغلب) وقرب بعضهم من بعض للحرب. فركب (ناصر الدولة الحسن بن عبدالله ابن حمدان) في أهله ورجاله، ومعه (أبو الأغر بن سعيد بن حمدان) للصلح بينهم. فتكلم (أبو الأغر) فطعنه رجل من حزب (بني ثعلبة) فقتله، فحمل عليهم ناصر الدولة ومن معه، فانهزموا؛ وقتل منهم؛ وملكت بيوتهم، وأخذ حريمهم وأموالهم؛ ونجوا على ظهور خيولهم؛ وتبعهم ناصر الدولة إلى (الحديثة) فلما وصلوا إليها لقيهم

(*) عندما سيطر الخليفة المقتدر على الموقف بعث أماناً لأخيه القاهر ـ الذي ترأس المؤامرة ضده ـ ولأبي الهيجاء ـ حتى لا يحدث له مكروه. فمضى الخادم بكتاب الأمان؛ فلقيه خادم آخر ومعه رأس أبي الهيجاء الذي حمل إلى الخليفة؛ فلما رآه المقتدر حزن عليه وقال: «إنا لله وإنا إليه راجعون. ما كان يدخل علي ويسليني ويزيل عني الغم، غيره في هذه الأيام».

(يانس غلام مؤنس) وقد ولي الموصل؛ وهو مصعد إليها. فانضم إليه بنو ثعلبة وبنو أسد؛ وعادوا إلى ديار ربيعة. ومن ذلك ما حدث أيضاً سنة ٣٢٣ هـ = ٩٣٥ م. حيث عمل عم (ناصر الدولة) وهو (أبو العلاء سعيد بن حمدان) على ضمان الموصل وديار ربيعة سراً؛ فما كان من ناصر الدولة إلا أن بعث رجالاً عملوا على قتل عمه عندما دخل داره في الموصل. ولما قتل ناصر الدولة عمه أبا العلاء واتصل خبره بالخليفة (الراضي بالله) عظم ذلك عليه وأنكره، ووجه جيشاً بقيادة الوزير (ابن مقلة) واستطاع ناصر الدولة بمزيج من الدهاء والقوة أن يسيطر على الموقف، وكتب إلى الخليفة يسأله الصفح وأنه يضمن له البلاد؛ فأجيب إلى ذلك؛ واستقر له حكم البلاد. وكذلك ما حدث سنة ٣٢٧ هـ = ٩٣٩ م عندما تأخر (ناصر الدولة) بإرسال ما عليه من المال إلى دار الخلافة، مما حمل الخليفة الراضي بالله إلى قيادة جيش ومعه وزيره (بجكم) إلى الموصل وديار ربيعة؛ ووقعت مجموعة من الاشتباكات؛ وحدث أن تسلل خلال ذلك جماعة من القرامطة إلى بغداد مما حمل الخليفة إلى العودة بسرعة إلى بغداد. وأنفذ (ناصر الدولة) من يطلب الصلح وعجل بإرسال خمسمائة ألف درهم. وأجاب (الراضي) بالموافقة، واستقر الصلح بينهما. **ووقعت في هذه السنة ذاتها ملحمة عظيمة بين (الحسن بن عبدالله بن حمدان) وبين حاكم أقاليم الشرق من بلاد الروم - الدمستق - ونصرالله الإسلام؛ وهرب الدمستق، وقتل من جنده مقتلة عظيمة؛ وأخذ سرير الدمستق وصليبه.**

جابه الخليفة العباسي (المتقي لله) مأزقاً صعباً سنة ٣٣٠ هـ = ٩٤١ م؛ فقد تمكن الاتراك والديالمة (من الديلم) من السيطرة على أقاليم واسعة؛ ودخلوا بغداد. فما كان الفاطميون في مصر قد دخلوا دمشق؛ هذا إلى جانب القرامطة الذين زادوا من تدهور الموقف. واستطاع الخليفة المتقي لله ووزيره (أبو بكر محمد بن رائق) الصمود في قتال الأتراك والديالمة الذين كان يقودهم (أبو عبدالله البريدي) وأخاه (أبو الحسين البريدي). مما اضطر الخليفة إلى الاستنجاد بناصر الدولة ابن حمدان لنصرته على (البريديين) فأرسل ناصر الدولة جيشاً بقيادة أخيه **(سيف الدولة علي بن عبدالله ابن حمدان)** الذي قاد جيشاً كثيفاً إلى تكريت؛ وتصادف وصوله مع هزيمة الخليفة

المتقي لله ووزيره ابن رائق. فقدم سيف الدولة خدمة عظيمة للمتقي؛ وسار معه إلى الموصل. وقام (ناصر الدولة) باستدراج (ابن رائق) فذبحه؛ وأخبر الخليفة المتقي بذلك؛ فابتهج الخليفة لذلك؛ وأمر (ناصر الدولة) بالمسير إليه، فسار ابن حمدان إلى المتقي لله، فخلع عليه ولقبه **(ناصر الدولة)** وجعله **(أمير الأمراء)**. وخلع على أخيه (أبي الحسن علي بن عبدالله) ولقبه **(سيف الدولة)**. وقد استاء الاخشيد من قتل (ابن رائق) فقاد جيشه من مصر، وسار إلى دمشق، فنصب عليها أميراً من قبله بدلاً من (ابن رائق) الذي كان والياً على دمشق قبل توجهه إلى بغداد ثم قتله.

أخذ الحمدانيون على عاتقهم دعم الخليفة؛ والقضاء على اعمال التمرد؛ وأولها ثورة (البريدي). وكان أبو الحسين البريدي قد انسحب إلى واسط بعد أن ضعف أمره في بغداد؛ فأقام (ناصر الدولة) في المدائن؛ ووجه جيشاً لقتال البريدي بقيادة أخيه (سيف الدولة) وابن عمه (أبي عبدالله الحسين بن سعيد بن حمدان). ووقع الصدام على بعد فرسخين من المدائن وانتصر البريدي، وانسحب سيف الدولة ومن معه إلى المدائن؛ فأعاد (ناصر الدولة) تنظيم الجيش ودعمه بقوات جديدة، ودفعه للمعركة، فانهزم البريدي وانسحب إلى واسط. ولم يتمكن سيف الدولة من استثمار النصر ومطاردة البريدي لما نزل بجيشه من الوهن والجراح. وكان الخليفة المتقي قد سير أهله من بغداد إلى (سامراء - سر من رأى). كما كان أعيان الناس قد هربوا من بغداد لما بلغهم سيره من (واسط) فلما بلغهم انتصار (سيف الدولة) عاد الجميع إلى بغداد (*).

لم يتوقف (سيف الدولة) في أرض المعركة؛ إلا بقدر ما كان يحتاجه جيشه من الراحة، والعناية بالجرحى، ثم سار لقتال (البريدي) فلما وصل إلى (واسط) وجد أن البريديين قد انسحبوا إلى البصرة. وحدثت تطورات في غير مصلحة (سيف الدولة) والحمدانيين. غير أنه أمكن التغلب على العقبات. وكان لتدخل الحمدانيين؛ وإلقاء

(*) أفاد ناصر الدولة من هذا الانتصار لدعم مكانته الاقتصادية والسياسية، فضرب سنة ٣٣١ هـ - كما ورد في تجارب الأمم - نقوداً باسم الخليفة (المتقي لله) وباسم (ناصر الدولة) وباسم أخيه (سيف الدولة).

ثقلهم في كفة الصراع دور أساسي في إضعاف سطوة (البريديين) الذين ضاقت عليهم الدوائر إلى أن قام أبو عبدالله البريدي بقتل أخيه أبي يوسف، ثم لم يلبث أن توفي بعده (سنة ٣٣٢ هـ = ٩٤٣ م). واستراح الحمدانيون؛ وبات باستطاعتهم الانصراف للعمل على جبهة أخرى.

كان البويهيون بقيادة (أبي شجاع بويه بن فناخسرو) وينتسب إلى ملك الفرس في الجاهلية (شابور ذو الاكتاف) قد انطلق منذ سنة ٣٢١ هـ = ٩٣٣ م. من خراسان وأقام تنظيماً عسكرياً وسياسياً قوياً ـ بواسطة الديالمة ـ وأمكن له ولأولاده الثلاثة (عماد الدولة أبو الحسن علي؛ وركن الدولة أبو علي الحسن، ومعز الدولة أبو الحسن أحمد) أن يبسطوا سيطرتهم خلال عشر سنوات على بلاد فارس ووصلوا إلى بغداد. وهيمنوا على دار الخلافة؛ وطمعوا في اقصاء الحمدانيين عن قاعدتهم (الموصل) والسيطرة على ممتلكاتهم. فوجه (معز الدولة) جيشاً إلى الموصل ونهب سواده، وهزم جيشه الذي كان بقيادة (ينال كوشه) الذي انسحب وانضم إلى ناصر الدولة في (سامرا) ووقعت معركة بين البويهيين والحمدانيين؛ لم تصل إلى درجة الحسم (سنة ٣٣٤ هـ = ٩٤٥ م) واستمرت الحرب زهاء سنة انتهت بالصلح؛ واستقر معز الدولة ببغداد. وعاد (ناصر الدولة الحمداني) إلى قاعدته في الموصل. غير أن هذا الصلح لم يكن ثابتاً بين (البويهيين) و(الحمدانيين). ولكن (ناصر الدولة) و(سيف الدولة) تمكنا باستمرار من السيطرة على الموقف. ففي سنة ٣٣٧ هـ = ٩٤٨ م. سار معز الدولة البويهي من بغداد إلى الموصل، فلما علم ناصر الدولة الحمداني بذلك سار عن الموصل إلى نصيبين. ووصل معز الدولة فملك الموصل؛ وظلم أهلها وعسفهم وأخذ أموال الرعايا؛ فكثر الدعاء عليه. وأراد معز الدولة أن يملك جميع بلاد ناصر الدولة، فجاءته معلومات من أخيه (ركن الدولة) بأن جند خراسان قد توجهوا للاستيلاء على الري وجرجان، واستمده بطلب الجند؛ فاضطر معز الدولة لمصالحة ناصر الدولة؛ وترددت الرسل بينهما، واستقر الصلح بينهما على أن يؤدي ناصر الدولة الحمداني عن الموصل وديار الجزيرة كلها وبلاد الشام؛ كل سنة ثمانية آلاف ألف درهم؛ ويخطب في بلاده لعماد الدولة وركن

الدولة ومعز الدولة بني بويه. فلما استقر الصلح عاد معز الدولة إلى بغداد؛ ورجع ناصر الدولة إلى قاعدته الموصل. واستمر هذا الصلح حتى سنة ٣٤٧ هـ = ٩٥٨ م؛ حيث عاد معز الدولة البويهي لقيادة جيشه؛ والسير نحو الموصل؛ بسبب تأخر ناصر الدولة الحمداني عن دفع ما تم الاتفاق عليه. وانسحب ناصر الدولة إلى نصيبين، واستولى معز الدولة على الموصل. وكان من عادة ناصر الدولة إذا قصده أحد بحرب، أن يغادر الموصل؛ ويصطحب معه جميع الكتاب والوكلاء ومن يعرف أبواب المال ومنافع السلطان؛ وربما جعلهم في قلاعه: مثل قلعة (كواشي) و(الزعفران) وغيرهما. وكان ناصر الدولة يأمر العرب بالإغارة على العلافة ومن يحمل الميرة، فكان الذي يقصد بلاد ناصر الدولة للحرب، يبقى محصوراً ومضيقاً عليه. فلما قصده معز الدولة هذه المرة، فعل ذلك به؛ فضاقت الأقوات على معز الدولة وعسكره؛ وبلغه أن بنصيبين من الغلات السلطانية شيئاً كثيراً؛ فسار عن الموصل نحوها، فلما توسط الطريق؛ بلغه أن أولاد ناصر الدولة (أبا المرجى وهبة الله) بسنجار في عسكر؛ فسير إليهم عسكراً، فلم يشعر أولاد ناصر الدولة بالعسكر إلا وهم ومعهم، فعجلوا عن أخذ أثقالهم؛ فركبوا دوابهم وانهزموا وأقدم جند معز الدولة البويهي على نهب معسكر أبناء ناصر الدولة، ونزلوا في خيامهم. فعاد أبناء ناصر الدولة إليهم؛ وباغتوهم بهجومهم؛ ووضعوا فيهم السيف؛ فقتلوا وأسروا وأقاموا بسنجار. وسار معز الدولة البويهي إلى نصيبين، ففارقها ناصر الدولة إلى ميافارقين. ثم سار منها إلى حلب، حيث استقبله أخوه (سيف الدولة - وكان قد ملك حلب) وبالغ في اكرامه؛ وخدمه بنفسه حتى أنه نزع خفه بيديه.
وكان أصحاب ناصر الدولة في حصونه ببلاد الموصل والجزيرة؛ يغيرون على أصحاب معز الدولة البويهي؛ فيقتلون فيهم ويأسرون منهم ويقطعون الميرة عنهم. ثم إن (سيف الدولة) راسل (معز الدولة) في الصلح، وترددت الرسل في ذلك؛ فامتنع معز الدولة من تضمين ناصر الدولة؛ بسبب خلفه معه مرة بعد أخرى. فضمن (سيف الدولة) منه البلاد بألفي ألف درهم وتسعمائة ألف درهم؛ واطلاق سراح من أسر من أصحابه بسنجار وغيرها؛ واضطر (معز الدولة البويهي) لقبول الصلح؛ رغم تمكنه من البلاد؛ بسبب ضيق الأموال عليه؛ وامتناع الناس من حمل الخراج إليه بحجة عدم تمكنهم من

الوصول إلى غلاتهم؛ وعاد معز الدولة الى بغداد. ورجع (ناصر الدولة الحمداني) من جديد إلى قاعدته الموصل (*).

يمكن بعدئذ التعرض لجهد الحمدانيين لتوسيع حدود دولتهم في بلاد الشام؛ ومجابهة محاولات الاخشيديين حكام مصر. ففي سنة ٣٣٣ هـ = ٩٤٤ م. سار (سيف الدولة) علي بن أبي الهيجاء عبدالله بن حمدان إلى حلب فملكها؛ واستولى عليها؛ وفارقها (يأنس المؤنسي) عامل الاخشيد على حلب. ولحق بمولاه الأخشيد؛ ثم سار (سيف الدولة) إلى حمص، فلقيه بها عسكر الأخشيد بقيادة صاحب الشام ومصر (محمد بن طغج) مع مولاه (كافور) (اقتتلوا؛ فانهزم عسكر الأخشيد وكافور؛ وملك سيف الدولة مدينة حمص. وسار منها إلى دمشق فحصرها؛ فلم يفتحها أهلها له؛ فرجع. وخرج الأخشيد من مصر إلى الشام؛ وسار خلف سيف الدولة: فالتقيا بقنسرين، فلم يظفر أحد العسكرين بالآخر؛ ورجع سيف الدولة إلى الجزيرة، وعاد الأخشيد إلى دمشق. وتكررت هذه المحاولة (سنة ٣٣٤ هـ = ٩٤٥ م) غير أن نصيب المحاولة انتهى إلى الفشل. وبقيت دمشق بيد الاخشيديين. وحلب في قبضة (سيف الدولة).

(*) أخذ الصراع بين (معز الدولة البويهي) و(ناصر الدولة الحمداني) شكل عداء شخصي؛ حتى ان معز الدولة حاول اغتيال ناصر الدولة (وهو ما أورده ابن مسكويه في تجارب الأمم - احداث سنة ٣٣٥ هـ) بمايلي: «قصد رجل مضرب ناصر الدولة - وهو بباب الشماسية - بازاء معسكر معز الدولة فدخله بالليل؛ ودخل خيمته وهو نائم فيها ولم يشعر به الحراس ولا الحجاب ولا البوابون ولا الخدم، ومضى حتى عرف موضعه وشاهده وهو نائم؛ وعرف موضع رأسه من المخدة؛ ورجع ليطفىء السراج وشمعة كانت بقربه خارج الخيمة، واتفق أن انقلب ناصر الدولة في نومه، بينما كان الرجل يطفىء السراج والشمعة، فلما عاد وقد أظلم الموضع؛ وضع سكينه في الموضع الذي كان فيه تقديره؛ وما شك أن السكين قد وقعت في حلقه؛ فبقي السكين مغرزاً في المخدة مكان رأس ناصر الدولة؛ وخرج الرجل من المضرب وهو يعتقد أنه قتل ناصر الدولة؛ ولما يشعر به أحد. وانتبه ناصر الدولة؛ ورأى السكين؛ فطلب الرجل فلم يلحق به؛ وشاع الخبر فجاء الناس إلى ناصر الدولة للتهنئة بالسلامة. ومضى الرجل إلى (معز الدولة) ليبشره بأنه قد قتله، واستشرحه ما عمل فشرحه له. فقال معز الدولة: «مثل هذا الرجل لا يؤمن» وسلمه إلى أحد كبار رجاله - الصيمري - فقتله «الصيمري» وتخلص منه؛ ودفن معه دليل جريمته.

ب ـ سيف الدولة والحروب مع الروم:

لقد تصدى الحمدانيون للروم ـ البيزنطيين ـ بحكم موقعهم قريباً من الثغور (في الموصل وحلب) ولكن هذا الصراع لم يأخذ صورته الحقيقية وأبعاده الكاملة إلا في عهد (سيف الدولة الحمداني) (*) لقد انتقل الروم إلى الهجوم الشامل سياسياً وعسكرياً؛ فكان في جملة ظواهر هذا الهجوم السياسي على سبيل المثال ما ذكر في احداث سنة ٣٣٢ هـ = ٩٤٣ م. عندما أرسل ملك الروم إلى الخليفة العباسي ـ المتقي لله ـ يطلب منديلاً زعم أن المسيح قد مسح به وجهه فصارت صورة وجهه فيه، وأنه في ناحية (الرها) وذكر أنه إن أرسل المنديل أطلق عدداً كثيراً من أسارى المسلمين. فما كان من (المتقي لله) إلا أن أحضر القضاة والفقهاء واستفتاهم، فاختلفوا؛ فبعض رأى تسليمه إلى الملك؛ وإطلاق سراح الأسرى. وبعض قال: «**إن هذا المنديل لم يزل من قديم الدهر في بلاد الإسلام، لم يطلبه ملك من ملوك الروم، وفي دفعه إليهم غضاضة**». وكان في الجماعة (علي بن عيسى الوزير) فقال: «إن خلاص المسلمين من الأسر؛ ومن الضر والضنك الذي هم فيه؛ أولى من حفظ المنديل» فأمر الخليفة بتسليمه إليهم وإطلاق الأسرى. ففعل ذلك؛ وأرسل إلى ملك الروم من يتسلم الأسرى من بلاد الروم.

(*) سيف الدولة (علي بن أبي الهيجاء عبدالله بن حمدان) ٣٠٣-٣٥٦ هـ (٩١٥-٩٦٦ م) كان جواداً كريماً شجاعاً، كثير الاحسان على ما كان فيه من تشيع؛ وقد ملك دمشق في بعض السنين؛ واتفق له أشياء غريبة، منها أن خطيبه كان (مصنف الخطب النباتية) أحد الفصحاء والبلغاء؛ ومنها أن شاعره كان المتنبي، ومنها أن مطربه كان أبا نصر الفارابي؛ وقيل: إنه لم يجتمع بباب أحد من الملوك؛ بعد الخلفاء، ما اجتمع ببابه من الشعراء. ولا غرابة في ذلك؛ فقد كان بنوحمدان ملوكاً وأمراء، أوجههم للصباحة؛ وألسنتهم للفصاحة، وأيديهم للسماحة، وعقولهم للرجاحة؛ وسيف الدولة مشهور بسيادتهم وواسطة قلادتهم. وقد كان سيف الدولة شاعراً مجيداً. توفي بالفالج، وقيل عسر البول ـ وحمل تابوته إلى (ميافارقين) فدفن بها. ولما توفي سيف الدولة، ملك بلاده بعده ابنه (أبو المعالي شريف). ومن شعره في أخيه ناصر الدولة:

وهبت لك العليا وقد كنت أهلها	وقلت لهم بيني وبين أخي فرق
وما كان بي عنها نكول وإنما	تجاوزت عن حقي فتم لك الحق
أما كنت ترضى أن أكون مصلياً	إذا كنت أرضى أن يكون لك السبق

لم تكن القضية على ما كان واضحاً هي قضية منديل؛ بل هي قضية (تحدٍّ واستفزاز). وكان مثل هذا التحدي قد أخذ صورة أخرى قبل ذلك بعشر سنوات (ففي سنة ٣٢٢ هـ = ٩٣٣ م) سار (الدمستق قرقاش) في خمسين ألفاً من الروم؛ فنازل ملطية؛ وحصرها مدة طويلة؛ فهلك أكثر أهلها جوعاً. وضرب خيمتين على احداهما صليب؛ وقال: «من أراد النصرانية انحاز إلى خيمة الصليب فنرد إليه أهله وماله؛ ومن أراد الإسلام انحاز إلى الخيمة الأخرى، وله الأمان على نفسه ونبلغه مأمنه». فانحاز اكثر المسلمين إلى الخيمة التي عليها الصليب طمعاً في أهليهم وأموالهم. وسير الباقين ومعهم بطريق يبلغهم مأمنهم؛ وفتح (ملطية) بالأمان. ثم فتح (سميساط) وخرب النواحي؛ واكثر القتل؛ وفعل الأفاعيل الشنيعة، وصار اكثر البلاد في أيدي الروم.

هكذا سار الصراع على جبهة الروم في تصعيد مستمر؛ ولقد بدأ الدور البارز والأساسي لسيف الدولة ـ على وجه التحديد (بسنة ٣٣٣ هـ = ٩٤٤ م). ففي هذه السنة؛ بلغ الدمستق ما فيه سيف الدولة من الشغل بحرب خصومه؛ فسار في جيش عظيم وأوقع بأهل (بغراس) و(مرعش) وقتل وسبى؛ فأسرع سيف الدولة إلى مضيق وشعاب؛ وأوقع بجيش الدمستق وبيتهم؛ واستنقذ الأسارى والغنيمة من أيدي الروم؛ وانهزم الروم أقبح هزيمة. ثم بلغ سيف الدولة أن مدينة الروم قد تهدم بعض سورها؛ وكان ذلك في الشتاء؛ فاغتنم سيف الدولة الفرصة، فأغار عليهم؛ وقتل وسبى ولكن أصيب بعض جيشه. فلما كانت سنة (٣٣٥ هـ = ٩٤٦ م) كان الفداء بالثغور بين المسلمين والروم؛ على يد (نصر الثملي) أمير الثغور لسيف الدولة؛ وكان عدة الأسرى ألفين وأربعمائة أسير وثمانين أسيراً من ذكر وانثى. وفضل الروم على المسلمين مائتان وثلاثون أسيراً لكثرة من معهم من الأسرى، فوفاهم ذلك سيف الدولة؛ وافتداهم وحررهم. وقام الروم في السنة التالية (٣٦٦ هـ = ٩٤٧ م) بالإغارة على أطراف بلاد الشام؛ فسبوا؛ وأسروا، فسار وراءهم سيف الدولة ولحقهم، فقتل منهم مقتلة عظيمة؛ واسترد ما أخذوا من المسلمين ثم أخذ حصن (برذوية) من الأكراد؛ بعد أن نازلهم مدة. وحصن (برذوية) هذا هو حصن قرب السواحل الشامية على قمة جبل شاهق؛

يضرب بها المثل في جميع بلاد الروم بالحصانة، تحيط بها أودية من جميع نواحيها.

سار (سيف الدولة) في سنة ٣٣٧ هـ = ٩٤٨ م لغزو بلاد الروم؛ فلقيه الروم؛ واقتتلوا، فانهزم سيف الدولة وأخذ الروم (مرعش) وأوقعوا بأهل (طرسوس). أخذ (سيف الدولة) في إجراء استعداداته لغزوة كبرى، وبدأ بحشد قواته (سنة ٣٣٩ هـ = ٩٥٠ م) ووافاه عسكر طرسوس في أربعة آلاف - عليهم القاضي أبو حصين - فسار إلى قيسارية: ثم إلى الفندق؛ ووغل في بلاد الروم، وفتح عدة حصون؛ وسبى وقتل. ثم سار الى سمندو (أو سمندوية) (*) ثم إلى (خرشنة) فأحرق ربضها؛ وكنائسها وربض (صارخة) وما حولها؛ (**) وبينها وبين قسطنطينية سبعة أيام، فلما

(*) كان المتنبي - أبو الطيب - يسير مع مقدمة هذا الجيش؛ وقد أنشد (سيف الدولة) ممتدحاً - لهذه الغزوة:

لهذا اليوم بعد غد أريج	ونار في العدو لها أجيج
تبيت بها الحواضر آمنات	وتلم في مسالكها الحجيج
فلا زالت عداتك؛ حيث كانت	فرائس أيها الأسد المهيج
عرفتك والصفوف معبياتٌ	وأنت بغير سيرك لا تعيج

ومنها:

أبا الغمرات توعدنا النصارى؟	ونحن نجومها وهي البروج
وفينا السيف حملته صدوق	إذا لاقى: وغارته لجوج
نعوذه من الأعيان بأساً	ويكثر بالدعاء له الضجيج
رضينا؛ والدمستق غير راض؛	بما حكم القواضب والوشيج
فإن يقدم فقد زرنا سمندو	وإن يحجم فموعده الخلـ ـج

ديوان المتنبي - تدقيق وتحقيق عبد الوهاب عزام

(**) وفيها قال المتنبي (الديوان ص ٣٠١ - ٣٠٧).

غيري بأكثر هذا الناس ينخدع	إن قاتلوا جبنوا أو حدثوا شَجُعوا
أهل الحفيظة إلا أن تجربهم	وفي التجارب بعد الغي ما يزع

وقال:

بالجيش تمتنع السادات كلهم	والجيش بابن أبي الهيجاء يمتنع
قاد المقانب أقصى شربها نهل	على الشكيم وأدنى سيرها سرع
حتى أقام على أرباض (خرشنة)	تشقى به الروم والصلبان والبيع
للسبي ما نكحوا، والقتل ما ولدوا	والنهب ما جمعوا والنار ما زرعوا
فخلى له المرج؛ منصوباً (بصارخة)	له المنابر؛ مشهوداً له الجمع

=

نزل عليها اصطدمت بمقدمة الدمستق **(والدمستق هو نائب ملك الروم في حكم البلاد الواقعة إلى شرقي القسطنطينية)** . فانتصرت المقدمة على الدمستق وقواته، فلجأ الى (صارخة) وخاف على نفسه؛ ثم جمع قواته؛ والتقى بسيف الدولة فهزمه الله أقبح هزيمة؛ وأسرت بطارقته؛ وغنم المسلمون ما لا يوصف؛ وبقوا في الغزو أشهراً . ثم أن الطرسوسيين قفلوا ـ رجعوا ـ وعاد العربان؛ ورجع سيف الدولة في مضيق صعب يعرف باسم (مقطعة الأثفار) وأخذ عليه الروم الدروب؛ وحالوا بينه وبين المقدمة؛ وقطعوا الشجر وسدوا به الطرق، ودهدهوا الصخور في المضايق؛ والروم وراء الناس مع الدمستق يقتلون ويأسرون، وتولى سيف الدولة قيادة الساقة ـ المؤخرة ـ لحماية الناس فلما انحدر بعد عبور المضايق ركبه الروم؛ فخرج من الفرسان جماعة، ونزل (سيف الدولة) على (بردى) وهي نهر عظيم؛ وضبط الروم عقبة السير (وهي عقبة طويلة) فلم يقدر على صعودها لضيقها وكثرة العدو بها . وكان معه أربعمائة أسير من وجوه الروم؛ فضرب أعناقهم. وعدل متياسراً في طريق وصفه له بعض الأدلة؛ وأخذ ساقة الناس يحميهم، فكانت الابل كثيرة معيبة؛ وجاءه العدو آخر النهار من خلفه، فعقر جماله وكثيراً من دوابه؛ وحرق الثقل، وقاتل قتال الموت، ونجا في نفر يسير. واستباح الدمستق أكثر الجيش؛ وأسر أمراء وقضاة؛ ووصل سيف الدولة إلى حلب ولما يكد؛ حتى مالت الروم؛ فعاثوا وسبوا؛ وتزلزل الناس. وجعل سيف الدولة يستنفر الناس فلا ينفر أحد، فمن نجا من العقبة نهاراً لم يرجع؛ ومن بقي تحتها لم تكن فيه نصرة.

= ذم (الدمُسْتُقُ) عينيه وقد طلعت ... سود الغمام فظنوا انها قزع

كم من حشاشة بطريق تضمنها ... للباترات أمين ما له ورع

قل للدمستق: إن المسلمين لكم ... خانوا الأمير فجازاهم بما صنعوا

لا تحسبوا من أسرتم كان ذا رمق ... فليس يأكل إلا الميت الضبع

هلا على عقب الوادي وقد صعدت ... أسد تمر فرادى ليس تجتمع

فكل غزو إليكم بعد ذا فله ... فكل غاز لسيف الدولة التبع

وما الجبال لنصران بحامية ... ولو تنصر فيها الأعصم الصدع

وما حمدتك في هول ثبت له ... حتى بلوتك والأبطال تمتصع.

فقد يظن شجاعاً من به خرق ... وقد يظن جباناً من به زمع.

إن السلاح جميع الناس يحمله ... وليس كل ذوات المخلب السبع.

وتخاذل الناس وكانوا قد ملوا السفر. ثم لطف الله تعالى: وأرسل الدمستق يطلب الهدنة؛ فلم يجب سيف الدولة؛ وبعث يتهدده؛ ثم جهز جيشاً فدخلوا بلاد الروم من ناحية (حران) فغنموا وأسروا خلقاً، وغزا أهل طرسوس أيضاً في البر والبحر. ثم سار سيف الدولة من حلب إلى (آمد) فحارب الروم؛ وخرب الضياع وانصرف سالماً. واحتال الروم على أخذ (آمد) وسعى لهم في ذلك نصراني؛ على أن ينقب لهم نقباً من مسافة أربعة أميال حتى وصل إلى سورها، وكان نقباً واسعاً وصل من تحت السور الى البلد؛ لكن أهل البلد كشفوا أمره في الوقت المناسب؛ فقتلوا النصراني؛ واحكموا ما نقبه؛ وسدوه.

قاد (سيف الدولة) في السنة التالية (٣٤٠ هـ = ٩٥١ م) قوة الصائفة يريد بلاد الروم؛ وتوقف في بقعة (عربسوس) وأحرق القرى. وعلم أن الدمستق قد حشد جيشاً من أربعين ألف مقاتل؛ فتهيب جيش سيف الدولة الاقدام؛ وأحب سيف الدولة المسير إليها. ولكن (المتنبي) أقنعه بالعدول عن المسير، وصعوبة السير إلى (خرشنة) بسبب كثرة الثلج ـ وهجوم الشتاء (*).

(*) كان مما قاله المتنبي (الديوان ص٣٠٨ ـ ٣١٧).

نزور دياراً ما نحب لها مغنى	ونسأل فيها غير سكانها الإذنا.
نقود إليها الآخذات لنا المدى	عليها الكماة المحسنون بها ظناً.
وقد علم الروم الشقيون أننا	إذا ما تركنا أرضهم خلفنا عدنا.
وأنا إذا ما الموت صرح في الوغى	لبسنا إلى حاجاتنا الضرب والطعنا.
وإن كنت سيف الدولة العضب فيهم	فدعنا فكن قبل الضراب القنا اللدنا.

وهي قصيدة طويلة؛ فلما بلغ إلى هذا الموضع؛ قال له سيف الدولة: قل لهؤلاء ـ وأومأ بيده إلى من حوله من العرب والعجم ـ يقولوا كما تقول ـ حتى لا ينثني الجيش:

فنحن الألى لا نأتلي لك نصرة	وأنت الذي لو أنه وحده يغنى.
يقيك الردى من يبتغي عندك العلا	ومن قال: لا أرضى من العيش بالأدنى
وما الخوف إلا ما تخوفه الفتى	وما الأمن إلا ما رآه الفتى أمناً.

وقال المتنبي عن توقف الغزوة وعدم السير الى خرشنة بسبب الثلج وهجوم الشتاء:

وأشقى بلاد الله ما الروم أهلها	بهذا وما فيها لمجدك جاحد.
شننت بها الغارات حتى تركتها	وجفن الذي فوق الفرنجة ساهد.

=

قام الروم (سنة ٣٤١ هـ = ٩٥٢ م) بشن هجوم مباغت على (سروج - وهي بلدة قريبة من حران من ديار مضر) فملكوها وسبوا أهلها؛ وغنموا أموالهم؛ وأخربوا المساجد. فجمع سيف الدولة جيوش الموصل والجزيرة والشام والاعراب. ووغل في بلاد الروم؛ وقتل وسبى. ووصل (مرعش) فهرب (الدمستق) بجيشه بعد معركة قصيرة. ووجد (سيف الدولة) أن (مرعش) بحاجة للاصلاح والترميم؛ فأمر بإصلاحها. ثم انصرف عنها عائداً الى حلب. وبعث الروم بطلب الفداء. ثم وقعت زلازل قوية بحلب والعواصم دامت أربعين يوماً؛ وهلك خلق كثير تحت الروم، وتهدم حصن رعبان (مدينة بالثغور بين حلب وسميساط قرب الفرات) كما تهدم حصن دلوك وسقط من سور الحصن ثلاثة أبرجة، وخربت قلعة (تل حامد). فأنفذ سيف الدولة قطعة من الجيش بقيادة (أبي فراس الحمداني) فأعاد عمارتها في سبعة وثلاثين يوماً (*).

= مخضّبة والقوم صرعى كأنها ... وإن لم يكونوا ساجدين، مساجد
أخو غزوات ما تغب سيوفه ... رقابهم؛ إلاّ وسيحان جامد
بذا قضت الأيام ما بين أهلها: ... مصائب قوم عند قوم فوائد
وكل يرى طرق الشجاعة والندى ... ولكن طبع النفس للنفس قائد.
فأنت حسام الملك؛ والله ضارب ... وأنت لواء الدين؛ والله عاقد.

(*) قال شاعر يمتدح أبا فراس الحمداني في بناء الثغور (ابن تغرى بردى. احداث سنة ٣٤١ هـ).
أرضيت ربك وابن عمك والقنا ... وبذلت نفساً لم تزل بذالها
ونزلت رعباناً بما أوليتها ... تثني عليك سهولها وجبالها

وقال المتنبي في مدح (سيف الدولة) لبناء مرعش (ديوان المتنبي - ص٣١٨ - ٣٢١).
هنيئاً لأهل الثغر رأيك فيهم ... وأنك، حزب الله، صرت لهم حزبا
فإنك رعت الدهر فيها وريبه ... فمن شكّ، فليحدث بساحتها خطبا
فيوماً بخيل تطرد الروم عنهم ... ويوماً بجود تطرد الفقر والجدبا.
سراياك تترى؛ والدمُسْتُقُ هارب ... وأصحابه قتلى وأمواله نهبى
أتى مرعشاً يستقرب البعد مقبلاً ... وأدبر إذ أقبلت، يستبعد القربا
كذا يترك الأعداء من يكره القنا ... ويقفل من كانت غنيمته رعبا.
مضى بعدما التف الرماحان ساعة ... كما يتلقى الهدبُ في الرقدة الهدبا.
وخلى العذارى والبطاريق والقرى ... وشعث النصارى والقرابين والصلبا.

ولما كانت السنة التالية (٣٤٢ هـ = ٩٥٣ م) اضطربت الأمور على (سيف الدولة) في البادية؛ فرحل سيف الدولة من حلب؛ ونزل حران؛ وأخذ رهائن بني عُقيل وقشير والعجلان. ثم قرر القيام بغزو بلاد الروم؛ فعبر نهر الفرات؛ وسار الى (دلوك) ثم إلى (قنطرة صنجة) ومنها الى (درب القلة) وشن الغارة على أرض عرقة وملطية، وعاد ليعبر من درب (موزار) فوجد بأن الروم قد ضبطه عليه، فرجع؛ وتبعه الروم؛ فعطف عليهم؛ فقتل كثيراً من الأرمن؛ ورجع إلى (ملطية). وعبر (قُباقب) وهو نهر؛ حتى ورد المخاض على نهر الفرات - تحت حصن يعرف بالمنشار - فعبر إلى بطن (هنزيط وسمنين) ونزل (بحصن الران). ورحل الى سميساط، فورد عليه بها من خبره أن الروم في بلد المسلمين؛ فأسرع إلى (دلوك) وعبرها، فأدرك الروم عند رجوعهم على نهر جيحان، فهزمهم؛ وأسر (قسطنطين) بن الدمستق؛ وجرح الدمستق في وجهه. وتمزق عسكر الروم الذي حشد فيه (الدمستق) جنداً ضخماً من الروم والروس والبلغار وغيرهم. وعاد (سيف الدولة) ظافراً إلى حلب (*).

= كفى عجباً أن يعجب الناس أنه بنى مرعشاً، تباً لآرائهم تبا.
فمن كان يرضي اللؤم والكفر ملكه فهذا الذي يرضي المكارم والربا.

وقال المتنبي؛ في وصف وفد الروم الذي جاء يطلب المدنة؛ ومدح سيف الدولة (الديوان ٣٣٥-٣٣٩).

رأى ملك الروم ارتياحك للندى فقام مقام المجتدي المتملق.
وخلى الرماح السمهرية صاغراً لأدرب منه بالطعان وأحذق.
وكاتب من أرض بعيد مرامها قريب على خيل حواليك سُبق.
وقد سار في مسراك منها رسوله فما سار إلا فوق هام مفلق.
فلما دنا أخفى عليه مكانه شعاع الحديد البارق المتألق.
وأقبل يمشي في البساط فما درى إلى البحر يمشي أم إلى البدر يرتقي
ولم يثنك الأعداء عن مهجاتهم بمثل خضوع في كلام منمق.
وكنت إذا كاتبته قبل هذه كتبت إليه في قذال الدمستق.
فإن تعطه بعض الأمان فسائل وإن تعطه حد الحسام فأخلِق.

(*) في الكامل في التاريخ - جعل ابن الأثير هذه الغزوة في احداث سنة ٣٤٣ هـ - بينما جعلها ابن تغري بردي في احداث سنة ٣٤٢؛ وهو الأكثر صحة على ما يعتقد وفي هذه الغزوة قال المتنبي =

كان أهل (الحدث) قد أسلموها بالأمان إلى الدمستق (سنة ٣٣٧ هـ = ٩٤٨ م) فلما كانت سنة ٣٤٣ هـ = ٩٥٤ م سار سيف الدولة نحو الحدث لبنائها وتحصينها، وبدأ فور وصوله بخط أساسها؛ وحفر أوله بيده ابتغاء ما عند الله جل ذكره من الثواب. ولكن؛ ولما يمض أكثر من ثلاث أيام على بدء العمل حتى أقبل دمستق النصرانية (ابن الفقاس) في نحو خمسين ألف فارس وراجل من جموع الروم والأرمن والروس والبلغر والصقلب والخزرية، ووقعت المعركة الحاسمة بعد ثلاث أيام؛ من أول النهار إلى وقت العصر؛ ثم حمل (سيف الدولة) بنفسه على الدمستق ومعه خمسمائة من غلمانه وأصناف رجاله؛ فقصد موكبه وهزمه؛ وأظفره الله تعالى به؛ وقتل نحو ثلاثة

= (الديوان ص٣٤٧-٣٥٢) قصيدة طويلة - منها:

ليالي بعد الظاعنين شكول ... طوالٌ؛ وليل العاشقين طويل.
لقيت (بدرب القُلة) الفجر لقية ... شفت كمدي؛ والليل فيه قتيل.
ويوماً كأن الحسن فيه؛ علامة ... بعثت بها والشمس منك رسول.
وما قبل سيف الدولة اثار عاشق ... ولا طلبت عند الظلام ذحول.
ولكنه يأتي بكل غريبة ... تروق؛ على استغرابها؛ وتهول.
رمى الدرب بالجرد الجياد إلى العدى ... وما علموا ان السهام خيول.
شوائل تشوال العقارب بالقنا ... لها مرح من تحته وصهيل.
وما هي إلا خطرة عرضت له ... بحران لبتها قنا ونصول.
فلما تجلى من (دلوك) و(صنجة) ... علت كل طود راية ورعيل.
فما شعروا حتى رأوها مغيرة ... قباحاً؛ وأما خلقها فجميل.
سحائب يمطرن الحديد عليهم ... فكل مكان بالسيوف غسيل.
وأمسى السبايا ينتحبن (بعرقة) ... كأن جيوب الثاكلات ذيول
تسايرها النيران في كل مسلك ... به القوم صرعى والديار طلول.
تمل الحصون الشم طول نزالنا ... فتلقي إلينا أهلها وتزول.
وبتن بحصن (الران) رزحى من الوجى ... وكل عزيز للأمير ذليل
ودون (سميساط) المطامير والملا ... وأودية مجهولة وهجول
لبسن الدجى فيها إلى أرض (مرعش) ... وللروم خطب في البلاد جليل.
على قلب قسطنطين منه تعجب ... وإن كان في ساقيه منه كبول.
لعلك يوماً يا دمستق عائد ... فكم هارب مما إليه يؤول.
نجوت بإحدى مهجتيك جريحة ... وخلفت إحدى مهجتيك تسيل.

آلاف من مقاتلته، وأسر خلقاً من فرسانه ومشاته فقتل أكثرهم واستبقى البعض؛ وأسر بطريق سمندوية ولقندوية، وهو صهر الدمستق على ابنته (توزس الأعور) كما أسر ابن ابنة الدمستق، وأقام على الحدث إلى أن بناها ووضع بيده آخر شرافة منها. ثم جاءته وفود الروم على مرتين (في شهر صفر وفي شهر ربيع الأول من سنة ٣٤٣ هـ) وهي تطلب الفداء، وإطلاق سراح الأسرى (*).

بدأت سنة ٣٤٤ هـ = ٩٥٥ م بوصول وفد جديد من قبل ملك الروم الى حلب طلباً للهدنة والفداء، ولكن وفي منتصف هذه السنة تقريباً (في جمادى الأولى) ورد على سيف الدولة الخبر بأن الدمستق وجيوش النصرانية قد نزلت ثغر الحدث، ونصبت

(*) لقد سجل المتنبي هذه الأحداث في قصائد طويلة (ديوان المتنبي: ص ٣٧٤ - ٣٧٩ و ٣٦٣ - ٣٦٨) منها:

على قدر أهل العزم تأتي العزائم ... وتأتي على قدر الكرام المكارم.
هل الحدث الحمراء تعرف لونها ... وتعلم أي الساقيين الغمائم.
سقتها الغمام الغر قبل نزوله ... فلما دنا منها سقتها الجماجم.
بناها فأعلى والقنا يقرع القنا ... وموج المنايا حولها متلاطم.
وكان بها مثل الجنون فأصبحت ... ومن جثث القتلى عليها تمائم.
طريدة دهر ساقها فرددتها ... على الدين بالخطي والدهر راغم.
وكيف ترجى الروم والروس هدمها ... وذا الطعن آساس لها ودعائم.
أتوك يجرون الحديد كأنهم ... سروا بجياد مالهن قوائم.
خميس بشرق الأرض والغرب زحفه ... وفي أذن الجوزاء منه زمازم
تجمع فيه كل لسن وأمة ... فما تفهم الحداث إلا التراجم.
ضممت جناحيهم على القلب ضمة ... تموت الخوافي تحتها والقوادم.
أفي كل يوم ذا الدمستق مقدم ... قفاه على الإقدام للوجه لائم
وقد فجعته بابنه وابن صهره ... وبالصهر حملات الأمير الغواشم
ولست مليكاً هازماً لنظيره ... ولكنك التوحيد للشرك هازم
تشرف عدنان به لا ربيعة ... وتفتخر الدنيا به لا العواصم
ألا أيها السيف الذي لست مغمداً ... ولا فيك مرتاب ولا منك عاصم
هنيئاً لضرب الهام والمجد والعلى ... وراجيك والإسلام أنك سالم
ولم لا يقي الرحمن حديك ما وقى ... وتفليقه هام العدا بك دائم (؟)

مكايد الحصون عليه؛ وقدرت أنها فرصة لما تداخلها من القلق والانزعاج والوصم في تمام بنايته على يد سيف الدولة؛ ولأن ملكهم ألزمهم قصدها؛ وأنجدهم بأصناف الكفر من البلغر والروس والصقلب وغيرهم؛ وأنفذ معهم العدد. فركب سيف الدولة نافراً، وانتقل الى موضع غير الموضع الذي كان به. ونظر فيما وجب أن ينظر فيه في ليلته. وسار سيف الدولة عن حلب، فنزل رعبان؛ وأخبار الحدث مستعجمة عليه بسبب سيطرة الروم على الطرق؛ واتخاذهم لما هو ضروري من التدابير للمحافظة على سر تحركاتهم. فلما أسحر سيف الدولة؛ لبس سلاحه، وأمر أصحابه بمثل ذلك؛ وسار زحفاً؛ وعندما اقترب من الحدث؛ عادت إليه طلائع قواته، وأعلمته أن الروم قد رحلوا ولم يستقر لهم قرار عندما علموا باشراف خيول سيف الدولة على عقبة (يقال لها العوافي). وامتنع أهل الحدث عن ارسال الاخبار؛ أو مغادرة تحصيناتهم؛ خوفاً من الوقوع في كمين يعده لهم الروم. فنزل سيف الدولة بظاهرها؛ وذكر قائد حامية الحدث أن الروم قد نازلوه وحاصروه، فأيده الله بنصر من لدنه؛ ولم يتمكن الروم من أحداث أكثر من نقوب نقبوها في سور قديم من أسوار المدينة. ثم أتت طلائع الروم وأخبرتهم بخبر سيف الدولة في اشرافه على ثغر رعبان؛ فوقعت الصيحة؛ وظهر الاضطراب، وولى كل فريق على وجهه؛ وخرج أهل الحدث فأوقعوا ببعضهم؛ وأخذوا آلة حربهم ووضعوها في حصنهم (*).

(*) سجل المتنبي هذه الأحداث في قصائد طويلة؛ منها «ديوان المتنبي ٤٠٣ - ٤٠٧ و ٣٨٠ - ٣٨٢».

ذي المعالي؛ فليعلون من تعالى   هكذا، هكذا، وإلاّ فلا؛ لا
حال أعدائنا عظيم؛ وسيف الـ   ـدولة ابن السيوف اعظم حالا
كلما أعجلوا النذير مسيراً   اعجلتهم جياده الإعجالا.
فأتتهم خوارق الأرض ما تحـ   ـمل إلا الحديد والأبطالا
لا ألوم ابن لاون - ملك الرو   م وإن كان ما تمنى محالا
يجمع الروم والصقالب والبلـ   ـغر فيها ويجمع الآجالا.
قصدوا هدم سورها فبنوه   وأتوا كي يقصروه فطالا.
أخذوا الطرق يقطعون بها الرسـ   ـل فكان انقطاعها إرسالا
ما مضوا لم يقاتلوك ولكن   القتال الذي كفاك القتالا

استعد (سيف الدولة) لغزاته سنة ٣٤٥ هـ = ٩٥٦ م، وأعد الآلات لعبور نهر أرسناس، وعندما أنهى استعداداته سار من حلب إلى حصن الران؛ ثم اجتاز بحيرة سمنين؛ ثم بهنزيط؛ وعبرت الروم والأرمن (نهر أرسناس) وهو نهر عظيم لا يكاد أحد يعبره سباحة إلا جره وذهب به لشدته وشدة برده. فسبح (سيف الدولة) الخيل حتى عبرته خلفهم إلى (تل بطريق) وهي مدينة للروم؛ فغرق جماعة منهم، وأحرق (سيف الدولة) تل بطريق وقتل من وجد بها؛ وأقام أياماً على أرسناس، وعقد بها (سماريات) يعبر السبي فيها. ثم قفل راجعاً. وقد غضب ملك الروم على البطريق (الدمستق) فأقسم هذا عند ملكه أنه سيعترض سيف الدولة في الدرب؛ وأنه سيجتهد في لقائه. وسأله انجاده ببطارقته، ففعل. وتقدم الدمستق حتى وصل (ميافارقين) وأحرق ونهب وخرب وسبى أهلها ونهب أموالهم. ثم رجع فاعترض (سيف الدولة) في الدرب، وارتفع في ذلك الوقت سحاب عظيم، وجاء مطر جود؛ ووقع القتال تحت المطر؛ ومع البطريق نحو ثلاثة آلاف قوس. فابتلت أوتار القسي؛ فلم تنفع. وانهزم (الدمستق) وأصحابه بعد أن قاتل وأبلى؛ وعلقت به الخيل، فجعل يحمي نفسه حتى سلم. وعاد (سيف الدولة) بجيشه ظافراً. وتوقف في (آمـد). وجاءه رئيس طرسوس في (أذنة) فخلع عليه وأعطاه شيئاً كثيراً. وعاد إلى حلب (*).

= نـزلـوا في مصـارع عـرفـوهـا ... ينـدبـون الأعمام والأخـوالا
بسـط الرعـب في اليمين يمينـاً ... فتـولـوا، وفي الشمال شمالا
ينفـض الروع أيديـاً ليس تـدري ... أسيـوفـاً حملـن أم أغـلالا
وإذا مـا خـلا الجبـان بـأرض ... طلـب الطعـن وحـده والنـزالا

وقال:

في خميـس مـن الأسـود بئيـس ... يفترسـن النفـوس والأمـوالا
مـن أطـاق التماس شيء غلابـاً ... واغتصـابـاً، لم يلتمسـه سـؤالا.

(*) أنشد المتنبي في هذه الغزاة قصيدة طويلة؛ كما انشد قصيدة أخرى في موضوع (قسم البطريق لملك الروم) بمحاربة سيف الدولة والانتصار عليه. ومما جاء في القصيدتين: «ديوان المتنبي ٤١١-٤٢٢»:

الرأي قبـل شجـاعـة الشجعـان ... هـو أول وهـي المحـل الثـاني
لـولا العقـول لكـان أدنـى ضيغـم ... أدنـى إلى شرف مـن الإنسـان =

كانت تلك الغزوات والأيام الشهيرة؛ بما وقع فيها من أحداث مثيرة؛ وبما رافقها من ضجيج؛ قد أخفت الجوانب السلبية؛ أو جوانب الضعف؛ في الصراع بين المسلمين والروم. فقد كان على الحمدانيين - وعلى سيف الدولة خاصة - مجابهة الصراع على الجبهة الداخلية؛ سواء في حدود إمارة الحمدانيين؛ أو بين الحمدانيين وبين البويهيين الذين باتت لهم الكلمة العليا في دار الخلافة؛ أو بينهم وبين الفاطميين الذين استقر لهم الحكم في مصر. ورغم أن هذه القوى جميعها كانت تتظاهر (بالتشيع) و (الرفض) (*) إلا أن ذلك لم يشكل عائقاً أو مانعاً

قاد الجياد إلى الطعان ولم يقد ... إلاّ إلى العادات والأوطان
في جحفل ستر العيون غباره ... فكأنما يبصرن بالآذان.
فكأن أرجلها بتربة (منبج) ... يطرحن أيديها بحصن (الران).
حتى عبرن (بأرسناس) سوابحاً ... ينشرن فيه عمائم الفرسان
فتل الحبال من الغدائر فوقه ... وبنى السفين له من الصلبان
خضعت لمنصلك المناصل عنوة ... وأذل دينك سائر الأديان.
وعلى الدروب وفي الرجوع غضاضة ... والسير ممتنع من الامكان.
والطرق ضيقة المسالك بالقنا ... والكفر مجتمع على الايمان
نظروا الى زبر الحديد كأنما ... يصعدن بين مناكب العقبان
فرموا بما يرمون عنه وأدبروا ... يطأون كل حنية مرنان

وقال:

عقبى اليمين على عقبى الوغى ندم ... ماذا يزيدك في إقدامك القسم(؟)
آلى الفتى (ابن شمشقيق) فأحنثه ... فتى من الضرب ينمى عنده الكلم
أين البطارق والحلف الذي حلفوا ... بمفرق الملك، والزعم الذي زعموا(؟)
فلم تتم (سروج) فتح ناظرها ... إلا وجيشك في جفنيه مزدحم
والنقع يأخذ (حراناً) وبقعتها ... والشمس تسفر أحياناً وتلتثم.

(★) جاء في (البداية والنهاية) احداث سنة ٣٤٧ هـ: «وقع في هذه السنة الصلح بين معز الدولة البويهي وناصر الدولة الحمداني. ورجع معز الدولة الى بغداد بعد انعقاد الصلح، وقد امتلأت البلاد رفضاً وسباً للصحابة من بني بويه وبني حمدان والفاطميين؛ وكل ملوك البلاد مصراً وشاماً، عراقاً وخراسان وغير ذلك من البلاد، كانوا رفضاً، وكذلك الحجاز وغيره، وغالب بلاد المغرب، فكثر السب والتكفير منهم للصحابة».

أمام وقوع الصراعات بين هذه القوى بعضها ضد بعض. وكان الروم قد انتقلوا منذ حين ـ على نحو ما سبق ذكره ـ للهجوم الشامل على بلاد المسلمين. وجاءت غزوات (سيف الدولة) لتعمل على إيقاف الموقف المتدهور ـ بصورة مؤقتة، غير أنها كانت عاجزة عن تحويل التيار لمصلحة المسلمين بصورة نهائية؛ إذ ان مثل هذا التحويل كان يتطلب تغيير موازين القوى؛ فكان الطرف الأكثر قدرة على استنزاف قدرة الخصم هو الطرف الأكثر حظاً في توجيه الصراع لمصلحته. وقد تبين أن (غزوات سيف الدولة) لم تستنزف شيئاً من قدرة الروم؛ بل إن الأمر وقع على نقيض ذلك؛ فقد استنزفت هذه الحروب قدرة الحمدانيين؛ وأضعفت من قدرة (سيف الدولة). وهذا ما أكدته مسيرة الصراع.

ففي سنة ٣٤٨ هـ = ٩٥٩ م؛ غزت الروم طرسوس والرها؛ فقتلوا وسبوا وغنموا وعادوا سالمين؛ وكان في جملة الأسرى (محمد بن ناصر الدولة). وفي السنة التالية (٣٤٩ هـ = ٩٦٠ م) غزا سيف الدولة بلاد الروم ومعه ثلاثون ألفاً؛ فأحرق وفتح عدة حصون؛ وأخذ من السبي والغنائم والأسرى شيئاً كثيراً؛ وبلغ إلى خرشنة؛ ثم إن الروم أخذوا عليه المضايق. فلما أرادوا الرجوع قال أهل طرسوس لسيف الدولة: «إن الروم قد ملكوا الدرب خلف ظهرك؛ فلا تقدر على العود منه؛ والرأي أن ترجع معنا» فلم يقبل منهم؛ وتمسك برأيه واستبد؛ وعاد في الدرب الذي دخل منه؛ فظهر الروم عليه ـ انتصروا ـ واستردوا ما كان مع سيف الدولة من الغنائم؛ وأخذوا أثقاله؛ ووضعوا السيف في أصحابه؛ فأتوا عليهم قتلاً وأسراً. وتخلص هو في ثلاثمائة رجل بعد جهد ومشقة. أما أهل طرسوس فخرجوا من درب آخر فسلموا. وفي سنة ٣٥٠ هـ = ٩٦١ م. سار قفل عظيم من انطاكية إلى طرسوس؛ ومعهم صاحب انطاكية؛ فخرج عليهم كمين للروم؛ فأخذ من كان فيها من المسلمين؛ وقتل كثيراً منهم؛ وأفلت صاحب انطاكية وبه جراحات. ثم دخل (نجا) غلام سيف الدولة؛ بلاد الروم من ناحية ميافارقين غازياً؛ فغنم ما قيمته قيمة عظيمة وسبى وأسر وخرج سالماً.

ج - المأزق الصعب:

واجه (سيف الدولة) مأزقاً صعباً سنة ٣٥١ هـ = ٩٦٢ م. فقد تولى الدمستق قيادة جيش من ستين ألفاً وتقدم به حتى وصل (عين زربى) الواقعة في سفح جبل عظيم؛ يشرف عليها. ووجه (الدمستق) بعض جنده فصعدوا الجبل فملكوه؛ ووجه قوات أخرى بالدبابات حتى وصلوا السور وشرعوا في نقبه؛ فلما رأى ذلك أهل (عين زربى) طلبوا الأمان؛ فأمنهم الدمستق؛ وفتحوا له باب المدينة فدخلها؛ ورأى جنده الذين في الجبل وقد انحدروا الى المدينة؛ فندم على إجابة أهلها إلى الأمان؛ ونادى مناديه في البلد؛ أول الليل؛ بأن يخرج جميع أهله إلى المسجد الجامع؛ وأن من تأخر في منزله قتل؛ فخرج من استطاع الخروج؛ فلما أصبح أنفذ رجالته في المدينة؛ وأمرهم بقتل من وجدوه في منزله؛ فقتلوا خلقاً كثيراً من الرجال والنساء والصبيان؛ وأمر بجمع ما في البلد من السلاح؛ فجمع فكان شيئاً كثيراً. وأمر من في المسجد بأن يخرجوا من البلد حيث شاؤوا يومهم ذلك؛ ومن أمسى قتل، فخرجوا مزدحمين؛ فمات بالزحمة جماعة؛ ومضوا على وجوههم لا يدرون أين يتوجهون فماتوا في الطرقات؛ وقتل الروم من وجدوه بالمدينة آخر النهار؛ وأخذوا كل ما خلفه الناس من أموالهم وأمتعتهم؛ وهدموا سوري المدينة. وأقام (الدمستق) في بلاد الاسلام أحداً وعشرين يوماً، وفتح حول (عين زربى) أربعة وخمسين حصناً للمسلمين؛ بعضها بالسيف؛ وبعضها بالأمان؛ وأن حصناً من تلك الحصون التي فتحت بالأمان؛ أمر أهله بالخروج منه؛ فخرجوا؛ فتعرض أحد الأرمن لبعض حرم المسلمين؛ فلحق المسلمين غيرة عظيمة؛ فجردوا سيوفهم؛ فاغتاظ الدمستق لذلك فأمر بقتل جميع المسلمين وكانوا أربعمائة رجل؛ وقتل النساء والصبيان ولم يترك إلا من يصلح أن يسترق. وكان صاحب طرسوس (ابن الزيات) قد خرج في أربعة آلاف رجل من الطرسوسيين؛ فأوقع بهم الدمستق؛ فقتل أكثرهم. وراسل أهل (بغراس) الدمستق، وقدموا له مائة ألف درهم؛ فأقرهم ولم يتعرض لهم؛ **ثم سار الدمستق إلى (قيسارية) فأقام بها؛ وحشد كل ما أمكن له حشده، حتى أصبحت عدة عسكره مائتي ألف رجل؛ منهم ثلاثون ألف رجل بالجواشن، وثلاثون ألف للهدم وإصلاح الطرق من**

الثلج؛ وأربعة آلاف بغل يحمل الحسك الحديد. فلما قضى صوم النصارى وأنهى الدمستق استعداداته؛ قاد مجموعة من الفرسان الخفيفة؛ وخرج بهم من (قيسارية) وسار سريعاً حتى سبق خبره، ووصل الى حلب فهاجمها بصورة مباغتة، فيما كان جيشه الكبير قد بدأ تحركه من (قيسارية). ولم يشعر سيف الدولة؛ ولا أهل حلب؛ إلا والروم قد ركبوهم؛ ولم يتمكن (سيف الدولة) من جمع قواته وحشدها؛ فخرج للقتال فيمن معه، فقاتل الدمستق؛ ولم تكن له قدرة على احتمال القتال بسبب قلة من معه والذين قتل أكثرهم؛ حتى لم يبق من أولاد (داود بن حمدان) أحد؛ وقتلوا جميعهم. فانهزم سيف الدولة في نفر يسير. وظفر الدمستق بداره؛ وكانت خارج مدينة حلب تسمى الدارين؛ فوجد فيها لسيف الدولة ثلاثمائة بدرة - صرة - من الدراهم؛ وأخذ له ألفاً وأربعمائة بغل؛ ومن خزائن السلاح ما لا يحصى؛ فأخذ الجميع؛ وخرب الدار؛ وملك الحاضر (الربض). وحصر مدينة حلب، فقاتله أهلها؛ وهدم الروم في السور ثلمة، فقاتلهم أهل حلب عليها؛ فقتل من الروم كثير؛ ودفعوهم عنها؛ فلما جنهم الليل عمروها. فلما رأى الروم ذلك تأخروا إلى (جبل جوشن). ثم إن رجال الشرطة بحلب قصدوا منازل الناس وخانات التجار لينهبوها؛ فلحق الناس أموالهم ليمنعوها؛ فخلا السور منهم؛ فلما رأى الروم السور خالياً من الناس قصدوه؛ وقربوا منه، فلم يمنعهم أحد. فصعدوا الى أعلاه؛ فرأوا الفتنة قائمة في البلد بين أهله؛ فنزلوا وفتحوا الأبواب ودخلوا البلد بالسيف، يقتلون من وجدوا؛ ولم يرفعوا السيف إلى أن تعبوا وضجروا. وكان في حلب ألف وأربعمائة من الأسارى؛ فتخلصوا وأخذوا السلاح؛ وقتلوا الناس؛ وسبى من البلد بضعة عشر ألف صبي وصبية؛ وغنموا ما لا يوصف كثرة؛ فلما لم يبق مع الروم ما يحملون عليه الغنيمة؛ أمر الدمستق بإحراق الباقي؛ وأحرق المساجد. وكان قد بذل لأهل البلد الأمان على أن يسلموا إليه ثلاثة آلاف صبي وصبية، ومالاً حدد مبلغه، وينصرف عنهم؛ فلم يجيبوه الى ذلك؛ فملكهم كما سبق ذكره. ولما دخل الروم البلد قصد الناس القلعة؛ فمن دخلها نجا بحشاشة نفسه. وأقام الدمستق تسعة أيام في حلب؛ وأراد الانصراف عنها بما غنم؛ فقال له ابن أخت الملك - وكان معه -: «هذا البلد قد حصل بأيدينا؛ وليس من يدفعنا عنه؛ فلأي

سبب ننصرف عنه؟ » فقال الدمستق: « قد بلغنا ما لم يكن الملك يؤمله؛ وغنمنا وقتلنا وخربنا وأحرقنا وخلصنا أسرانا وبلغنا ما لم يسمع بمثله ». واستمر الجدل بينهما؛ إلى أن قال له الدمستق: « انزل على القلعة فحاصرها؛ فإنني مقيم بعسكري على باب المدينة » فتقدم ابن اخت الملك إلى القلعة؛ ومعه سيف وترس؛ وتبعه الروم؛ فلما قرب من باب القلعة؛ ألقي عليه حجر، فسقط؛ ورمي بخشب فقتل؛ فأخذه أصحابه وعادوا إلى الدمستق؛ فلما رآه قتيلاً؛ قتل من معه من أسرى المسلمين؛ وكانوا ألفاً ومائتي رجل؛ وعاد إلى بلاده؛ ولم يعرض لسواد حلب وأمر أهله بالزراعة والعمارة ليعود إليهم بزعمه.

قام الروم بعد ذلك بفتح حصن (دلوك) وثلاثة حصون مجاورة له بالسيف. وأغاروا على منبج؛ فأسروا حاكمها (أبو فراس بن سعيد بن حمدان). وعمل سيف الدولة على إعادة بناء (عين زربى) وسير حاجبه في جيش؛ مع أهل طرسوس؛ إلى بلاد الروم فغنموا وقتلوا وسبوا وعادوا؛ فقصد الروم (حصن سيسية) فملكوه. وسار غلام سيف الدولة (نجا) في جيش إلى (حصن زياد) فلقيه جمع من الروم؛ فهزمهم؛ واستأمن إليه من الروم خمسمائة رجل؛ فأمنهم. واتصلت أيام الصراع؛ ففي السنة التالية (٣٥٢ هـ = ٩٦٣ م) دخل أهل طرسوس بلاد الروم غازين. ودخلها أيضاً غلام سيف الدولة بن حمدان (نجا) من درب آخر؛ ولم يكن سيف الدولة معهم لمرضه؛ فإنه كان قد لحقه قبل ذلك بسنتين فالج؛ فأقام على رأس درب من تلك الدروب؛ فأوغل أهل طرسوس في غزوتهم حتى وصلوا إلى (قونية) وعادوا. فرجع سيف الدولة إلى حلب، فلحقه في الطريق غشية أرجف عليه الناس بالموت. واجتمع من رجالة الأرمن جماعة كثيرة؛ وقصدوا (الرها) فأغاروا عليها فغنموا واستاقوا خمسة آلاف رأس من الغنم وخمسمائة رأس من البقر والدواب؛ وأسروا وعادوا موفورين.

لقد كان لهذه التطورات دورها في استثارة الروم والمسلمين. ففي القسطنطينية؛ ثار الروم بملكهم فقتلوه وملكوا غيره. وصار (ابن شمشقيق) دمستقاً؛ وهو الذي يقوله العامة (ابن الشمشكي). أما بالنسبة للمسلمين؛ فقد ظهر

ضعف أمر سيف الدولة بعد تلك الملاحم الكبار التي طير فيها لب العدو ومزقها. إذ قامت الروم فعبرت الروم نهر الفرات؛ لقصد الجزيرة؛ وأغلق أهل الموصل الأسواق، واجتمعوا في المسجد الجامع لذلك؛ ومضوا إلى (ناصر الدولة الحمداني) فضمن لهم الغزو. ووردت الكتب من بغداد أن الرعية أغلقت الأسواق؛ وذهبوا إلى باب الخلافة ومعهم كتاب يشرح مصيبة حلب؛ وضجوا؛ فخرج إليهم الحاجب؛ وأوصل الكتاب إلى الخليفة فقرأه، ثم خرج إليهم فعرفهم أن الخليفة «**بكى**» **وأنه قال: «بأن ما جرى قد غمني؛ وأنتم تعلمون أن سيفي ـ معز الدولة البويهي ـ وأنا أرسله في هذا» فقالوا: «لا نقنع إلا بخروجك أنت؛ وأن تكتب إلى سائر الآفاق؛ وتجمع الجيوش؛ وإلا فانعزل لنولي غيرك»** فغاظه كلامهم. ثم وجه إلى دار معز الدولة؛ فركب ومعه الاتراك؛ فصرفهم صرفاً قبيحاً. ثم جاءت الأخبار بموت طاغية الروم. وأن الخلف واقع بينهم فيمن يملكونه؛ فطمع عسكر طرسوس؛ ودخلوا أرض الروم في عدة وافرة؛ وأوقعوا بالروم ونصروا عليهم؛ وعادوا بغنائم لم ير من دهر مثلها؛ فلما رجعوا ووصلوا إلى الدرب؛ إذا هم بالبطريق (ابن الملايني) على الدرب؛ فاقتتلوا طوال النهار؛ ونصر المسلمون. وبلغ (سيف الدولة) أيضاً اختلاف الروم؛ فبادر؛ ودوخ الأعمال وأحرق؛ وحصل من السبي اكثر من ألفين؛ ومن المواشي مائة ألف رأس، وفرح المؤمنون بالنصر والاستظهار على العدو. ثم توجه سيف الدولة غازياً بعد شهرين؛ فسار على (حران) وعطف على (ملطية) فملأ يديه سبياً وغنائم؛ وعاد إلى حلب. رد (الدمستق) على ذلك في السنة التالية (**٣٥٣ هـ = ٩٦٤ م**) فقاد جيشه وألقى الحصار على (المصيصة) وقاتل أهلها ونقب سورها؛ واشتد قتال أهلها على النقب حتى دفعهم عنه أهلها بعد قتال عظيم؛ وأحرق الروم رستاقها ـ ريفها ـ ورستاق أذنة وطرسوس بسبب اقدام أهلها على مساعدة أهل المصيصة أثناء حصارها؛ فقتل من المسلمين خمسة عشر ألف رجل؛ وأقام الروم في بلاد الإسلام خمسة عشر يوماً لم يقصدهم أحد. ثم عادوا؛ وذلك بعد أن أرسل (الدمستق) إلى أهل المصيصة وأذنة وطرسوس: «**اني منصرف عنكم لا لعجز؛ ولكن لضيق العلوفة وشدة الغلاء؛ وأنا عائد إليكم؛ فمن انتقل منكم فقد نجا؛ ومن وجدته بعد عودي قتلته**».

وصل في تلك الفترة رجل من خراسان إلى الشام يريد الجهاد في سبيل الله ومعه نحو خمسة آلاف رجل؛ وكان طريقهم على أرمينية وميافارقين، فلما وصلوا إلى (سيف الدولة) أخذهم؛ وسار بهم نحو بلاد الروم لدفعهم عن المسلمين؛ فوجدوا الروم قد عادوا، فتفرق الغزاة الخراسانية في الثغور لشدة الغلاء؛ وعاد أكثرهم إلى بغداد ومنها إلى خراسان.

عاد الدمستق فقاد جيشه وسار إلى طرسوس؛ وحصرها، وجرى بين الروم وبين أهل طرسوس قتال واشتباكات كثيرة سقط في بعضها الدمستق (ابن الشمشقيق) إلى الأرض؛ وكاد يؤسر؛ فقاتل عليه الروم وخلصوه؛ وأسر أهل طرسوس بطريقاً كبيراً من بطارقة الروم. ورحل الروم عنها، وتركوا عسكراً على (المصيصة) مع الدمستق فحصرها ثلاثة أشهر، لم يمنعهم منها أحد؛ فاشتد الغلاء على الروم؛ وكان شديداً قبل نزولهم، فلهذا طمعوا في البلاد لعدم وجود الأقوات عندهم. فلما نزل الروم زاد شدة؛ وكثر الوباء أيضاً، فمات من الروم كثير فاضطروا إلى الرحيل. **وقد اشتد الغلاء بانطاكية وجميع الثغور حتى لم يقدر أحد على الخبز؛ وأكل الناس الرطبة والحشيش؛ وانتقل قوم من الثغور إلى دمشق والرملة وغيرها؛ نحو خمسين ألفاً؛ هرباً من الغلاء.**

عمل ملك الروم (نقفور) على بناء مدينة في (قيسارية) لتكون قريبة من بلاد الإسلام؛ ونقل أهله اليها؛ وأسكنها ليغير كل وقت على المسلمين. فأرسل إليه أهل (طرسوس) و(المصيصة) رسولاً **(سنة ٣٥٤ هـ = ٩٦٥ م)** يبذلون له أتاوة؛ ويطلبون منه أن ينفذ إليهم بعض أصحابه يقيم عندهم؛ فعزم على إجابتهم إلى ذلك؛ فأتاه الخبر بأن أهل الثغور قد ضعفوا وعجزوا؛ وأنهم لا ناصر لهم؛ وأن الغلاء قد اشتد عليهم؛ وقد عجزوا عن القوت حتى أكلوا الكلاب والميتة، وكثر فيهم الوباء فيموت منهم في اليوم نحو ثلاثمائة نفس. فعاد (نقفور) عن إجابتهم. وأحضر الرسول؛ وأحرق الكتاب على رأسه واحترقت لحيته؛ وقال له وللوفد المرافق له: **«أنتم كالحية؛ في الشتاء تخدر وتذبل حتى تكاد تموت؛ فإن أخذها إنسان وأحسن إليها وأدفأها انتعشت ونهشته. وأنتم إنما أطعتم لضعفكم؛ وإن تركتكم حتى تستقيم أحوالكم**

تأذيت بكم. امض إليهم وعرفهم أنه ليس عندي إلا السيف».

جمع نقفور جيوش الروم؛ وسار إلى (المصيصة) بنفسه فحاصرها وفتحها عنوة بالسيف، ووضع السيف في أهلها، فقتل منهم مقتلة عظيمة؛ ثم رفع السيف؛ ونقل كل من بها إلى بلد الروم؛ وكانوا نحو مائتي ألف إنسان. ثم سار إلى (طرسوس) فحصرها، فأذعن أهلها بالطاعة؛ وطلبوا الأمان؛ فأجابهم إليه؛ وفتحوا البلد؛ فلقيهم بالجميل وأمرهم أن يحملوا من سلاحهم وأموالهم ما يطيقون؛ ويتركوا الباقي؛ ففعلوا ذلك. وساروا براً وبحراً؛ وسير معهم من يحميهم حتى بلغوا انطاكية. وجعل الملك المسجد الجامع بطرسوس اصطبلاً لدوابه؛ وأحرق المنبر، وأعاد بناء طرسوس وحصنها؛ وجلب المسيرة إليها حتى رخصت الأسعار؛ وتراجع إليها كثير من أهلها ودخلوا في طاعة ملك الروم؛ وتنصر بعضهم؛ وأراد المقام بها ليقرب من بلاد المسلمين، ثم عاد إلى (القسطنطينية) وأراد (الدمستق) وهو (ابن الشمشقيق) أن يقصد (ميافارقين) وبها سيف الدولة، فأمره الملك باتباعه إلى القسطنطينية؛ فمضى إليه.

كان عليه (سيف الدولة) مواجهة هذه التحديات الجديدة؛ غير أن متاعبه على جبهته الداخلية قد أعاقته عن ذلك؛ سواء على جبهة أرمينية (حيث أعلن قائد سيف الدولة ـ نجا ـ) تمرده فيها. أو على جبهة أنطاكية؛ مما حمله على توجيه جهده لبناء جبهته الداخلية؛ وإحباط اعمال التمرد. **وتزايدات وطأة الأحداث على (سيف الدولة) بوفاة ـ أو قتل ـ صديقه وشاعره (أبو الطيب المتنبي)** (*) **. ولكن (سيف الدولة) أحرز نجاحاً مقابلاً باطلاق سراح ـ وافتداء ابن عمه (ابو فراس الحمداني)** (**) **.**

(*) أبو الطيب المتنبي ـ أحمد بن الحسين بن الحسن بن عبد الصمد الجعفي الكندي الكوفي (٣٠٣ هـ = ٣٥٤ هـ = ٩١٥ ـ ٩٦٥ م) اشتهر بمدح سيف الدولة وبمرافقته له في الحروب. عاش حياة مثيرة. وديوانه من مشاهير دواوين الشعر العربي. كان يكثر المقام بالبادية لاقتباس اللغة؛ ونظر في فنون الأدب ـ وتعاطى قول الشعر من صغره حتى بلغ فيه الغاية؛ وفاق أهل زمانه.

(**) ورد في (تاريخ الإسلام ـ احداث سنة ٣٥٥ هـ) في موضوع فداء (أبو فراس الحمداني) ما يلي: =

عاد الروم للهجوم (سنة ٣٥٥ هـ) فخرج جيشهم وقصد مدينة (آمد) ونزل عليها وحصرها؛ وقاتل أهلها؛ فقتل منهم ثلاثمائة رجل، وأسر نحواً من أربعمائة رجل؛ غير أنه عجز عن فتحها. فانصرف عنها إلى (دارا) وتقدم حتى (نصيبين) وصادفته قافلة تجارية كانت قادمة من (ميافارقين) فاستولى عليها. وهرب الناس من نصيبين خوفاً من بطش الروم؛ وكان سيف الدولة فيها؛ وفكر في الهرب؛ غير أن الروم عادوا، فبقي فيها. وسار الروم من ديار الجزيرة إلى الشام؛ فنازلوا أنطاكية؛ وأقاموا عليها مدة طويلة يقاتلون أهلها؛ وعجزوا عن فتحها، فخربوا ريفها - ربضها - ونهبوه، وعادوا إلى قاعدتهم (طرسوس).

ومات سيف الدولة (سنة ٣٥٦ هـ = ٩٦٧ م). وتصادف أن مات في تلك السنة أيضاً (الدمستق - أغلظ الملوك قلباً وأشدهم كفراً وأقواهم بأساً وأحدهم شوكة وأكثرهم قتلاً وقتالاً للمسلمين) ومات أيضاً ملك الروم في القسطنطينية. وظن الناس أنهم استراحوا من كره القتال. وقد استراحوا فعلاً في تلك السنة؛ ولكن هل كانت قضية الحرب على الثغور هي قضية (الدمستق) أو قضية (سيف الدولة)؟

= «قدم أبو فراس محمد بن ناصر الدولة من الأسر إلى ميافارقين، أخذته أخت ملك الروم لتفادي به أخاها؛ فجاء ستة آلاف، فنفذ إليها سيف الدولة أخاها في ثلاثمائة إلى (حصن المناخ) فلما شاهد بعضهم بعضاً سرح المسلمون أسيرهم في خمسة فوارس، وسرح الروم أسيرهم أبا الفوارس في خمسة؛ فالتقيا في وسط الطريق وتعانقا، ثم صار كل واحد إلى أصحابه، فترجلوا له وقبلوا الأرض. ثم احتفل (سيف الدولة) بابن أخيه، وحمل له الخيل والمماليك والعدد التامة، فمن ذلك مائة مملوك بمناطقهم وسيوفهم وخيولهم، وطال مقام (سيف الدولة) بميافارقين، فأنفق في سنة وثلاثة أشهر نيفاً وعشرين ألف ألف درهم ومائتين وستين ألف دينار. وتم الفداء فخلص من الأسر - من بين أمير إلى راجل - ثلاثة آلاف ومائتان وسبعون نفساً. وأنفق سيف الدولة على الفداء ثلاثمائة ألف دينار».

د ـ الأيام الأخيرة للحمدانيين .

لقد استطاع سيف الدولة تحقيق نجاحاته وانتصاراته بفضل سياسته الحكيمة للأمور ؛ فقد أمكن له التعاون مع أخيه (ناصر الدولة) حتى أقصى الحدود ؛ وأفاد من جميع الحمدانيين ؛ ونجح حتى في ترويض خصومه ؛ وحملهم على طاعته ؛ الأمر الذي ساعده على حشد كافة القوى ضد (الروم) وضد (مراكز القوى المضادة من بويهيين وفاطميين) وحتى ضد مراكز القوى المتمردة. ولكن ما إن ضعف مركز (سيف الدولة) في السنوات الأخيرة ؛ بسبب ضعف أو مرض سيف الدولة من جهة ؛ وبسبب الاستنزاف المستمر في الحروب من جهة أخرى ؛ حتى ظهرت بواكير التمزق بين ورثة (ناصر الدولة) بعضهم ضد بعض ؛ وبينهم وبين ابناء عمومتهم (ابناء سيف الدولة). وكان (أبو فراس الحمداني) (*) الضحية الأولى ؛ فعندما توفي (سيف الدولة) وخلفه ابنه (أبو المعالي شريف) أظهر جفاء (لأبي الفوارس) وأرسل في طلبه. فانحاز أبو فراس إلى (صدد) وهي قرية في طرف البادية عند حمص ؛ فجمع أبو المعالي الاعراب من بني كلاب وغيرهم ؛ وسيرهم في طلبه مع قائده (قرعويه) فأدركه وقتله. ولم يلبث (قرعويه) هذا أن استأثر بحكم حلب ، وأعلن تمرده على (أبي المعالي شريف) ووقعت معارك بينهما استمرت من ٣٥٨ حتى سنة ٣٦٠ هـ ؛ حيث اصطلح قرعويه وأبو المعالي. وخطب لأبي المعالي بحلب ـ وكان بحمص ـ وخطب هو وقرعويه في أعمالها للمعز لدين الله العلوي صاحب المغرب ومصر. وانعكست هذه التطورات بداهة على جبهة الصراع مع الروم.

(*) أبو فراس بن أبي العلاء سعيد بن حمدان (٣٢٠ ـ ٣٥٧ هـ = ٩٣٢ ـ ٩٦٧ م) ولد بمنبج ، وكان من الفرسان الشجعان ومن الشعراء الموهوبين ؛ قال الثعالبي في وصفه « كان فرد دهره ؛ وشمس عصره ؛ أدباً وكرماً ومجداً وبلاغة وبراعة وفروسية وشجاعة. وشعره مشهور جمع بين الحسن والجودة والسهولة والجزالة والعذوبة والفخامة والحلاوة ومعه رواء الطبع وسمة الظرف وعزة الملك ؛ ولم تجتمع هذه الخلال قبله إلا في شعر عبد الله بن المعتز. وأبو فراس يعتبر أشعر منه عند أهل الصنعة ونقدة الكلام. وكان الصاحب بن عباد يقول : بدىء الشعر بملك وختم بملك ـ وهو يعني امرأ القيس وأبا فراس ».

ففي سنة ٣٥٨ هـ = ٩٦٨ م. أقبل نقفور عظيم الروم بجيوشه إلى الشام؛ فخرج من (دربند - وهي التي تسمى باب الأبواب؛ أوباكو حالياً) ونازل انطاكية؛ فلم يلتفتوا إليه؛ فقال: «أرحل وأخرب ثم أعود إليكم من الساحل». ورحل ونازل (معرة مصرين - بنواحي حلب) فأخذها وغدر بأهلها وأسر منهم أربعة آلاف وستمائة نفس؛ ثم نزل على (معرة النعمان) فأحرق جامعها. وكان الناس قد هربوا في كل وجه إلى الحصون والبراري والجبال: ثم سار إلى (كفرطاب) وهي بين المعرة وحلب. وملك (قلعة شيزر) ثم سار إلى حماه وحمص؛ وكان أهلها قد رحلوا عنها وأخلوها؛ فدخلها وصلى في البيعة، وأخرج منها رأس (يحيى بن زكريا) وأحرق الجامع؛ ثم أحرق المدينة؛ وسار إلى (عرقة) وكان حاكم طرابلس قد أخرجه أهلها لشدة ظلمه؛ فقصد عرقة؛ وجاء الروم فحصروها وملكوها؛ وأخذوا جميع أموال حاكم طرابلس السابق - ثم أحرقها، وأحرق طرابلس وسار في بلاد الساحل؛ فأتى عليها نهباً وتخريباً؛ وملك ثمانية عشر منبراً؛ فأما القرى فكثير لا يحصى. **وأقام في الشام شهرين؛ يقصد أي موضع شاء، ويخرب ما شاء؛ ولا يمنعه أحد. إلا أن بعض العرب كانوا يغيرون على أطراف قواته. وأتاه جماعة منهم وتنصروا؛ وكادوا المسلمين من العرب وغيرهم؛ فامتنعت العرب من قصدهم؛ وصار للروم الهيبة العظيمة في قلوب المسلمين.** وأراد أن يحصر انطاكية وحلب؛ فبلغه أن أهلها قد أعدوا الذخائر والسلاح وما يحتاجون إليه فامتنع من ذلك؛ واكتفى بما حصل عليه من مال عظيم قدمه له أهل انطاكية. كما عمل (قرعويه) حاكم حلب على مصانعة ملك الروم بمال وفير. وسير ملك الروم سرية كبيرة إلى الجزيرة، فبلغوا (كفرتوثا)، ونهبوا وسبوا وأحرقوا؛ **وعاد ملك الروم إلى بلاده؛ ومعه من السبي نحو مائة ألف رأس؛ ولم يأخذ إلا الصبيان والصبايا والشبان؛ فأما الكهول والشيوخ والعجائز؛ فمنهم من قتله، ومنهم من أطلقه.** لم تكن هذه الأعمال إلا مقدمة لأعمال اكثر تطوراً؛ فعندما قام الروم بغزو ساحل بلاد الشام؛ اتفقوا مع أهل (حصن لوقا - وهم نصارى) على أن يرتحلوا منه إلى انطاكية؛ وأن يتظاهروا بأنهم إنما انتقلوا منه خوفاً من الروم. فإذا صاروا بأنطاكية أعانوهم على فتحها. وانصرف الروم عنهم بعد

اتفاقهم على ذلك؛ وانتقل أهل (حصن لوقا) ونزلوا بأنطاكية؛ بالقرب من الجبل الذي بها. ومضى على هذا الانتقال شهران، عاد بعدها جيش الروم بقيادة أخي الملك نقفور ومعه أربعون ألف رجل؛ فأحاطوا بسور انطاكية؛ وصعدوا الجبل إلى الناحية التي بها أهل (حصن لوقا). فلما رآهم أهل البلد قد ملكوا تلك الناحية؛ طرحوا أنفسهم من السور؛ وملك الروم البلد؛ ووضعوا في أهله السيف. ثم أخرجوا المشايخ والعجائز والأطفال من البلد، وقالوا لهم: «اذهبوا حيث شئتم» فأخذوا الشباب من الرجال والنساء والصبيان والصبايا؛ فحملوهم إلى بلاد الروم؛ وكانوا يزيدون على عشرين ألف انسان. ولما ملك الروم انطاكية؛ انفذوا جيشاً كثيفاً إلى حلب **(في سنة ٣٥٩ هـ = ٩٦٩ أيضاً)** وكان أبو المعالي شريف بن سيف الدولة محاصراً لها، وبها (قرعويه) متغلباً عليها، مستبداً بحكمها. فلما علم (أبو المعالي) باقتراب جيش الروم، ابتعد عن حلب؛ وقصد الريف، فجاء الروم وحصروا البلد وقد تحصن أهله بالقلعة؛ فملك الروم المدينة وحصروا القلعة؛ فخرج إليهم جماعة من أهل حلب، وتوسطوا بين الروم وبين قرعويه؛ وترددت الرسل؛ فاستقر الأمر بينهم على (هدنة مؤبدة) مقابل مال يحمله قرعويه إليهم. وأن يضمن (قرعويه) بقاء أهل القرى في قراهم؛ وأن يمنعهم من مغادرتها، حتى يتمكن الروم من شراء ما يحتاجون إليه إذا أرادوا غزو البلاد ـ وكان مع حلب حماه وحمص وكفرطاب والمعرة وأفامية وشيزر وما بين ذلك من الحصون والقرى. وسلموا الرهائن إلى الروم. وانسحب الروم من حلب وتسلمها المسلمون. ثم أرسل ملك الروم جيشاً إلى (ملاز كرد) من أعمال أرمينية؛ فحصروها، وضيقوا على من بها من المسلمين؛ وملكوها عنوة وقهراً، وعظمت شوكتهم؛ وخافهم المسلمون في أقطار البلاد، وصارت كلها سائبة لا تمتنع عليهم؛ يقصدون أين شاؤوا.

قتل (نقفور ـ ملك الروم) (*) في السنة ذاتها (٣٥٩ هـ = ٩٦٩ م) وانصرف

(*) ورد في الكامل في التاريخ (احداث سنة ٣٥٩) عن نقفور ـ ما يلي: «لم يكن نقفور ملك الروم؛ من أهل بيت المملكة، وإنما كان دمستقاً ـ والدمستق عندهم الذي كان يلي بلاد الروم التي هي شرقي خليج القسطنطينية ـ وكان نقفور هذا شديداً على المسلمين؛ وهو الذي أخذ حلب أيام سيف الدولة؛ فعظم شأنه عند الروم؛ وهو الذي فتح طرسوس والمصيصة وأذنة وعين زربى

كل طرف لعلاج مشكلاته الداخلية؛ فلما كانت سنة (٣٦١ هـ = ٩٧١ م) أغار ملك الروم على (الرها) ونواحيها؛ وساروا في ديار الجزيرة حتى بلغوا (نصيبين) فغنموا وسبوا وأحرقوا وخربوا البلاد. وفعلوا مثل ذلك (بديار بكر). ولم يكن من (أبي تغلب بن حمدان) في ذلك حركة ولا سعي في دفعه؛ لكنه حمل إليه مالاً كفه به عن نفسه. فسار جماعة من أهل تلك البلاد إلى بغداد مستنفرين؛ وأقاموا في الجوامع والمشاهد؛ واستنفروا المسلمين؛ وذكروا ما فعله الروم من النهب والقتل والأسر والسبي؛ فاستعظمه الناس؛ وخوفهم أهل الجزيرة من انفتاح الطريق؛ وطمع الروم؛ وأنهم لا مانع لهم عندهم. فاجتمع معهم أهل بغداد؛ وقصدوا دار الخليفة (الطائع لله) وأرادوا الهجوم عليه. فمنعوا من ذلك؛ وأغلقت الأبواب؛ فأسمعوا ما يقبح ذكره. وكان (بختيار بن معز الدولة البويهي) حينئذ يتصيد بنواحي الكوفة؛ فخرج إليه وجوه أهل بغداد؛ مستغيثين؛ منكرين عليه اشتغاله بالصيد وقتال (عمران بن شاهين - وهو مسلم) وترك جهاد الروم؛ ومنعهم عن بلاد الإسلام حتى توغلوها؛ فوعدهم التجهز للغزاة، وأرسل إلى الحاجب (سبكتكين) يأمره بالتجهز للغزو؛ وأن يستنفر العامة؛ ففعل (سبكتكين) ذلك: فاجتمع من العامة عدد كثير لا يحصون كثرة. وكتب (بختيار) إلى (أبي تغلب بن حمدان) صاحب الموصل، يأمره بإعداد الميرة والعلوفات؛ ويعرفه عزمه على الغزاة؛ فأجابه بإظهار الفرح؛ وإعداد ما طلب منه. ثم اجتاحت بغداد فتنة عظيمة؛ وظهرت العصبية الزائدة؛ وتحزب الناس؛ وظهر العيارون

= وغيرها. ولم يكن نصراني الأصل؛ وإنما هو من ولد رجل مسلم من أهل طرسوس - يعرف بابن الفقاس - تنصر؛ وكان ابنه هذا شهماً شجاعاً حسن التدبير لما يتولاه؛ فلما عظم أمره وقوي شأنه؛ قتل الملك الذي قبله؛ وملك الروم بعده؛ وتزوج امرأة الملك المقتول على كره منها؛ وكان لها من الملك المقتول ابنان. وجعل نقفور همته قصد بلاد المسلمين والاستيلاء عليها؛ وتم له ما أراد باشتغال ملوك الإسلام بعضهم ببعض؛ فدوخ البلاد؛ وكان قد بنى أمره على أن يقصد سواد البلاد فينهبه ويخربه فيضعف البلاد فيملكها، وغلب على الثغور الجزرية والشامية، وسبا وأسر ما يخرج من الحصر؛ وهابه المسلمون هيبة عظيمة؛ ولم يشكوا في أنه يملك جميع الشام ومصر والجزيرة وديار بكر؛ لخلو الجميع من مانع. ثم عزم أن يخصي ابني الملك المقتول لينقطع نسلهما ولا يعارض أحد أولاده في الملك. فلما علمت أمهما ذلك احتالت على قتله. وتم لها ذلك بمساعدة الدمستق - ابن الشمشقيق -».

ـ قطاع الطرق ـ وأظهروا الفساد، وأخذوا أموال الناس؛ وكان سبب ذلك هو استنفار العامة للغزاة؛ فاجتمعوا وكثروا؛ فتولد بينهم من أصناف البنوية والفتيان والسنية والشيعة والعيارين؛ فنهبت الأموال؛ وقتل الرجال؛ وأحرقت الدور؛ وفي جملة ما احترق محلة الكرخ: وكانت حياً للتجار والشيعة. ثم إن (بختيار) أنفذ إلى (المطيع لله) يطلب منه مالاً يخرجه في الغزاة؛ **فقال المطيع: «إن الغزاة والنفقة عليها وعلى غيرها من مصالح المسلمين تلزمني إذا كانت الدنيا في يدي؛ وتجبى الأموال إلي؛ وأما إذا كانت حالي هذه؛ فلا يلزمني شيء من ذلك؛ وإنما يلزم من البلاد في يده؛ وليس لي إلا الخطبة؛ فإن شئتم أن أعتزل فعلت»**. وترددت الرسائل بينهما؛ حتى بلغوا إلى التهديد؛ فبذل (المطيع لله) أربعمائة ألف درهم؛ واحتاج إلى بيع ثيابه وأنقاض داره وغير ذلك؛ وشاع بين الناس من العراقيين وحجاج خراسان وغيرهم أن الخليفة قد صودر. **فلما قبض (بختيار) المال؛ صرفه في مصالحه؛ وبطل حديث الغزاة.**

عاود الروم هجومهم في السنة التالية (٣٦٢ هـ = ٩٧٢ م). وكان ما أحرزه الدمستق من انتصاراته في غزوه لديار ربيعة وديار بكر، ونهبه لها؛ وعدم ممانعة أحد له؛ سبباً في تغذية طمع الدمستق بإمكان استيلائه على (آمد) فسار إليها. وكان (هزارمرد) غلام أبي الهيجاء بن حمدان ـ يدافع عنها، فكتب إلى (أبي تغلب) يستصرخه ويستنجده ويعلمه خطورة الموقف. فسير (أبو تغلب) أخاه في الحال (أبا القاسم هبة الله بن ناصر الدولة) واجتمعا على حرب الدمستق؛ وسارا إليه فلقياه في كثرة؛ لكنهما لقياه في مضيق لا تجول فيه الخيل؛ والروم على غير أهبة؛ فانهزموا؛ وأخذ المسلمون الدمستق أسيراً؛ ولم يزل محبوساً إلى أن مرض سنة ثلاث وستين وثلاثمائة؛ فبالغ أبو تغلب في علاجه؛ وجمع الأطباء؛ فلم ينفعه ذلك؛ ومات.

أفاد (عز الدولة بختيار الشريف ـ البويهي) من ضعف الحمدانيين فسار إلى الموصل بهدف الاستيلاء عليها (سنة ٣٦٣ هـ = ٩٧٣ م) ودارت وقائع واشتباكات انتهت بعقد الصلح. إلى أن كانت سنة (٣٦٧ هـ = ٩٧٧ م) فاستولى (عضد الدولة) على ملك بني حمدان؛ وخضع بنو حمدان للبويهيين. ولم يعد لهم دور لا في الحكم ولا في

الجهاد على الثغور الجزرية؛ بسبب خروج الموصل وميافارقين وآمد وغيرها من ديار بكر. أما بالنسبة للثغور الشامية؛ فقد بقيت في قبضة (أبي المعالي بن سيف الدولة). إلا أن ضياع القسم الشرقي من المملكة الحمدانية قد أدى إلى اضعاف (حكم أبي المعالي ـ في حلب). وكانت دولة الروم تعاني بدورها ظروفاً صعبة، سواء على جبهتها الداخلية؛ أو على جبهتها الغربية ـ مع البلغار ـ مما أدى إلى حدوث تقارب بين الروم

والحمدانيين سنة ٣٦٥ هـ = ٩٧٥ م. حيث ذكر ما يلي: «عمل باسيليس بن أرمانوس ملك الروم، على تعيين (ورد) المعروف باسم (سقلاروس) دمستقاً؛ فلما استقر ورد في الولاية أظهر تمرده على ملك الروم؛ وعصاه؛ فاستعان ملك الروم بأبي تغلب بن حمدان ـ وصاهره؛ ولبس التاج؛ وطلب الملك».

يمكن بعد ذلك تجاوز الصراعات الصغرى بين (الحمدانيين) في حلب وبين (الفاطميين) الذين كانوا يحكمون دمشق؛ للوصول إلى ما حدث سنة ٣٨١ هـ = ٩٩١ م، حيث توفي (سعد الدولة أبو المعالي بن سيف الدولة بن حمدان) وعهد إلى ابنه (أبي الفضائل) بالحكم من بعده. وفي هذه الفترة؛ أصدر العزيز حاكم مصر أمره بتوجيه جيش من دمشق بقيادة (منجوتكين) للاستيلاء على (حلب) فسار (منجوتكين) في جيش كثيف ووصل إلى حلب وحصرها وبها (أبو الفضائل) الذي أسرع بالكتابة إلى ملك الروم (باسيل) يستنجده، وكان (باسيل) يخوض حرباً مع (البلغار) فأرسل إلى نائبه بانطاكية؛ وأمره بإنجاد أبي الفضائل ـ فسار في خمسة آلاف ـ وقيل خمسين ألفاً ـ رجل. ونزل على الجسر الجديد بالعاصي؛ فلما سمع منجوتكين الخبر، سار لقتال الروم قبل وصولهم إلى حلب واجتماعهم (بأبي الفضائل) ودارت معركة حاسمة انتصر فيها (منجوتكين) وجمع من رؤوس قتلى الروم نحو عشرة آلاف رأس، انفذت إلى مصر؛ وشهرت بها. وتبع منجوتكين الروم إلى انطاكية. فنهب بلدها وقراها وأحرقها؛ وقام (أبو الفضائل) بنقل الغلال إلى حلب؛ وأحرق الباقي اضراراً بعساكر مصر. ولما عاد (منجوتكين) الى حلب وحاصرها، جرت مفاوضات بينه وبين (أبي الفضائل) الذي أغرى (منجوتكين) بالانسحاب

ورفع الحصار مقابل مبلغ من المال. وقبل (منجوتكين) العرض؛ وعاد إلى دمشق. فلما علم العزيز بذلك؛ غضب وكتب باعادة الجيش إلى حلب، وأرسل التموين من مصر إلى طرابلس عن طريق البحر، لنقله إلى الجيش أثناء حصار حلب. وقام جيش مصر بحصار حلب لمدة ثلاثة عشر شهراً. فقلت الأقوات بحلب؛ وعاد (أبو الفضائل) فكتب إلى ملك الروم: «متى ضاعت حلب ضاعت انطاكية وعظم عليك الخطب». وكان ملك الروم - باسيل - قد توسط بلاد البلغار فعاد بسرعة، واضطر جيش مصر للانسحاب، ووصل ملك الروم فنزل على باب حلب؛ وخرج إليه أبو الفضائل؛ ورحل باسيل إلى الشام؛ ففتح حمص وشيزر ونهبها؛ وسار إلى طرابلس فنازلها؛ فامتنعت عليه؛ وأقام عليها نيفاً وأربعين يوماً، فلما أيس منها عاد إلى بلاد الروم.

هكذا تحول الصراع المرير بين الحمدانيين وبين الروم إلى تعاون وتحالف؛ وكان الكسب لمصلحة الروم الذين كان باستطاعتهم حشد قوات اكبر من تلك التي كان يستطيع حشدها أي طرف من الأطراف المتصارعة في ظل حكم الخليفة العباسي. أما بالنسبة للحمدانيين في حلب؛ فقد ضعف أمرهم؛ وأصبحت حلب تابعة للفاطميين في مصر (سنة ٤٠٢ هـ = ١٠١١ م) حيث تولى حكمها (صالح بن مرداس). وكانت تلك النهاية المحزنة للحمدانيين هي البداية لصفحة جديدة من الصراع المسلح.



٢ ـ الاتراك السلاجقة :

أ ـ الروم ومناوراتهم بين مراكز القوى

ب ـ السلاجقة وجهاد الروم .

جـ ـ ملازكرد .



١ ـ الروم ومناوراتهم بين مراكز القوى

لئن كان للحمدانيين أيام قوتهم؛ وفي عهد سيف الدولة بصورة خاصة؛ شرف حماية الثغور والدفاع عنها؛ وحماية المسلمين من غدر الروم وعدوانهم؛ فإن تلك النهاية المحزنة التي انتهوا إليها؛ واستنصارهم بالروم ثم استنصار الروم بهم؛ قد أفسح المجال الرحب لتبديل السياسة الاستراتيجية للحروب؛ ولتغيير مفاهيم الصراع. الأمر الذي ساعد الروم على توسيع مجال مناوراتهم السياسية بين مراكز القوى الاسلامية؛ واستثمار التناقضات بين هذه المراكز لزيادة نفوذها على حساب المسلمين. ولقد اظهرت مسيرة الصراع على الثغور هذه الحقيقة بشكلها الواضح. **ففي سنة ٤٢٥ هـ = ١٠٣٤ م؛ كانت هناك قلعة متاخمة للأرمن تعرف باسم (قلعة بركوي). وكانت هذه القلعة تحت حكم (أبي الهيجاء - ابن ربيب الدولة ابن أخت وهودان بن مملان) فتنافر هو وخاله؛ فأرسل خاله الى الروم فأطمعهم فيها؛ فسير ملك الروم إليها جمعاً كثيراً فملكوها. فبلغ الخبر الى الخليفة. فأرسل الى أبي الهيجاء وخاله من يصلح بينهما ليتفقا على استعادة القلعة؛ فاصطلحا؛ ولم يتمكنا من استعادتها؛ واجتمع اليهما خلق كثير من المتطوعة فلم يقدروا على ذلك لثبات قدم الروم.**

وفي السنة التالية: ٤٢٦ هـ = ١٠٣٥ م. كان (نصر الدولة بن مروان) هو الذي يحكم الجزيرة (ديار ربيعة) فثار عليه (ابن وثاب النميري). وجمع جمعاً كثيراً من العرب وغيرهم، واستنجد بالروم الذين كانوا يقيمون (بالرها) فسار معه منهم جيش كثيف؛ وقصد بلد (نصر الدولة بن مروان) ونهب وأخرب. فجمع ابن مروان جموعه وعساكره؛ واستمد (قرواشاً بن المقلد العقيلي) الذي كان يحكم الموصل؛ وأتته الجنود من كل ناحية؛ فلما رأى ابن وثاب ذلك؛ وانه لا يتم له غرض عاد عن بلاده. وأرسل (ابن مروان) إلى ملك الروم يعاتبه على نقض الهدنة وفسخ الصلح الذي كان بينهما؛

وراسل أصحاب لأطراف يستنجدهم للغزاة؛ فكثر جمعه من الجند والمتطوعة؛ وعزم على قصد (الرها) (*) ومحاصرتها؛ فوردت رسل ملك الروم؛ يعتذر ويحلف أنه لم يعلم بما كان؛ وأرسل الى عسكره الذين بالرها؛ والمقدم عليهم؛ واستنكر ما قاموا به؛ واهدى الى نصر الدولة هدية سنية؛ فترك ما كان عازماً عليه من الغزو وفرق العساكر المجتمعة عنده؛ وأفاد الروم من الهدنة المعقودة بينهم وبين حكام الثغور الجزرية؛ للقيام بالهجوم على الثغور الشامية؛ وذلك على أمل الاستيلاء على مغنم جديد كمثل ما فعلوه عند استيلائهم على قلعة (أفامية) (**) ولهذا سار جيش من الروم إلى ولاية حلب. فخرج اليهم (شبل الدولة بن صالح بن مرداس) [1] فتصافوا واقتتلوا فانهزمت الروم وتبعهم الى عزاز؛ وغنم غنائم كثيرة؛ وعاد سالماً.

(*) كانت (الرها) دائماً تحت حكم المسلمين؛ وتوفي حاكمها (عطير ـ وهو رجل من بني نمير) سنة ٤١٦ هـ = ١٠٢٥م) فملكها نصر الدولة بن مروان. فتوسط حاكم حلب ـ صالح بن مرداس ـ لدى نصر الدولة ليعيد الرها الى ورثة عطير وهما: ابن عطير وابن شبل ـ وأن يقسمها بينهما الى نصفين؛ فقبل نصر الدولة الوساطة؛ وسلمها اليهما. وكان في الرها برجان حصينان أحدهما أكبر من الآخر، فتسلم ابن عطير الكبير؛ وابن شبل الصغير، وبقيت المدينة معهما الى سنة ٤٢٢ هـ = ١٠٣٠ م. فراسل ابن عطير ملك الروم ـ أرمانوس ـ وباعه حصته من الرها بعشرين الف دينار وعدة قرى من جلتها قرية حلت اسم (سن ابن عطير) وتسلموا البرج الذي له. ودخلوا البلد فملكوه، وهرب منه أصحاب ابن شبل. وقتل الروم المسلمين؛ وخربوا المساجد، وسمع نصر الدولة الخبر؛ فسير جيشاً الى الرها؛ فحصروها وفتحوها عنوة. واعتصم من بها من الروم بالبرجين؛ واحتمى النصارى بالبيعة التي لهم ـ الكنيسة ـ وهي من أكبر البيع وأحسنها عمارة؛ فحصرهم المسلمون بها؛ وأخرجوهم وقتلوا اكثرهم؛ ونهبوا البلد؛ وبقي الروم بالبرجين. فسير ملك الروم جيشاً من عشرة آلاف مقاتل؛ فانهزم اصحاب ابن مروان، ودخل الروم البلد وما جاورها من بلاد المسلمين. وصالحهم ابن وثاب النميري على حران وسروج؛ وحمل إليهم خراجاً.

(**) استولى الروم على (أفامية) سنة ٤٢٢ هـ = ١٠٣١م. وكان السبب في ذلك هو قيام خليفة مصر الفاطمي ـ الظاهر ـ بتسيير جيش الى الشام بقيادة وزيره ـ الازبري ـ والذي تمكن من احتلال افامية، مما حمل حاكمها ـ حسان بن المفرج الطائي على الهرب الى الروم، حيث استقبله ملك الروم؛ ولبس خلعة ملكهم؛ وخرج من عنده وعلى رأسه علم فيه صليب؛ ومعه عسكر كثير، فسار الى ـ أفامية ـ وباغتها، وغنم ما فيها وسبى اهلها وأسرهم.

(١) أصبحت حلب بعد الحمدانيين تحت حكم بني عقيل ثم بني مرداس ـ أو بني صالح ـ نسبة الى

على كل حال؛ وكما كانت اتفاقات الهدنة بين الروم والمسلمين؛ ذات صفة مؤقتة ومحكومة بمصلحة الروم وظروفهم؛ فكذلك كانت أيضاً بالنسبة للمسلمين. وهذا ما ظهر في سنة ٤٢٧ هـ = ١٠٣٦ م. عندما عاد (ابن وثاب وابن عطير) للصلح: والمصاهرة، وجمعا قواتهما؛ وأمدهما (نصر الدولة بن مروان) بجند كثيف. فساروا جميعهم الى ـ السويداء ـ وكان الروم قد أحدثوا عمارتها في ذلك الوقت؛ واجتمع إليها أهل القرى المجاورة، فحصرها المسلمون وفتحوها عنوة؛ وقتلوا فيها ثلاثة آلاف وخمسمائة رجل، وغنموا ما فيها وسبوا خلقاً كثيراً؛ وقصدوا ـ الرها ـ فحصروها وقطعوا الميرة عنها؛ واشتد الأمر؛ فخرج حاكمها البطريق متخفياً؛ ولحق بملك الروم وعرفه الخبر، فسير معه خمسة آلاف فارس، فعاد بهم؛ وتوافرت المعلومات ـ لابن وثاب ومقدم عساكر نصر الدولة ـ عن تحرك قوة الروم؛ فنصبا كميناً؛ فلما قاربوهم خرج الكمين عليهم، فقتل من الروم خلق كثير وأسر مثلهم وأسر البطريق؛ وحمل الى باب الرها وقيل لحاميتها: «إما أن تفتحوا البلد لنا؛ وإما قتلنا البطريق والأسرى الذين معـه». ففتحوا البلد لعجزهم عن حفظه والدفاع عنه؛ وتحصن جند الروم بالقلعة. ودخل المسلمون المدينة؛ وغنموا ما فيها؛ وامتلأت ايديهم من الغنائم والسبي. وأقام ـ ابن وثاب ـ محاصراً للقلعة؛ ثم إن (حسان بن الجراح الطائي ـ الذي كان متحالفاً مع الروم؛ سار في خمسة آلاف فارس من العرب والروم نجدة لحامية قلعة الرها؛ فسمع ابن وثاب بقربه، فسار إليه بسرعة ليلقاه قبل وصوله؛ فخرج الروم من قلعة الرها الى حران، فقاتلهم أهلها؛ وعندما علم (ابن وثاب) بذلك عاد مسرعاً؛ وقاتل الروم؛ فقتل منهم جمعاً كبيراً. وعاد المنهزمون الى الرها. واستمر الصراع حتى سنة ٤٢٩ هـ = ١٠٣٧ م. حيث عقد (صالح بن وثاب) صلحاً مع حاكم الروم في ـ حران ـ وتم بموجبه تسليم ربض الرها للروم. فعمر الروم ـ الرها ـ العمارة الحسنة

= مؤسس دولتهم (صالح بن مرداس) وهو من بني كلاب بن ربيعة بن عامر بن صعصعة كان ملكاً للرحبة بضواحي حلب. وتعتبر فترة حكم صالح بن مرداس لحلب (٣٩٩ ـ ٤١٩ هـ = ١٠٠٨ ـ ١٠٢٨ م) هي الفترة الرئيسية لحكم بني مرداس، إذ لم تلبث دولته ان انهارت بعد قتله على أيدي الفاطميين، الذين وجهوا جيشاً تمكن من قتل صالح وابنه الأصغر. مما أغرى الروم على ارسال جيش في محاولة للاستيلاء على حلب (تاريخ ابن خلدون ٤ / ٥٨٠ ـ ٥٨٨).

وحصنوها. **وأقدم حاكم مصر، الخليفة العلوي المستنصر بالله؛ على مهادنة ملك الروم، وشرط عليه إطلاق سراح خمسة آلاف اسير مسلم. ومقابل ذلك شرط الروم عليه ان يعمروا بيعة قمامة - كنيسة - فأرسل ملك الروم إليها من عمرها وأخرج عليها مالاً جليلاً**. غير أن هذه المهادنة لم تستمر طويلاً؛ ففي سنة ٤٣٢ هـ = ١٠٤٠ م. تجددت الحرب، وجرى نقض الهدنة؛ وكان السبب في ذلك هو أن ملك الروم شرع في مراسلة حاكم حلب - صالح بن مرداس - في محاولة لاستمالته والتعاون معه ضد المستنصر - ونائبه في بلاد الشام الأزبري - وعلم الأزبري بذلك؛ فأرسل الى صالح يتهدده ويتوعده فاعتذر صالح للأزبري - ثم إن جمعاً من بني جعفر بن كلاب دخلوا ولاية - أفامية - فعاثوا فيها ونهبوا عدة قرى، فخرج عليهم جمع من الروم فقاتلوهم وأوقعوا بهم ونكثوا فيهم؛ وأزالوهم عن بلادهم. وبلغ ذلك حاكم حلب فأخرج من كان بها من تجار الفرنج؛ وأرسل الى المتولي بأنطاكية يأمره بإخراج من عنـده من تجار المسلمين؛ فأغلظ متولي انطاكية للرسول؛ وأراد قتله ثم تركه. فأرسل حاكم حلب الى (الأزبري) وأعلمه ان الروم يتجهزون لغزو بلاد المسلمين؛ فجهز الأزبري جيشه؛ وسار على مقدمته، فاتفق انهم لقوا جيشاً للروم؛ وقد خرج لمثل ما خرج إليه هؤلاء. والتقى الفريقان بين مدينتي حماة وأفامية؛ واشتد القتال بينهم، ثم إن الله نصر المسلمين وأذل الكافرين، فانهزموا وقتل منهم عدة كثيرة، وأسر ابن عم للملك.

عرفت الثغور بعدها هدنة حتى سنة ٤٣٩ هـ = ١٠٤٧م حيث تجددت الهدنة بين صاحب مصر وبين ملك الروم. وحمل كل واحد منهما لصاحبه هدية عظيمة.

وفي هذه السنة ذاتها؛ ظهر رجل اسمه - الأصغر التغلبي - في مدينة - رأس عين - وجمع جمعاً وغزا نواحي الروم؛ وأوغل وغنم وظهر حديثه وقوي أمره. وعـاود الغـزو بعدد أكبر من المرة الأولى، فظفر وغنم أضعاف ما غنمه من قبل؛ وتسامع الناس به فقصدوه، وكثر جمعه؛ وثقلت على الروم وطأته. فأرسل ملك الروم الى - نصر الدولة ابن مروان - وقال له: انك تعرف بما بيننا من الموادعة، وقد فعل هذا الرجل هذه الافاعيل؛ فإن كنت قد رجعت عن المهادنة فعرفنا لندبر أمرنا بحسبه. واتفق في ذلك

الوقت ان وصل رسول من ـ الأصغر ـ الى نصر الدولة أيضاً ؛ ينكر عليه ترك الغزو ؛ والميل الى الدعة ؛ فساءه ذلك أيضاً ؛ واستدعى قوماً من بني نمير ، وقال لهم : « إن هذا الرجل قد أثار الروم علينا ؛ ولا قدرة لنا عليهم » . وبذل لهم مالاً للفتك به ، فسارزوا اليه ؛ فقربهم ؛ ولازموه ؛ فركب يوماً غير متحرز ، فأبعد وهم معه ، فعطفوا عليه وأخذوه وحملوه الى نصر الدولة بن مروان ؛ فاعتقله . وتلافى أمر الروم .

ب ـ السلاجقة وجهاد الروم

خضعت تركستان لحكم اسرة السامانيين ـ الفارسية ـ في القرن العاشر الميلادي . وأهم ما قامت به هذه الأسرة في التاريخ هو أنها حملت الترك بوسط أسيا على اعتناق الاسلام . وتوجهت أنظار الترك منذ هذا التاريخ نحو الجنوب الغربي من آسيا وشرقي البحر الأبيض المتوسط . ثم برز أول أمير تركي مسلم ـ محمود الغزنوي ـ فطرد السامانيين واحتل مكانهم . ولم يلبث ان أقام امبراطورية ضخمة ، امتدت من اصفهان الى بخارى ولاهور . وانطلقت مجموعات من الاتراك المسلمين في ارتياد اقاليم العالم الاسلامي ؛ فنظم الخليفة العباسي ببغداد فرقاً من الترك ؛ وفعل مثله عدد من امراء المسلمين في الاقاليم . **غير أن أكبر تجمع لهؤلاء الترك هو تجمع عشيرة الترك الغز ـ الذين كانوا من رعايا الغزنويين ـ في براري الآرال ـ وعرفوا باسم ـ السلاجقة ـ .** وقد ألف امراء السلاجقة اتحاداً جمع شملهم : ووحد قدرتهم ، وأفادوا من دعم جموع التركمان الكثيرة العدد لتوسيع سلطاتهم ؛ فلما كانت سنة ٤٢١ هـ = ١٠٣٠ م مات محمود الغزنوي . فخرج السلاجقة على سلطة الغزنويين ، وفي سنة ٤٣٢ هـ = ١٠٤٠ م طردوهم الى حيث اتخذوا لهم مستقراً في أملاكهم بالهند . ودخل (طغرل بك) زعيم السلاجقة ـ مدينة اصفهان سنة ٤٤٢ هـ = ١٠٥٠ م . وجعل منها عاصمة له ؛ وشملت دولته بلاد فارس وخراسان . بينما استقر اخوته وابناء عمومته في الجهات التي تتاخم املاكه في الشمال . وأضحى للسلاجقة القدرة والحرية للاغارة على البلاد المجاورة . وفي سنة ٤٤٧ هـ = ١٠٥٥ م ، وبناء على دعوة الخليفة العباسي الذي أزعجه ما دبره ضده من مؤامرات ؛ وزيره التركي البساسيري بالاشتراك مع حكام مصر الفاطميين ـ . دخل طغرل الى بغداد ؛ على أنه حامي المذهب السني ـ واتخذ لقب ملك المشرق والمغرب .

لقد ارتبط تاريخ الاتراك السلاجقة بالصراع على الجبهة الداخلية لتوحيد جهود المسلمين السنة ضد المذاهب المختلفة ـ وخاصة ضد الشيعة الفاطميين ـ وعلى الجبهة الخارجية بالجهاد في سبيل الله ـ ضد الروم خاصة ـ ففي سنة ٤٤٦ هـ = ١٠٥٤م. سار طغرل بك الى أذربيجان وقصد تبريز، حيث أعلن حاكمها الخضوع وحمل إليه ما أرضاه؛ وأعطاه ولده رهينة. وفعل مثل ذلك في عدد من الأقاليم؛ ثم سار الى ارمينية، وقصد (ملازكرد) التي كانت تحت حكم الروم؛ فحصرها وضيق عليها. ونهب ما جاورها من البلاد وأخربها، فأرسل اليه صاحب دياربكر ـ نصر الدولة بن مروان ـ الهدايا الكثيرة والعساكر؛ وكان قد خطب له قبل هذا الوقت وأطاعه ـ وأنجز طغرل بك في غزو الروم انجازات عظيمة، ونال منهم من النهب والقتال والقتل والأسر شيئاً كثيراً؛ وبلغ في غزوته هذه الى ـ أرزن ـ ثم عاد الى أذربيجان مع هجوم فصل الشتاء؛ ولم يتمكن من فتح (ملازكرد) التي كانت مدينة قوية التحصين. وأعلن أنه سيقيم الى ان ينقضي فصل الشتاء؛ ثم يعود ليتم غزاته. وتوجه الى الري. فلما كانت السنة التالية؛ دخل طغرل بك بغداد ـ في موكب عظيم؛ ومنحه الخليفة لقب (السلطان) وصار يخطب له ـ بعد الدعاء للخليفة على المنابر ـ.

انصرف طغرل بك لإعادة تنظيم الدولة؛ بعد أن منحه الخليفة العباسي (القائم بأمر الله) (*) السلطة المطلقة، وكان عليه القضاء على خصوم الدولة العباسية وعلى مراكز

(*) في الكامل في التاريخ ـ احداث سنة ٤٤٩ ـ نص استقبال الخليفة للسلطان طغرل بك ـ وتكليفه كما يلي: «جلس الخليفة جلوساً عاماً؛ وحضر وجوه عسكر السلطان طغرل بك وأعيان بغداد؛ وحضر السلطان في الماء؛ وأصحابه حوله في السميريات ـ الزوارق ـ فلما خرج من السميرية ـ أركب فرساً من مراكب الخليفة؛ فحضر عند الخليفة؛ والخليفة على سرير عال من الأرض نحو سبعة أذرع؛ وعليه بردة النبي ﷺ وبيده القضيب الخيزران؛ فقبل السلطان الأرض، وقبل يده؛ وأجلس على كرسي، فقال الخليفة لرئيس الرؤساء؛ قل له: «ان أمير المؤمنين شاكر لسعيك؛ حامد لفعلك؛ مستأنس بقربك. وقد ولاك جميع ما ولاه الله من بلاده؛ ورد عليك مراعاة عباده؛ فاتق الله فيما ولاك واعرف نعمته عليك في ذلك؛ واجتهد في نشر العدل وكف الظلم واصلاح الرعية». فقبل طغرل بك الأرض، وأمر الخليفة بإفاضة الخلع عليه؛ فقام إلى موضع لبسها فيه، وعاد وقبل يد الخليفة ووضعها على عينيه. وخاطبه الخليفة بملك المشرق والمغرب. وأعطى العهد؛ وخرج؛ وأرسل إلى الخليفة خدمة كثيرة منها خمسين ألف دينار؛ وخمسين مملوكاً أتراكاً من أجود ما يكون ومعهم خيولهم وسلاحهم إلى غير ذلك من الثياب وسواها.

القوى المختلفة التي أضعفت من قدرة الدولة. وكان له في أخيه (جغري بك داود بن ميكائيل بن سلجوق) (*) عـوناً كبيراً، ولكن وفاة أخيه لم تفقده هذا العون؛ فقد جاء ابن أخيه (ألب ارسلان) ليعمل على دعم عمه (طغرل بك) ومساعدته ومشاركته في حمل اعباء الحكم والجهاد. لاسيما في القضاء على نفوذ الفاطميين في بغداد؛ والذي كان يتزعمه الوزير التركي ـ البساسيري ـ والذي كان قد خرج من بغداد عند دخول طغرل بك اليها، ثم توجه الى الانبار واستولى عليها، ثم استولى على الموصل؛ وقوي شأنه؛ وانضم إليه جمع كبير. ثم عاد إلى بغداد؛ مستفيداً من غياب (طغرل بك) وخطب بجامع المنصور للمستنصر بالله العلوي ـ صاحب مصر ـ وأمر فأذن (بحي على خير العمل) بدلاً من (حي علي الصلاة ـ حي على الفلاح) وهي العبارة التي كان يؤذن بها العلويون. واستفحل الخطب مما حمل الخليفة العباسي لمغادرة بغداد ـ الى ان عاد (طغرل بك) فأعاد الخليفة الى بغداد؛ وحارب البساسيري وانتصر عليه وقتله (سنة ٤٥٠ هـ = ١٠٥٨ م).

يظهر أن الناس قد قبلوا بالحكم الفاطمي ـ في بلاد الشام ـ على كره منهم؛ ولهذا فما إن ظهر التحرك المضاد بقيادة السلاجقة، حتى بدأت حركة انتفاضة عامة ضد تسلط المتشيعين. وكانت حلب والرحبة أول من اعلن تمرده على الفاطميين (سنة ٤٥٣ هـ) وكان حاكم ديار بكر (نصر الدولة بن مروان الكردي) (**) هو أول من أعلن

(*) جغري بك داود بن ميكائيل بن سلجوق: ٣٨٢ ـ ٤٥٢ هـ = ٩٩٢ ـ ١٠٦٠ م. كان حاكم خراسان، وكان خيراً عادلاً حسن السيرة؛ معترفاً بنعمة الله تعالى عليه. كتب الى أخيه طغرل بك: «بلغني إخرابك البلاد التي فتحتها وملكتها؛ وجلا أهلها عنها؛ وهذا ما لا خفاء به مخالفة أمر الله تعالى في عباده وبلاده: وأنت تعلم ما فيه من سوء السمعة وايحاش الرعية. وقد لقينا أعداءنا في قلة فغلبناهم... واستولينا على ممالك خراسان وطبرستان وسجستان. وصرنا ملوكاً متبوعين بعد أن كنا أصاغر تابعين. وما تقتضي نعم الله علينا أن نقابلها هذه المقابلة» فرد عليه طغرل بك: «يا أخي، أنت ملكت خراسان وهي بلاد عامرة فخربتها؛ ووجب عليك مع استقرار قدمك فيها عمارتها. وأنا وردت بلاداً أخربها من تقدمني. واجتاحها من كان قبلي: فما أتمكن من عمارتها والاعداء محيطة بها» ابن الأثير ـ احداث سنة ٤٥١ هـ.

(**) نصر الدولة بن مروان الكردي (٣٧١ ـ ٤٥٣ هـ = ٩٨١ ـ ١٠٦١م) صاحب ديار بكر؛ ولقبه القادر بالله. حكم بلاده بحزم. وعمر الثغور، وتنعم تنعماً لم يسمع بمثله عن أحد. وهو من أشهر

تعاونه مع (طغرل بك). ولم تغير وفاته شيئاً من العلاقة بالسلاجقة؛ فقد خلفه ابنه - نصر الدولة - في ميافارقين بينما تولى الابن الآخر - سعيد - حكم آمد. واستمر في التعاون مع السلاجقة.

لم تكن غزوات (طغرل بك) للروم كثيرة، غير ان هذه الغزوات تميزت بقوة كبيرة حملت الهلع الى قلوب الروم؛ وكان (طغـرل) قد أسر بعض ملوك الروم؛ ودفع شقيق الملك فداء لاطلاق سراحه ما مقداره اربعمائة ألف دينار؛ فلم يقبل منه. مما حمل ملك الروم على الكتابة الى (نصر الدولة بن مروان الكردي) للوساطة بينه وبين (طغـرل بك) لاطلاق سراح شقيقه. فأرسل نصر الدولة رسالة ملك الروم مع التماس الاجابة عليها الى طغرل بك، واستجاب طغرل بك فأطلق سراح شقيق الملك بدون فداء؛ وحمله ما لم يحمل في الزمان المتقدم؛ وهو ألف ثوب ديباج وخمسمائة ثوب أصناف وخمسمائة رأس من الكراع الى غير ذلك؛ كما أرسل مائتي ألف دينار ومائة لبنة فضة وثلاثمائة حمار مصرية وألف عنز بيض الشعور سود العيون والقرون. كما أرسل إلى ابن مروان هدية شملت عشرة أمناء مسكاً، مما حمل ملك الروم على بناء الجامع الذي بناه مسلمة بن عبد الملك الاموي بالقسطنطينية، ورفع منارته؛ وعلق فيه القناديل؛ وجعل في محرابه قوساً ونشابة وأشاع المهادنة بينه وبين المسلمين. وهكذا توفي (طغرل بك) (*) وقد ترك دولة مهيبة الجانب؛ قوية الأركان، ثابتة البنيان.

صار باستطاعة خليفة طغرل بك في حكم الأتراك السلاجقة (ألب أرسلان) أن ينصرف لقتال الروم، وهكذا سار في سنة ٤٥٦ هـ = ١٠٦٤ م - من الري الى أذربيجان، فلما كان بمرند، انضم إليه أمير من أمراء التركمان ممن كانوا يكثرون غزو

= ملوك بني مروان. ودولته هي احدى الدويلات التي تفرعت عن دولة بني حمدان (وهي ثلاث دويلات: دويلة بني المقلد في الموصل؛ ودويلة بني صالح بن مرداس بحلب؛ ودولة بني مروان في ديار بكر). غير أن دويلة بني مروان هي دويلة كردية؛ وانتهى أمر هذه الدويلة باستيلاء الأتراك السلاجقة عليها.

(*) السلطان طغرل بك: (٣٨٥ - ٤٥٥ هـ = ٩٩٥ - ١٠٦٣م) كان عقيماً؛ ولم يلد ولداً؛ كان عاقلاً حليماً؛ من أشد الناس احتمالاً واكثرهم كتماناً لسره. كان يحافظ على الصلوات ويصوم الاثنين والخميس؛ وكان لبسه الثياب البياض، وكان قاسياً، وكريماً؛ وقد حكم بحضرة الخلافة العباسية سبع سنين وأحد عشر شهراً. ولقد خلفه ابن اخيه (ألب ارسلان) وبويع لأخيه سليمان من بعده.

الروم ـ واسمه طغدكين ـ ومعه عشيرته كثيرة العدد وجميعهم قد ألفوا الجهاد في سبيل الله في تلك البلاد وعرفوا مسالكها؛ وتعهد بقيادة الحملة، فسار بها عبر المضائق والمسالك الصعبة؛ فوصل الى نقجوان؛ وأمر بعمل السفن لعبور نهر أرس؛ وهناك انضم إليه منَ الملوك والعساكر ما لا يحصى ممن قدموا من خوى وسلماس وأذربيجان. فلمّا فرغ من حشد العساكر والسفن سار إلى بلاد الكرج ـ أرمينيا ـ وجعل ألب أرسلان مكانه ابنه ـ ملك شاه ـ ووزيره ـ نظام الملك ـ وسار ملك شاه ونظام الملك الى قلعة فيها جمع كثير من الروم؛ فنزل أهلها، وقاتلوا جند المسلمين؛ وقتلوا منهم فئة كثيرة؛ فنزل ملك شاه ونظام الملك؛ وقاتلوا من بالقلعة، وزحفوا إليهم؛ فقتل أمير القلعة، وملكها المسلمون؛ وأنزلوا منها أهلها. وساروا منها الى قلعة ـ سرماري ـ وهي قلعة فيها المياه الجارية والبساتين؛ فقاتلوها وملكوها وأنزلوا منها أهلها. وكان بالقرب منها قلعة أخرى، ففتحها ملك شاه وأراد تخريبها، فنهاه نظام الملك عن ذلك؛ وقال له: «إنها ثغر للمسلمين» وشحنها بالرجال والذخائر والأموال والسلاح؛ وسلّم هذه القلاع الى أمير نقجوان ـ. وسار ملك شاه ونظام الملك الى مدينة ـ مريم نشين ـ وفيها كثير من الرهبان والقسيسين وملوك النصارى؛ وعامتهم يتقرّبون إلى أهل هذه البلدة؛ وهي مدينة حصينة سورها من الأحجار الكبار الصلبة والمشدودة بالرصاص والحديد وعندها نهر كبير. فأعد ـ نظام الملك ـ لقتالها ما يحتاج إليه من السفن وغيرها؛ وقاتلها؛ وواصل قتالها ليلاً ونهاراً؛ وجعل العساكر عليها يقاتلون بالنوبة؛ فضجر الكفّار وأخذهم الإعياء والكلال؛ فوصل المسلمون الى سورها؛ ونصبوا عليها السلالم؛ وصعدوا إلى أعلاه؛ لأن المعاول كلت عن نقبه لقوة حجره؛ فلما رأى أهلها المسلمين على السور؛ فت ذلك في أعضادهم وسقط في أيديهم، ودخل ملك شاه ومعه نظام الملك البلد؛ وأحرقوا البيع ـ الكنائس ـ وخربوها؛ وقتلوا كثيراً من أهلها؛ وأسلم كثير فنجوا من القتل؛ واستدعى ـ ألب أرسلان ـ إليه ابنه ونظام الملك؛ وفرح بما يسره الله من الفتح على يد ولده؛ وفتح لملك شاه في طريقه عدة من القلاع والحصون، وأسر من النصارى ما لا يحصون كثرة، وساروا الى ـ سبيذشهر ـ فجرى بين أهلها وبين المسلمين حروب شديدة استشهد فيها كثير من المسلمين؛ ثم إن الله تعالى يسّر

فتحها؛ فملكها ـ ألب أرسلان ـ وسار منها الى مدينة ـ أعال لال ـ وهي حصينة عالية الأسوار؛ شاهقة البنيان، وهي من جهة الشرق والغرب على جبل عال؛ وعلى الجبل عدة من الحصون؛ ومن الجانبين الآخرين نهر كبير لا يخاض، فلما رآها المسلمون علموا عجزهم عن فتحها والاستيلاء عليها. وكان ملكها من الكرج. فعقد السلطان ـ ألب أرسلان ـ جسراً على النهر عريضاً؛ واشتد القتال؛ وعظم الخطب؛ فخرج من المدينة رجلان يستغيثان ويطلبان الأمان؛ والتمسا من السلطان أن يرسل معهما طائفة من الجند، فسيّر معهما جمعاً صالحاً؛ فلما جازوا الفصيل، أحاط بهم الكرج من أهل المدينة؛ وقاتلوهم؛ فأكثروا القتل فيهم؛ ولم يتمكن المسلمون من هزيمتهم لضيق المسلك؛ وخرج الكرج من البلد وقصدوا عسكر المسلمين؛ واشتد القتال، وكان السلطان ـ ألب أرسلان ـ ذلك الوقت يصلي؛ فأتاه الصريخ؛ فلم يبرح حتى فرغ من صلاته وركب وتقدّم إلى الكفار فقاتلهم؛ وكبر المسلمون عليهم فولوا منهزمين ودخلوا البلد والمسلمون معهم. ودخلها السلطان ألب أرسلان وملكها؛ واعتصم جماعة من أهلها في برج من أبراج المدينة، فقاتلهم المسلمون؛ فأمر السلطان بإلقاء الحطب حول البرج وإحراقه، فتم ذلك وأحرق البرج ومن فيه. وعاد السلطان الى خيامه، وغنم المسلمون من المدينة ما لا يعد ولا يحصى. ولما جنّ الليل عصفت ريح شديدة؛ وكان قد بقي من تلك النار التي أحرق بها البرج بقية كثيرة؛ فأطارتها الريح؛ فاحترقت المدينة بأسرها. وملك السلطان قلعة حصينة كانت الى جانب تلك المدينة وأخذها وسار منها إلى ناحية ـ فرس ـ ومدينة ـ آني ـ وبالقرب منها ناحيتان يقال لهما ـ دسل ورده ـ و ـ نورة ـ فخرج أهلهما مذعنين للمسلمين؛ وخربوا البيع ـ الكنائس ـ وبنوا المساجد. وسار منها إلى مدينة ـ آني ـ فوصل إليها؛ فرآها مدينة حصينة شديدة الامتناع لا ترام؛ ثلاثة أرباعها على نهر أرس والربع الآخر على نهر عميق، شديد التيار، حتى انه لو طرحت فيه الحجارة الكبار لدحاها وحملها. ويمر الطريق إليها على خندق عليه سور من الحجارة الصم. وهي بلدة كبيرة عامرة؛ كثيرة الأهل، فيها ما يزيد على خمسمائة بيعة ـ كنيسة ـ فحصرها السلطان ألب أرسلان؛ وضيق عليها؛ إلاّ أن المسلمين قد أيسوا من فتحها؛ لما رأوا من حصانتها. فعمل السلطان برجاً من خشب، وشحنه بالمقاتلة؛

ونصب عليه المنجنيق ورماة النشاب، فكشفوا الروم عن السور. وتقدّم المسلمون إليه لينقبوه. فأتاهم من لطف الله ما لم يكن في حسابهم؛ فانهدمت قطعة كبيرة من السور بغير سبب؛ فدخلوا المدينة وقتلوا من أهلها ما لا يحصى، بحيث ان كثيراً من المسلمين عجزوا عن دخول البلد من كثرة القتلى. وأسروا نحواً مما قتلوا. وسارت البشرى بهذه الفتوح في البلاد؛ فسرّ المسلمون؛ وقرىء كتاب الفتح ببغداد في دار الخلافة. فبرز خط الخليفة بالثناء على - ألب أرسلان - والدعاء له. وقام - ألب أرسلان - بتنظيم أمور الاقاليم التي فتحها الله عليه؛ وعين لها قائداً - أميراً - وترك له جيشاً كبيراً؛ وعاد عنها. وراسله ملك الكرج في الهدنة؛ فصالحه على أداء الجزية كل سنة؛ فقبل منه ذلك. وانصرف - ألب أرسلان - الى أصفهان - أو أصبهان - ثم الى كرمان فأعاد تنظيم مملكته؛ وانتقل إلى الري ومرو وسواها؛ ووطد علاقاته بالغزنويين والأتراك في بلاد ما وراء النهر - افغانستان حالياً -.

ج - ملازكرد

لم تكن هذه هي المرة الأولى التي اصطدم فيها الروم بقوة جديدة من قوى المسلمين؛ ولهذا لم يكن غريباً عليهم أن يجرّبوا سبر - أو اختبار - القدرة القتالية للسلاجقة، فأقبل ملك القسطنطينية (سنة ٤٦٢ هـ = ١٠٦٩ م) وهو يجر جيشاً كثيفاً؛ وقصد بلاد الشام؛ ونزل على مدينة - منبج - القريبة من حلب؛ ونهبها وقتل أهلها وهزم محمود بن صالح بن مرداس وبني كلاب وابن حسان الطائي ومن معهما من جموع العرب؛ وعاد إلى بلاده سالماً غانماً.

عرف حاكم حلب (محمود بن صالح بن مرداس) انه بحاجة لدعم قوة السلاجقة؛ وأن هذه القوة الجديدة هي اكثر قدرة من قوة الفاطميين الآخذة في التداعي؛ فجمع كبار أهل حلب وقال لهم. «هذه دولة جديدة، ومملكة شديدة، ونحن تحت الخوف منهم؛ وهم يستحلون دماءكم لأجل مذاهبكم. والرأي ان نقيم الخطبة لأمير المؤمنين القائم بأمر الله والسلطان ألب أرسلان، قبل ان يأتي وقت لا ينفعنا فيه قول ولا بذل». وأجابه المشايخ إلى ذلك. ولبس المؤذنون السواد؛ وخطبوا للقائم بأمر الله والسلطان؛ وأرسل أمير المؤمنين الى (محمود) الخلع؛ مع نقيب النقباء؛ فلبسها. وصح ما

توقعه حاكم حلب (محمود بن صالح بن مرداس) فقد تحرك في هذه الفترة (من سنة ٤٦٣ هـ = ١٠٧٠ م) السلطان ألب أرسلان؛ وتوجّه الى ـ دياربكر ـ فخرج إليه صاحبها ـ نصر بن مروان ـ وخدمه بمائة ألف دينار؛ كما حمل له إقامة؛ وعندما عرف السلطان أن نفقات هذه الإقامة قد قسطت على البلاد أمر بردها. ووصل إلى ـ آمد ـ فرآها ثغراً منيعاً؛ فتبرّك به وجعل يمر يده على السور ويمسح بها صدره. وسار الى الرها وانحدر منها إلى حلب؛ وكان نقيب النقباء ـ أبو الفوارس طراد بن محمد الزينبي ـ الذي سلم ـ محمود رسالة أمير المؤمنين القائم بأمر الله والخلع ـ موجوداً في حلب؛ فقال له محمود: «**أسألك الخروج الى السلطان؛ واستعفاءه لي من الحضور عنده**». فخرج نقيب النقباء؛ وأخبر السلطان ألب أرسلان بأن حاكم حلب قد لبس الخلع القائمية وخطب لأمير المؤمنين. فقال له ألب أرسلان: «**أي شيء تساوي خطبتهم وهم يؤذنون ـ حي على خير العمل ـ. ولا بد من الحضور ودوس بساطي**». فامتنع محمود من ذلك؛ واشتد الحصار على البلد؛ وغلت الأسعار؛ وعظم القتال، وزحف السلطان يوماً وقرب من البلد فوقع حجر منجنيق على فرسه، فلمّا عظم الأمر على محمود: خرج ليلاً ومعه والدته ـ منيعة بنت وثاب النميري ـ فدخلا على السلطان؛ وقالت له: «هذا ولدي، فافعل به ما تحب». فتلقاهما بالجميل؛ وخلع على محمود؛ واعاده إلى بلده: فأنفذ إلى السلطان مالاً جزيلاً. وعاد ألب أرسلان عن حلب. وعندما وصل الى ـ خوى ـ من أذربيجان؛ **علم ان ملك الروم ـ أرمانوس ـ قد خرج في مائتي ألف مقاتل** من الروم والفرنج والغرب والروس والبجناك والكرج وغيرهم من طوائف تلك البلاد.

وان هذا الجيش قد وصل **الى ـ ملازكرد؛ من أعمال خلاط ـ**. وكان ألب أرسلان قد فرق جيشه، فلم يتمكن من إعادة جمعها لبعدها وقرب العدو؛ فسير الأثقال مع زوجته ووزيره نظام الملك الى ـ همذان ـ **وسار هو فيمن عنده من العساكر وهم خمسة عشر ألف فارس؛** وجدّ في السير؛ وقال لهم: «**إني أقاتل محتسباً صابراً؛ فإن سلمت فنعمة من الله تعالى؛ وإن كانت الشهادة فإن ابني ـ ملك شاه ـ ولي عهدي**». وساروا؛ فلما قارب العدو، جعل له مقدمة، فصادفت

مقدمته عند خلاط مقدم الروسية في نحو عشرة آلاف من الروم؛ فاقتتلوا؛ فانهزمت الروسية؛ وأسر مقدمهم وحمل إلى السلطان؛ فجدع أنفه؛ وأرسل الغنائم الى وزيره نظام الملك؛ وأمره أن يرسله إلى بغداد، فلما تقارب العسكران؛ أرسل السلطان ألب أرسلان إلى ملك الروم يطلب منه المهادنة؛ فأجابه ملك الروم؛ **«لا هدنة إلا بالري»**. فانزعج السلطان لذلك؛ فقال له إمامه وفقيهه - أبو نصر محمد بن عبدالملك البخاري الحنفي -: **«إنك تقاتل عن دين وعدالله بنصره وإظهاره على سائر الأديان؛ وأرجو ان يكون الله تعالى قد كتب باسمك هذا الفتح، فالقهم يوم الجمعة؛ بعد الزوال؛ في الساعة التي تكون الخطباء فيها على المنابر؛ فإنهم يدعون للمجاهدين بالنصر؛ والدعاء مقرون بالإجابة»**. فلما كانت تلك الساعة، صلى بهم؛ وبكى السلطان فبكى الناس لبكائه؛ ودعا ودعوا معه؛ وقال لهم: **«من أراد الانصراف فلينصرف؛ فما ههنا سلطان يأمر وينهى»**. وألقى القوس والنشاب وأخذ السيف والدبوس؛ وعقد ذنب فرسه بيده؛ وفعل عسكره مثله؛ ولبس البياض وتحنط؛ وقال: «إن قتلت فهذا كفني». وزحف الى الروم، وزحفوا إليه، فلما قاربهم ترجل وعفر وجهه على التراب وبكى وأكثر الدعاء؛ ثم ركب وحمل وحملت العساكر معه. فحصل المسلمون في وسطهم؛ وحجز الغبار بينهم؛ فقتل المسلمون فيهم كيف شاءوا. وأنزل الله نصره عليهم، فانهزم الروم وقتل منهم ما لا يحصى حتى امتلأت الأرض بجثث القتلى، وأسر ملك الروم (*) وحمل الى السلطان ألب أرسلان؛ فضربه السلطان ثلاث مقارع بيده؛ وقال له؛ «ألم أرسل إليك في الهدنة؛ فأبيت؟» وأجابه ملك الروم: «دعني من التوبيخ؛ وافعل ما تريد». وسأله السلطان: «ما عزمت ان تفعل بي إن أنت أسرتني» وأجاب ملك الروم: «القبيح» وعاد السلطان فسأله: «فما

(*) ذكر ابن الأثير - الكامل في التاريخ - احداث سنة ٤٦٤ هـ - القصة الطريفة لأسر ملك الروم، بما يلي: «قام احد غلمان القائد - كوهرائين - بأسر ملك الروم، ولم يعرفه، وأراد قتله؛ فقال له خادم كان مع الملك: لا تقتله فإنه الملك؛ وكان القائد كوهرائين قد عرض هذا الغلام على الوزير - نظام الملك - فرده استحقاراً له؛ فأثنى عليه كوهرائين؛ فقال نظام الملك: عسى ان يأتينا بملك الروم أسيراً. فكان كذلك. فلما أسر الغلام الملك احضره عند كوهرائين، فقصد السلطان وأخبره بأسر الملك؛ فأمر باحضاره».

تظن أنني فاعل بك ؟ » . وأجاب ملك الروم : « إما أن تقتلني ؛ وإما ان تشهرني في بلاد الإسلام ؛ والأخرى بعيدة وهي العفو وقبول الأموال واصطناعي نائباً عنك » فقال له السلطان : « ما عزمت على غير هذا » . ففداه بألف ألف دينار وخمسمائة ألف دينار . وأن يرسل إليه عساكر الروم أي وقت طلبها ؛ وأن يطلق كل أسير مسلم في بلاد الروم .

واستقر الأمر على ذلك ، وأنزله في خيمة ؛ وأرسل إليه عشرة آلاف دينار يتجهّز بها ؛ فأطلق له جماعة من البطارقة ؛ وخلع عليه من الغد . فقال ملك الروم : « أين جهة السلطان » فدل عليها ؛ فقام وكشف رأسه ؛ وأومأ إلى الأرض بالخدمة ، وهادنه السلطان خمسين سنة . وسيره إلى بلاده ؛ وسير معه عسكراً أوصلوه إلى مأمنه ؛ وشيعه السلطان فرسخاً .

وأما الروم ، فلما بلغهم خبر الوقعة ؛ وثب ميخائيل على المملكة ، فملك البلاد ؛ فلما وصل الملك أرمانوس الى قلعة دوقية ؛ بلغه الخبر ، فلبس الصوف ؛ وأظهر الزهد ؛ وأرسل الى ميخائيل يعرفه ما تقرر مع السلطان ـ ألب أرسلان ـ وقال له : « إن شئت ان تفعل ما استقر ؛ وإن شئت أمسكت » . فأجابه ميخائيل بإيثار ما استقر ؛ وطلب وساطته ؛ وسؤال السلطان في ذلك . وجمع أرمانوس ما عنده من المال ؛ فكان مائتي ألف دينار ، فأرسله الى السلطان ألب أرسلان ؛ كما أرسل طبقاً ذهباً عليه جواهر بتسعين ألف دينار ، وحلف له أنه لا يقدر على غير ذلك . ثم إن أرمانوس استولى على أعمال الأرمن وبلادهم .

لم يعمر السلطان ألب أرسلان طويلاً بعد انتصاره هذا ؛ ففي السنة التالية (٤٦٥ هـ = ١٠٧٣ م) سار إلى بلاد ما وراء نهر جيحون ؛ وعقد جسراً على النهر ؛ وعبر عليه في نيف وعشرين يوماً وعسكره يزيد على مائتي ألف فارس ؛ فأتاه أصحابه بقائد متمرد في إحدى القلاع ؛ واسمه ـ يوسف الخوارزمي ـ وحمل الى قرب سرير السلطان ، مع غلامين ؛ فأمر أن تضرب له أربعة أوتاد وتشد أطرافه إليها ؛ فقال يوسف للسلطان : « يا مخنث ! مثلي يقتل هذه القتلة ؟ » فغضب السلطان ألب أرسلان ، وأخذ القوس والنشاب ؛ وقال للغلامين : خلياه . ورماه السلطان بسهم فأخطأه ـ ولم يكن

يخطىء سهمه - فوثب يوسف يريده والسلطان على سدة؛ فلما رأى يوسف وهو يسير نحوه؛ قام عن السدة ونزل عنها، فعثر فوقع على وجهه؛ فبرك عليه يوسف وضربه بسكين كانت معه في خاصرته، وأسرع إليه بعض الجند فقطعوه. وقال السلطان وهو يحتضر: «ما من وجه قصدته أو عدو أردته؛ إلا استعنت بالله عليه. ولما كان أمس، صعدت على تل؛ فارتجت الأرض تحتي من عظم الجيش وكثرة العسكر؛ فقلت في نفسي؛ أنا ملك الدنيا؛ وما يقدر أحد علي؛ فعجزني الله تعالى بأضعف خلقه. وأنا أستغفر الله تعالى وأستقيله من ذلك الخاطر» وتوفي - ألب أرسلان - (*) وقد اتسع ملكه؛ وخطب له بحلب ومكة والمدينة، وخلفه ابنه ملك شاه.

عرفت الثغور والعواصم حالة من الهدوء والاستقرار بعد معركة - ملازكرد - فقد هيمن الأتراك السلاجقة على أرمينية؛ وأوغلوا في تقدمهم في أقاليم الروم؛ وغاب كل ذكر لتلك الحملات العسكرية المنتظمة - الصوائف - أو غير المنتظمة، والتي أخذت شكل أعمال اجتياح واسع بقوات كثيفة. ولعل من أبرز الأحداث التي وقعت بعد ذلك؛ استيلاء السلاجقة على انطاكية (سنة ٤٧٧ هـ = ١٠٨٤ م) ففي هذه السنة كان (سليمان بن قتلمش) هو المتولي لحكم - قونية وأقصر وأعمالها - فسار الى انطاكية وملكها، وكانت بيد الروم من سنة ٣٥٨ هـ = ٩٦٨ م فلما كانت هذه السنة؛ سار عنها حاكمها - الفردوس الرومي - الى القسطنطينية؛ بعد أن أقام فيها حامية قوية. إلا أن سكان المدينة وحتى الجند، كانوا من الناقمين على - الفردوس الرومي - بسبب ظلمه وسوء إدارته؛ فأفادوا من غيابه واتصلوا بسليمان بن قتلمش، واستدعوه لاستلام

(*) محمد بن داود جغري بك بن ميكائيل بن سلجوق - ولقبه ألب أرسلان (٤٢٤ - ٤٦٥ هـ = ١٠٣٢ - ١٠٧٣ م) كان كريماً؛ عادلاً؛ عاقلاً؛ لا يسمع السعايات، اتسع ملكه جداً؛ ودان له العالم. وبحق قيل له ملك العالم. وكان رحيم القلب؛ رفيقاً بالفقراء؛ كثير الدعاء بدوام ما أنعم الله به عليه؛ ولم يكن في جميع بلاده جناية ولا مصادرة، قد قنع من الرعايا بالخراج الأصلي. وكان كثيراً ما يقرأ عليه تواريخ الملوك وآدابهم وأحكام الشريعة؛ ولما اشتهر بين الملوك حسن سيرته؛ مع محافظته على عهوده؛ أقبل عليه الملوك والأمراء؛ وأذعنوا له بالطاعة والموافقة بعد الامتناع، وساروا إليه من أقاصي ما وراء نهر سيحون وجيحون الى أقصى الشام. وكان شديد العناية بكف الجند عن أموال الرعية.

انطاكية؛ فركب البحر في ثلاثمائة فارس وكثير من المشاة ـ الرجالة ـ وخرج من البحر؛ وسار في جبال وعرة ومضايق شديدة؛ حتى وصل إليها للموعد. فنصب السلاليم بالاتفاق مع حامية المدينة؛ وصعد السور، واجتمع بالحامية، وأخذ البلد، غير أن نفراً من أهل البلد حاولوا المقاومة؛ فقاتلهم وهزمهم مرة بعد أخرى. وقتل كثير من رجال المقاومة ثم عفا عنهم؛ وتسلم القلعة المعروفة باسم ـ القسيان ـ وأخذ من الأموال ما يجاوز الاحصاء؛ وأحسن الى الرعية؛ وأشاع فيهم العدل؛ وأمرهم ببناء ما تم تخريبه؛ ومنع أصحابه من النزول في دورهم ومخالطتهم. ولما ملك سليمان انطاكية ـ أرسل الى السلطان ـ ملك شاه ـ يبشره بذلك؛ وينسب هذا الفتح إليه؛ لأنه من أهله؛ وممن يتولى طاعته. فأظهر ملك شاه البشارة به وهنأه الناس (*).

انصرف الأتراك السلاجقة لتوطيد سلطانهم، وخاضوا صراعاً مريراً ضد الفاطميين الذين تمكّنوا من بسط نفوذهم على مدينتي (القدس) و(دمشق) واللتين تمركز الصراع حولها. هذا فيما كان الغرب يعد العدة للقيام بالحرب الصليبية. وتسارعت الأحداث. وأقبلت جحافل الحملة الصليبية الأولى؛ فوصلت الى الشرق.. عن طريق القسطنطينية؛ واستولت على انطاكية ـ سنة ٤٩١ هـ = ١٠٩٧ م.

وبدأت الحروب الصليبية.

(*) كان مما قاله الشاعر الأبيوردي بهذه المناسبة:

لمعت كناصية الحصان الأشقر ... نار بمعتلج الكثيب الأعفر

وفتحت انطاكية الروم التي ... نشرت معاقلها على الاسكندر

وطئت مناكبها جيادك فانثنت ... تلقي أجنتها بنات الأصفر.



٤ ـ الحروب على جبهة الشرق

ا ـ سبكتكين ودولته.

ب ـ يمين الدولة محمود في أعظم غزواته.

جـ ـ بناء الجبهة الداخلية.

د ـ على نهج السلف.



١ ـ سبكتكين ودولته .

وصف المؤرخ ابن خلدون دولة بني سبكتكين بقوله : « هذه الدولة من فروع دولة بني سامان ـ السامانية أو السامانيون ـ وناشئة عنها . وبلغت من الاستطالة والعز المبالغ العظيمة . واستولت على ما كانت عليه دولة بني سامان في عدوتي نهر جيحون وما وراء النهر وخراسان وعراق العجم وبلاد الترك وزيادة بلاد الهند . وكان مبدأ أمرهم على غزنة » (*) لم تكن دولة ـ سبكتكين ـ إلا استطالة لدول وكيانات سبقتها ـ مثل بني الصفار ـ أو الصفاريون ـ وبني سامان ؛ ثم هي حلقة اتصال لما قام بعدها من كيانات مثل الغز والسلاجقة . غير أن دولة سبكتكين تميزت عما سبقها من الدول وعما تبعها بتوجيه الجهد الأكبر نحو الحروب الخارجية ؛ اعلاء لدين الله واعزازاً له ودفاعاً عنه . وتعود بداية ظهور هذه الدولة إلى سنة ٣٦٦ هـ = ٩٧٦ م حيث كان سبكتكين يومها صاحب جيش غزنة للسامانيين ؛ وتوفي أمير غزنة ـ أبو اسحاق الساماني ـ دون أن يترك من يخلفه ؛ فاجتمع قادة الجند ؛ ونظروا فيمن يلي أمرهم ويجمع كلمتهم . فاتفقوا على سبكتكين لما عرفوه من عقله ودينه ومروءته وعفته وصرامته . فقدموه عليهم ؛ وولوه أمرهم ؛ وحلفوا له ؛ وأطاعوه . فوليهم وأحسن السيرة فيهم ، وساس أمورهم سياسة حسنة ، وجعل نفسه كأحدهم في الحال والمال . ثم إنه جمع العساكر وسار نحو الهند مجاهداً ، وجرى بينه وبين الهنود حروب يشيب لها الوليد . وكشف بلادهم وشن الغارات وطمع فيها وخافه الهند ؛ ففتح من بلادهم حصوناً ومعاقل وقتل منهم ما لا يدخل تحت الاحصاء . واتفق له في بعض غزواته أن الهنود اجتمعوا في خلق كثير ؛ وطاولوه الأيام ؛ وماطلوه القتال ؛ فعدم الزاد عند المسلمين وعجزوا عن الامتيار ـ الحصول على الميرة ـ فشكوا إليه ما هم فيه ؛ فقال لهم : « إني استصحبت لنفسي شيئاً من السويق استظهاراً . وأنا أقسمه بينهم قسمة عادلة على السواء إلى أن يمن الله

(*) تاريخ ابن خلدون ٤ / ٧٧١ . طبعة دار الفكر ببروت

بالفرج ». فكان يعطي كل انسان منهم ملء قدح؛ ويأخذ لنفسه مثل أحدهم؛ فيجتزىء به يوماً وليلة؛ وهم مع ذلك يقاتلون الكفار؛ فرزقهم الله النصر عليهم والظفر بهم؛ فقتلوا منهم وأسروا خلقاً كثيراً. ثم ان سبكتكين عظم شأنه وارتفع قدره وحسن بين الناس ذكره؛ وتعلقت الأطماع بالاستعانة به؛ فأخذ في توسيع حدود دولته على حساب خصومه؛ واستولى على ـ قصدار، وبست ـ فلما فرغ من ذلك عاد وغزا الهند؛ فافتتح قلاعاً حصينة على شواهق الجبال وعاد سالماً ظافراً؛ ولما رأى ملك الهند جيبال[1] انتقاص بلاده من أطرافها؛ حشد جيوشه؛ وجمع قواته؛ واستكثر من الفيلة. وسار لقتال سبكتكين؛ وقد باض الشيطان برأسه وفرخ. فسار سبكتكين عن غزنة للقائه؛ ومعه جيشه وعدد كبير من المجاهدين المتطوعة؛ فالتقوا واقتتلوا أياماً كثيرة؛ وصبر الفريقان. وجاء الشتاء بصواعقه وأمطاره وبرده الشديد؛ حتى هلك الهنود؛ وعميت عليهم المذاهب؛ واستسلموا لشدة ما عاينوه. وأرسل ملك الهند إلى سبكتكين يطلب الصلح؛ وترددت الرسل؛ فأجابهم إليه بعد امتناع. وتم الاتفاق على مال يؤديه وبلاد يسلمها وخمسين فيلاً يحملها إليه. ورهن عند سبكتكين جماعة من أهله حتى يتم تسليم البلاد. وسير معه ـ سبكتكين ـ من يتسلمها. فلما ابتعد ـ جيبال ـ بجيشه؛ قبض على من معه من المسلمين؛ وجعلهم عنده عوضاً عن رهائنه. فلما علم سبكتكين بذلك؛ جمع جيشه وسار نحو الهند؛ فأخرب كل ما مر عليه من بلادهم، وقصد ـ لمغان؛ أو لامغان ـ وهي من أحسن قلاعهم؛ فافتتحها عنوة؛ وهدم بيوت الأصنام؛ وأقام فيها شعار الإسلام. وسار عنها يفتح البلاد ويقتل أهلها، فلما بلغ ما أراده عاد إلى غزنة. فلما علم بذلك الملك ـ جيبال ـ سقط في يده؛ وجمع جنده وسار في مائة ألف مقاتل، فلقيه سبكتكين؛ وأمر أصحابه أن يتناوبوا القتال مع الهنود؛ ففعلوا ذلك؛ فضجر الهنود من دوام القتال معهم؛ وحملوا حملة واحدة. فعند ذلك اشتد الأمر وعظم الخطب؛ وحمل أيضاً المسلمون جميعهم؛ واختلط بعضهم ببعض؛ فانهزم الهنود؛ وأخذهم السيف من كل جانب؛ وأسر منهم ما لا يعد؛ وغنم أموالهم وأثقالهم ودوابهم الكثيرة؛ وذل الهنود بعد هذه الوقعة؛ ولم يكن لهم بعدها راية؛ ورضوا بأن لا يطلبوا

---

(١) في ابن خلدون (جيال) وليس جيبال كما في ابن الأثير.

في أقاصي بلادهم. ولما قوي سبكتكين بعد هذه الوقعة، أطاعه الأفغانية والخلج. تابع سبكتكين جهاده على ثغور الهند - فيما كانت الدولة السامانية تعاني الضعف والمتاعب على جبهتها الداخلية، مما حمل أمير بخارى وسمرقند - الامير الرضا نوح بن منصور الساماني - إلى الاستعانة بمولاه وقائده - سبكتكين - ضد خصومه. وولاه سنة ٣٨٤ هـ = ٩٩٤ م ولاية خراسان فوجه سبكتكين ابنه محمود لدعم نوح ومساعدته، فأمكن بذلك القضاء على التمرد والاستيلاء على نيسابور. وأنعم الأمير نوح على سبكتكين بلقب ناصر الدولة. كما أنعم على ابنه محمود بلقب سيف الدولة - أو يمين الدولة وهو اللقب الذي اشتهر به وولاهما خراسان. فأحسنا السيرة، وأقام سبكتكين في هراة، بينما أقام محمود بنيسابور. لم يلبث (الأمير نوح)[1] أن توفي، وتبعه (سبكتكين)[2] بعد فترة قصيرة. فاستولى محمود بن سبكتكين على الملك وأمضى السنوات الأولى من حكمه لتوطيد أمور دولته والقضاء على خصومه ومنافسيه، وتوسيع حدود دولته حتى سنة ٣٩٢ هـ = ١٠٠١ م حتى إذا ما فرغ من ذلك، صار بإمكانه العودة لحرب الثغور.

قاد يمين الدولة جيشه إلى بلاد الهند، فنزل على مدينة برشور، فأتاه الفاجر الكافر ملك الهند جيبال في جيش من اثني عشر ألف فارس وثلاثين ألف راجل وثلاثمائة فيل. فاختار يمين الدولة محمود من عساكره المطوعة خمسة عشر ألفاً وسار نحوه، فالتقوا واقتتلوا وصبر الفريقان. فلما انتصف النهار انهزم الهند، وقتل فيهم مقتلة عظيمة، وأسر جيبال ومعه جماعة كثيرة من أهله وعشيرته. وغنم المسلمون منهم أموالاً جليلة وجواهر نفيسة. وأخذ من عنق عدو الله - جيبال - قلادة من الجوهر العديم النظر قومت بثمانين ألف دينار - وقيل مائتي ألف دينار - وأصيب أمثالها في أعناق مقدمي

---

(١) الأمير الرضا نوح بن منصور الساماني - (٣٥٢-٣٨٧ هـ = ٩٦٢-٩٩٧ م) ولي بخارى وسمرقند وعمره ثلاث عشرة سنة، وتعصب له عضد الدولة بن بويه، وأخذ له العهد والخلع من الخليفة الطائع على خراسان. فاقام على خراسان وما حولها احدى وعشرين سنة وتسعة أشهر، واختل بموته ملك آل سامان.

(٢) ناصر الدولة سبكتكين - مات سنة ٣٨٧ هـ - ٩٩٧ م. كانت مدة ملكه نحواً من عشرين سنة كان مقامه ببلخ، ومات بها، ودفن بغزنة. كان عادلاً خيراً كثير الجهاد حسن الاعتقاد، حسن العهد والوفاء.

الأسرى؛ وغنموا خمسمائة ألف رأس من العبيد وفتح من بلاد الهند بلاداً كثيرة. فلما فرغ من غزواته أحب أن يطلق سراح ـ جيبال ـ ليراه الهنود في شعار الذل، فأطلقه بمال قرره عليه، وصالحه على خمسين رأساً من خفاف الأفيال؛ وارتهن ابناً وحافداً له على الوفاء بها على الكمال. وعاد الكافر وراءه حتى استقر مكانه. وكاتب ابنه ـ اندبال ـ وشاهيته وراء سيحون يشكو إليه ما عراه من الفاقرة الكبرى والداهية العظمى، وسأله سؤال ملحف أن يؤدي عند الضمان؛ ما عز وهان؛ فساق إليه تلك الفيول والأموال؛ وسيقت جملتها إلى يمين الدولة، فأمر بالافراج عن أولئك الرهائن. وكان من عادة الهند أنهم من حصل منهم في أيدي المسلمين أسيراً؛ لم ينعقد له بعدها رياسة، فلما رأى جيبال حاله بعد خلاصه؛ حلق رأسه ثم ألقى نفسه في النار؛ فاحترق. ولما فرغ يمين الدولة من أمر ـ جيبال ـ رأى أن يغزو غزوة أخرى؛ فسار نحو ـ **وبهند** ـ فأقام عليها محاصراً لها حتى فتحها قهراً. وبلغه أن جماعة من الهند قد اجتمعوا بشعاب تلك الجبال عازمين على الفساد والعناد؛ فسير إليهم طائفة من عسكره فأوقعوا بهم؛ وأكثروا القتل فيهم؛ ولم ينج منهم إلا الشريد الفريد، وعاد يمين الدولة محمود إلى غزنة سالماً ظافراً. عمل يمين الدولة محمود؛ على ضم سجستان إلى مملكته سنة ٣٩٣ هـ = ١٠٠٢ م. فلما كانت سنة ٣٩٥ هـ = ١٠٠٤ م. عاود الغزو؛ فقاد جيشه إلى ـ **بهاطية** ـ وهي وراء المولتان من أعمال الهند وحاكمها كان يعرف باسم بجيرا؛ أو بجهرا ـ. وكانت مدينة ـ بهاطية ـ مشهورة أنها مدينة حصينة عالية السور، يحيط بها خندق عميق؛ فامتنع حاكمها بها؛ ثم إنه خرج إلى ظاهرها فقاتل المسلمين ثلاثة أيام، ثم انهزم في الرابع فانسحب نحو المدينة ليدخلها هو وأصحابه فسبقهم المسلمون إلى باب البلد فملكوه عليهم؛ وأخذتهم السيوف من بين أيديهم ومن خلفهم؛ فقتل المقاتلة؛ وسبيت الذرية وأخذت الأموال. وعندما عرف ـ بجيرا ـ أنه مشرف لا محالة على الهلاك؛ أخذ جماعة من ثقاته؛ وسار إلى رؤوس تلك الجبال، فسير إليهم يمين الدولة سرية فلم يشعر بهم ـ بجيرا ـ إلا وقد أحاطوا به؛ وأحكموا السيوف في أصحابه. فلما أيقن بالعطب؛ أخذ خنجراً معه فقتل به نفسه. وأقام يمين الدولة بمدينة بهاطية حتى أصلح أمرها ورتب قواعدها. وعاد عنها إلى غزنة. واستخلف بها من يعلم من أسلم من

أهلها ما يجب عليهم تعليمه. ولقي في عوده شدة شديدة من الأمطار وكثرتها، وزيادة الانهار؛ فغرق من عسكره جند كثير.

استأنف يمين الدولة محمود غزواته وفتوحاته سنة ٣٩٦ هـ = ١٠٠٥ م، فقاد جيشه إلى - **المولتان** - والتي كان يحكمها رجل خبيث من الباطنية اسمه - أبو الفتوح - أقام يدعو الناس إلى الالحاد وأجابه قوم وامتنعت أقوام؛ فرأى يمين الدولة أن يجاهده ويستنزله عما هو عليه. فسار نحوه؛ فرأى الأنهار التي في طريقه كثيرة الزيادة عظيمة المد - وخاصة سيحون المعروف حالياً باسم سيراداريا - مما أعاقه عن العبور. فطلب إلى ملك الهند الجديد - أندبال - أن يأذن له في العبور من بلاده إلى - المولتان - فلم يجبه إلى ذلك؛ فابتدأ به قبل المولتان وقال: « نجمع بين غزوتين؛ لأنه لا غزو إلا التعقيب ». فدخل بلاد الهند؛ وجاسها؛ واكثر القتل فيها والنهب لأموال أهلها والاحراق لأبنيتها، ففر - أندبال - من بين يديه؛ وهو في أثره كالشهاب في أثر الشيطان؛ من مضيق إلى مضيق إلى أن وصل إلى - قشمير؛ أوكشمير -. ولما علم - أبو الفتوح بخبر تقدمه نحوه، وعرف عجزه عن مقاومته، قام بنقل أمواله إلى - سرنديب - وأخلى المولتان. فوصل يمين الدولة إليها؛ ونازلها، فإذا أهلها في ضلالهم يعمهون، فحصرهم وضيق عليهم وتابع القتال حتى افتتحها عنوة؛ وألزم أهلها عشرين ألف ألف درهم عقوبة لعصيانهم. ثم سار عنها إلى - **قلعة كواكير** - وكان حاكمها أو صاحبها يعرف باسم - بيدا - وكان بها ستمائة صنم؛ فافتتحها وأحرق الأصنام فهرب صاحبها إلى قلعته المعروفة - بكالنجار - فسار خلفه إليها؛ وهي حصن كبير يسع خمسمائة ألف إنسان؛ وفيه خمسمائة فيل وعشرون ألف دابة؛ وفي الحصن ما يكفي الجميع مدة. فلما قاربها يمين الدولة محمود، وبقي بينهما سبعة فراسخ؛ رأى من الغياض المانعة من سلوك الطريق ما لا حد له؛ فأمر بقطعها؛ ورأى في الطريق وادياً عظيماً في عمقه؛ بعيداً في غوره. فأمر أن يردم منه مقدار ما يسع عشرين فارساً؛ فردموه بالجلود المملوءة تراباً. ووصل إلى القلعة فحصرها ثلاثة وأربعين يوماً. وراسله صاحبها في الصلح فلم يجبه؛ ثم بلغه عن خراسان اختلاف بسبب قصد ملك الترك - ايلك خان - لها، فصالح ملك الهند على خمسمائة فيل وثلاثة آلاف مئناً من الفضة. وعاد يمين الدولة إلى خراسان

فحارب ايلك خان وقتل من جيشه مقتلة عظيمة ـ بالقرب من مرو ـ وطارده حتى بلغ ثم إلى أبيورد وجرجان. ولكن ـ ايلك خان أعاد تنظيم قواته في بلاد ما وراء نهر سيحون، وأمده ملك الختل بجيشه، فسار في خمسين ألف أو يزيدون (سنة ٣٩٧ هـ = ١٠٠٦ م) وأسرع يمين الدولة محمود فحشد قواته من كافة الأقاليم. وعسكر على بعد فرسخين من بلخ؛ بمكان فسيح يصلح للحرب؛ يقع في سفح جبل اتخذ فيه يمين الدولة مركزاً لقيادته ومراقبته. ودارت معركة ضارية. فلما رأى يمين الدولة شدة القتال، وقد حمي وطيس المعركة؛ نزل عن دابته وعفر وجهه بالتراب، تواضعاً لله تعالى وسأله النصر والظفر. وكان للتنظيم الجيد لقوات يمين الدولة محمود الفضل في الصمود أمام هجمات ايلك خان وحلفائه. فقد عبأ رجاله صفوفاً كالجبال الراسيات والبحار الزاخرات؛ ورتب في القلب. أخاه صاحب الجيش نصراً ومعه والي الجوزجان وكماة الاكراد والعرب وسائر جماهير الهنود ومساعيد الجنود. ورتب في الميمنة حاجبه الكبير أبا سعيد ألتونتاش وندب للميسرة أرسلان الجاذب. وحصن الصفوف بزهاء خمسمائة في فيلته. ثم إن يمين الدولة نزل وحمل في فيلته على قلب ايلك خان، فأزاله عن مكانه. ووقعت الهزيمة فيهم؛ وتبعهم أصحاب يمين الدولة يقتلون ويأسرون ويغنمون إلى أن عبروا بهم النهر (*) . فلما فرغ يمين الدولة من الترك سار نحو الهند للغزاة. ذلك أن

(*) امتدح الشعراء جهد يمين الدولة وجهاده في هذه الوقعة. ومما قاله الحسن بن عبدالله المستوفي في قصيدته:

ظهـر الحـق ثـابـت الأركـان	صـاعـد النجـم على البنيـان
وهوى للردى ذوو النكث والبغـي	وأهـل الضـلال والطغيـان
مـا الذي غـركم بمحمـود المحمـود	انحـاؤه بكـل مكـان
إنما سيفـه شبيـه عصـا مـوسى	ابـن عمـران صـاحـب الثعبان
وقـرا جيـوليـاتكـم كيـد سحـر	فـاذا جـاءت العصـا فهـو فـان.

وهي قصيدة طويلة. وقوله ـ قراجيولياتكم ـ أي سيوفكم وهي ما له حد واحد. وكأنها منسوبة إلى من اتخذها على هذه الهيئة وهو ـ قراجول ـ وقوله ـ فهو فان ـ أي الكيد باطل ومضمحل. وكتب أبو الفضل الهمذاني البديع إلى الشيخ الوزير أبي العباس في هذه الوقعة: «هذا ورب الكعبة آخر ما في الجعبة. لقد أنصف من رامى القارة ومحا السيف ما قال ابن داره؛ ثم لا نزوة بعدها للترك ولا تحلم بعدها للملك، لقد كابس السلطان ـ محمود ـ إذ عفر لله شعره، وعرض على الله =

بعض أولاد ملوك الهند ـ يعرف باسم نواسه شاه ـ كان قد أسلم على يده واستخلفه على بعض ما افتتحه من بلادهم؛ فلما كان الآن بلغه أنه ارتد عن الإسلام؛ ومالأ أهل الكفر والطغيان؛ فسار إليه مجداً، فحين قاربه هرب الهندي من بين يديه؛ واستعاد يمين الدولة تلك الولاية وأعادها إلى حكم الإسلام، واستخلف عليها بعض أصحابه؛ وعاد إلى غزنة.

لم يمنح يمين الدولة محمود قواته من الوقت إلا الفترة الكافية للاستراحة في غزنة؛ تم خلالها إعادة تنظيم القوات واتخاذ الاستعدادات للغزو؛ ثم انطلق بجيشه (سنة ٣٩٨ هـ = ١٠٠٧ م) وسار إلى أن وصل إلى **نهر هندمند ـ أو شط الهند** ـ فلقيه هناك ـ ابرهمن بال بن أندبال ـ في جيوش الهند؛ فاقتتلوا ملياً من النهار، وكادت الهند تظفر بالمسلمين. ثم إن الله تعالى نصر المسلمين عليهم، فظفروا بهم؛ وانهزمت جيوش الهند، ورجعت على أعقابها، وأخذها المسلمون بالسيف، وتبع يمين الدولة محمود أثر ـ ابرهمن بال ـ حتى بلغ قلعة ـ **بهيم نفر** ـ وهي قلعة تتربع على جبل عال؛ وقد جعلها الهنود خزانة لصنمهم الأعظم؛ فكانوا ينقلون إليها أنواع الذخائر قرناً بعد قرن؛ وأعلاق الجواهر. وهم يعتقدون ذلك ديناً وعبادة. فاجتمع فيها على طول الأزمان ما لم يسمع بمثله. فنازلهم يمين الدولة وحصرهم وقاتلهم. فلما رأى الهنود كثرة جمع المسلمين وحرصهم على القتال، وزحفهم إليهم مرة بعد مرة؛ خافوا وجبنوا و طلبوا الأمان؛ وفتحوا باب الحصن؛ وملك المسلمون القلعة؛ وصعد يمين الدولة إليها في خواص أصحابه وثقاته فأخذ منها من الجواهر ما لا يحد؛ ومن الدراهم تسعين ألف ألف درهم شاهية. ومن الأواني الذهبيات والفضيات سبعمائة ألف وأربعمائة. وكان فيها بيت مملوء من فضة طوله ثلاثون ذراعاً وعرضه خمسة عشر ذراعاً، إلى غير ذلك من الأمتعة. وعاد يمين الدولة إلى غزنة بهذه الغنائم. ففرش تلك الجواهر في صحن داره. وكان قد اجتمع عنده رسل الملوك ووفود الأطراف ورسل طغان خان ملك الترك ـ أخي

= فقره، وفوض إلى الله أمره، وأخلص لله نذره؛ وناهض بالله خصمه وسأل الله حوله ـ الخ» الكامل في التاريخ ـ احداث سنة ٣٩٧ هـ.

أيلك - فأدخلهم يمين الدولة اليه. فرأوا ما لم تره العيون وما لم يسمعوا بمثله.

تجهز يمين الدولة محمود لغزو الهند سنة ٤٠٠ هـ = ١٠٠٩ م. فسار إليها واخترقها واستباحها ونكس أصنامها، وأوقع بجيش كبير للهند عند - نارين - فغنم من الخيول والأموال والأفيال شيئاً كثيراً. ولما رأى ملك الهند ما أنزله الله ببلاده وبأهل مملكته من سوط العذاب؛ بوقائع السلطان محمود - يمين الدولة - ونكايته في قاصيهم ودانيهم؛ وأيقن أنه لا قبل له بثقل وطأته وخشونة جانبه؛ أرسل إليه أعيان أقاربه يلتمس منه هدنة على مال يؤديه، وخمسين فيلاً؛ وأن يكون له في خدمته ألفا فارس بصورة دائمة. فوافق يمين الدولة محمود؛ وقبض منه ما بذله، وعاد عنه إلى غزنة.

كانت بلاد الغور تجاور - غزنة - وكان الغور يقطعون الطريق؛ ويخيفون السبيل؛ وبلادهم جبال وعرة، ومضايق غلقة؛ وكانوا يحتمون بها ويعتصمون بصعوبة مسلكها. فلما كثر ذلك منهم؛ أنف يمين الدولة محمود بن سبكتكين أن يكون مثل أولئك المفسدين جيرانه، وهم على ما هم عليه من الفساد والكفر، فجمع العساكر؛ وسار إليهم وعلى مقدمته ألتونتاش الحاجب صاحب هراة. وأرسلان الجاذب صاحب طوس - وهما أكبر أمرائه - فسارا فيمن معهما؛ حتى وصلوا إلى مضيق قد شحن بالمقاتلة؛ فتناوشوا الحرب؛ وصبر الفريقان. فسمع يمين الدولة الحال، فجد في السير إليهم؛ وملك عليهم مسالكهم. فتفرقوا وساروا إلى عظيم الغورية المعروف - بابن سورى - فانتهوا إلى مدينته التي تدعى - آهنكران - فبرز من المدينة في عشرة آلاف مقاتل؛ فقاتلهم المسلمون إلى أن انتصف النهار فرأوا أشجع الناس وأقواهم على القتال؛ فأمر يمين الدولة أن يولوهم الادبار على سبيل الاستدراج - مناورة تراجعية خداعية - ففعلوا. فلما رأى الغورية ذلك ظنوه هزيمة فاتبعوهم حتى أبعدوا عن مدينتهم، فحينئذ عطف المسلمون عليهم، ووضعوا السيوف فيهم؛ فأبادوهم قتلاً وأسراً. وكان في الأسرى كبيرهم وزعيمهم - ابن سورى - ودخل المسلمون المدينة وملكوها؛ وغنموا ما فيها، وفتحوا تلك القلاع والحصون التي لهم جميعها. فلما رأى - ابن سورى - ما فعله المسلمون بهم، شرب سماً كان معه. فمات وخسر الدنيا والآخرة؛ ذلك هو الخسران المبين. وأظهر يمين الدولة في تلك الأعمال شعار الإسلام؛

وجعل عندهم من يعلمهم شرائعه؛ وعاد. ثم سار إلى طائفة أخرى من الكفار؛ فقطع عليهم مفازة من رمل. ولحق عساكره عطش شديد كادوا يهلكون، فلطف الله سبحانه وتعالى بهم، وأرسل عليهم مطراً سقاهم؛ وسهل عليهم السير في الرمل. فوصل إلى الكفار وهم في جمع عظيم ومعهم ستمائة فيل؛ فقاتلهم أشد قتال، صبر فيه بعضهم لبعض. ثم إن الله نصر المسلمين وهزم الكفار؛ وأخذ غنائمهم، وعاد سالماً منصوراً.

كان ملك - **قصدار** - قد صالح يمين الدولة محمود على قطيعة يؤديها إليه؛ ثم قطعها؛ اغتراراً بحصانة بلاده وكثرة المضايق في الطريق. فصمم يمين الدولة على مهاجمته، وتجهز، **وأظهر أنه يريد السير إلى - هراة -** فسار من غزنة (سنة ٤٠٢ هـ = ١٠١١ م) فلما استقل الطريق **سار نحو - قصدار - فسبق خبره؛ وقطع تلك المضايق والجبل، فلم يشعر صاحبها إلا وعسكر يمين الدولة قد أحاط به ليلاً،** فطلب الأمان، فألزمه يمين الدولة بخمسة عشر ألف ألف درهم من جملة ما كان قد تأخر عن دفعه، فالتزمها ونقد أكثرها. وقبض يمين الدولة على عشرين فيلاً ضخاماً هائلة كان اعتقدها ليومي بؤسه وبأسه؛ ووكل به من استوفى المال عليه، ورجع عنه بعد أن رعى حق طاعته وضراعته باستخلافه عنه على ما كان يليه.

سار يمين الدولة محمود بعد ذلك (سنة ٤٠٤ هـ = ١٠١٣ م) لغزو بلاد الهند في جمع عظيم، وقصد واسطة البلاد من الهند؛ فسار شهرين حتى قارب مقصده؛ ورتب أصحابه وعساكره. وعلم عظيم الهند بالهجوم؛ فجمع من عنده من قواده وأصحابه؛ وبرز إلى جبل هناك صعب المرتقى ضيق المسلك؛ فاحتمى به، وطاول المسلمين، وكتب إلى الهنود يستدعيهم من كل ناحية، فاجتمع عليه منهم كل من يحمل سلاحاً، فلما تكاملت عدته نزل من الجبل، وتصافَّ هو والمسلمون، واشتد القتال وعظم الأمر، ثم إن الله تعالى منح المسلمين أكتافهم، فهزموهم وأكثروا القتل فيهم وغنموا ما معهم من مال وفِيله وسلاح وغير ذلك؛ ووجد في بيت بدعظيم - بيت أصنام - حجراً منقوراً دلت كتابته على أنه مبني منذ أربعين ألف سنة. **فلما فرغ يمين الدولة من غزوته عاد إلى غزنة، وأرسل إلى الخليفة في بغداد - القادر بالله - يطلب منه منشوراً وعهداً بخراسان وما بيده من الممالك؛ فكتب له ذلك؛ ولقب نظام**

الدين. توافرت المعلومات عند يمين الدولة أن صاحب (ناحية تانيشر -أو تانيسر) قد غالى في الكفر والطغيان والعناد للمسلمين؛ وأن لديه فيلة من جنس فيلة الصيلمان الموصوفة في الحرب. فعزم على غزوه في عقر داره؛ وأن يذيقه شربة من كأس قتاله. فسار في الجنود والعساكر والمتطوعة. فلقي في طريقه أودية بعيدة القعر، وعرة المسالك، وقفاراً فسيحة الأقطار والأطراف، بعيدة الأكناف، والماء بها قليل، فلقوا شدة وقاسوا مشقة إلى أن قطعوها، فلما قاربوا مقصدهم، لقوا نهراً شديداً في تيار مائه، صعب المخاضة، وقد وقف صاحب تلك البلاد على طرفه يمنع من عبوره ومعه عساكره وفيلته التي كان يدل بها. فأمر يمين الدولة شجعان عسكره بعبور النهر، وإشغال الكافر بالقتال ليتمكن باقي العسكر من العبور؛ ففعلوا؛ وقاتلوا الهنود وشغلوهم عن حفظ النهر حتى عبر سائر العسكر في المخاضات، وقاتلوهم من جميع جهاتهم إلى آخر النهار، فانهزم الهند وظفر المسلمون وغنموا ما معهم من أموال وفيلة وعادوا إلى غزنة موقرين ظافرين.

ب - يمين الدولة محمود في أعظم غزواته

كانت (خوارزم) تحت حكم أميرها - أبي العباس مأمون بن مأمون - والذي ولاه يمين الدولة. فلما كانت سنة ٤٠٧ هـ = ١٠١٦ م قام قادة الجند بقتل أميرهم غيلة؛ ورفضوا الدعاء ليمين الدولة. واستعدوا للحرب؛ وقد عرفوا أن يمين الدولة لن يتركهم؛ فلما علم يمين الدولة محمود بذلك؛ جمع العساكر وسار نحوهم. فلما قاربهم جمع قائدهم - البتكين البخاري - جيشه وسار لقتال مقدمة جيش يمين الدولة؛ ووقعت المعركة واشتد القتال بينهم؛ وعندها أسرع يمين الدولة بالتقدم وزج سائر جيوشه في القتال، فثبت الخوارزمية الى ان انتصف النهار، وأحسنوا القتال، ثم انهم انهزموا، وركبهم أصحاب يمين الدولة يقتلون ويأسرون ولم يسلم إلا القليل؛ ثم أن - البتكين البخاري - ركب سفينة لينجو فيها بنفسه، فجرى بينه وبين من معه منافرة فقاموا عليه وأوثقوه وردوا السفينة إلى ناحية - يمين الدولة - وسلموه إليه. فأخذه وسائر القواد المأسورين معه وصلبهم عند قبر أبي العباس - خوارزمشاه - وأخذ الباقين من الأسرى

فسيرهم الى غزنة فوجاً بعد فوج، فلما اجتمعوا بها أفرج عنهم، وأجرى لهم الأرزاق: وسيرهم الى أطراف بلاده من أرض الهند يحمونها من الأعداء ويحفظونها من أهل الفساد. وأعـاد تنظيم أمور ـ خوارزم ـ وأسند امارتها الى حاجبه ـ التونتاش ـ.

ما إن فرغ يمين الدولة من أمر ـ خوارزم ـ حتى عاد الى غزنة؛ وسار منها الى الهند عازماً على غزو ـ **قشمير؛ أوكشمير** ـ إذ كان قد استولى على بلاد الهند ما بينه وبين قشمير. وأتاه من المتطوعة نحو عشرين ألف مقاتل مما وراء النهر وغيره من البلاد. وسار إليها من غزنة ثلاثة أشهر سيراً دائماً؛ وعبر نهر سيحون وجيلم أو جيلوم وهما نهران عميقان شديدا التيار؛ فوطىء أرض الهند؛ وأتاه رسل ملوكها بالطاعة وبذل الاتاوة. فلما بلغ درب قشمير أتاه صاحبها وأسلم على يده، وسار بين يديه الى مقصده؛ فبلغ نهر جون وفتح ما حول قشمير من الولايات الفسيحة والحصون المنيعة حتى بلغ حصن (**هودب**) وهو آخر ملوك الهند. ونظر هودب من أعلى حصنه فرأى من العساكر ما هاله وأرعبه وعلم انه لا ينجيه إلا الاسلام، فخرج في نحو عشرة آلاف رجل ينادون بكلمة الاخلاص طلباً للخلاص، فقبله يمين الدولة وسار عنه الى قلعة (**كلجند**) وهو من أعيان الهند وشياطينهم؛ وكان على طريقه غياض ملتفة لا يقدر السالك على قطعها إلا بمشقة؛ فسير ـ كلجند ـ عساكره وفيوله الى أطراف تلك الغياض يمنعون من سلوكها؛ فترك عليهم يمين الدولة من يقاتلهم وسلك طريقاً مختصرة الى الحصن؛ فلم يشعروا به إلا وهو معهم، فقاتلهم قتالاً شديداً، فلم يطيقوا الصبر على حد السيوف، فانهزموا، وأخذهم السيف من خلفهم، ولقوا نهراً عميقاً بين أيديهم فاقتحموه، فغرق أكثرهم. وكان القتلى والغرقى قريباً من خمسين ألفاً. وعمد ـ كلجند ـ إلى زوجته فقتلها ثم قتل نفسه بعدها. وغنم المسلمون أمواله وملكوا حصونه. ثم سار يمين الدولة بجيشه نحو بيت متعبد لهم ـ **وهو من مهرة الهند ومن أحصن الأبنية** يقع على نهر ولهم به من الأصنام كثير، منها خمسة أصنام من الذهب الأحمر مرصعة بالجوهر؛ وكان فيها من الذهب ستمائة ألف وتسعون ألف وثلاثمائة مثقال. وكان بها من الأصنام المصوغة من النقرة نحو مائتي صنم. فأخذ ـ يمين الدولة ـ ذلك جميعه؛ وأحرق الباقي. وسار نحو ـ **قنوج** ـ وصاحبها اسمه ـ **راجيال** ـ فرأى

أن صاحبها قد فارقها وعبر النهر المسمى ـ بنهر كنك ـ وهو ماء شريف عندهم يرون أنه من الجنة؛ وأن من أغرق نفسه فيه طهر من الآثام. فأخذها يمين الدولة؛ وأخذ قلاعها وأعمالها ـ نواحيها ـ وهي سبع على النهر المذكور؛ وفيها قرابة عشرة آلاف بيت صنم يذكرون انها عملت من مائتي ألف سنة الى **ثلاثمائة ألف** ـ كذباً منهم وزوراً ـ ولما فتحها أباحها عسكره. ثم سار الى **(قلعة البراهمة ـ ومعناها العلماء)** فقاتلوه وثبتوا، فلما عضهم السلاح علموا انهم لا طاقة لهم: فاستسلموا للسيف، فقتلوا ولم ينج منهم الا الشريد. ثم سار نحو **(قلعة آسي)** وصاحبها ـ جندبال ـ فأخذ يمين الدولة حصنه وما فيه. ثم سار الى **قلعة شروه؛ وصاحبها جندراي.** فلما قاربه نقل ماله وفيوله نحو جبال هناك منيعة يحتمي بها؛ وعمي خبره فلم يدر أين هو. فنازل يمين الدولة حصنه فافتتحه وغنم ما فيه. وسار في طلب جندراي في قوة من الفرسان الخفيفة ـ جريدة ـ حتى لحق به، فقاتله فقتل أكثر جند ـ جندراي ـ وأسر كثيراً منهم وغنم ما معه من مال **وفيلة**. وهرب ـ جندراي ـ في نفر من أصحابه فنجا. وكان السبي في هذه الغزوة كثيراً. ثم عاد يمين الدولة الى غزنة ظافراً. ولما عاد من هذه الغزوة أمر ببناء جامع **غزنة**، فبنى بناء لم يسمع بمثله، ووسع فيه. وأنفق ما غنمه في هذه الغزاة في بنائه.

كان (بيدا) ملك مملكة (كجوراهة) يتابع تطورات الحرب ضد المسلمين؛ وكانت مملكته من أعظم ممالك الهند، وجيشها اكبر جيش، فلما علم بفتح المسلمين لمملكة (قنوج) وهرب ملكها راجيبال ـ راجيال ـ. أرسل الى هذا الملك يوبخه على انهزامه، ثم جرد جيشه واستولى على مملكة قنوج وقتل ملكها راجيال، فازداد (بيدا) بعد صيت في الهند، وارتفعت هيبته، وتعاظم شره وعتوه. وأقبل عليه ملوك الممالك التي فتحها ـ يمين الدولة ـ فخضعوا له، وتعهدوا بخدمته، فوعدهم بإعادة ممالكهم إليهم. وعلم ـ يمين الدولة ـ بذلك، فجمع القوات واستعد بأكثر من استعداداته السابقة وحشد، فلما كانت سنة ٤٠٩ هـ = ١٠١٨م، سار بجيشه وهو يريد غزو مملكة **(كجوراهة)** واخضاع ملكها **(بيدا)** في بلاده. وبدأ ـ يمين الدولة ـ غزوته باجتياح (الافغانية) وهم قوم من الكفار؛ يسكنون الجبال ويفسدون في الأرض ويقطعون الطريق بين غزنة

وبينه: فسار عبر المضايق الصعبة وفتح مغالقها وضرب عامرها وغنم أموالهم وأكثر القتل فيهم والأسر، وغنم المسلمون من أموالهم الكثيرة. ثم تابع مسيره؛ وبلغ إلى مكان لم يبلغه فيما تقدم من غزواته. وعبر نهر - كنك - ولم يعبره قبلها. فلما جَاوزه رأى قفلاً - رتلاً - قد بلغت أحمالهم ألف عدد؛ فغنمها وهي من العود والأمتعة الفائقة. وسار بجد وسرعة فأتاه في الطريق خبر ملك من ملوك الهند يقال له - بروجيبال - قد سار من بين يديه ملتجئاً الى الملك - بيدا - ليحتمي به عليه؛ فطوى المراحل حتى لحق - ببروجيبال - ومن معه. وكان بينه وبين الهنود نهر عميق، فعبر اليهم بعض أصحابه وشغلهم بالقتال حتى عبر هو وباقي العسكر إليهم، فاقتتلوا عامة نهارهم؛ وانهزم - بروجيبال - ومن معه؛ وكثر فيهم القتل والأسر، وأسلموا أموالهم وأهليهم، فغنمها المسلمون؛ وأخذوا منهم الكثير من الجواهر؛ وأخذ ما زاد على مائتي فيل. وسار المسلمون يقتصون آثارهم. وكان ملكهم هذا قد جرح في المعركة فأرسل الى - يمين الدولة يطلب الأمان، فلم يؤمنه، ولم يقنع منه إلا بالإسلام، وقتل من عساكره أثناء الاقتفاء - المطاردة - ما لا يحصى. ولم يتمكن - بروجيبال - على كل حال من اللحاق بالملك - بيدا - فقد انفرد به بعض الهنود فقتله. ولما رأى ملوك الهند ذلك. تابعوا رسلهم الى - يمين الدولة - يبذلون الطاعة والاتاوة. وسار يمين الدولة الى مدينة - باري - وهي من أحصن القلاع والبلاد وأقواها، فرآها من سكانها خالية وعلى عروشها خاوية فأمر بهدمها وتخريبها مع هدم وتخريب عشر قلاع معها متناهية الحصانة؛ وقتل من أهلها خلقاً كثيراً. وسار يطلب الملك - بيدا - فلحقه وقد نزل الى جانب نهر؛ وأجرى الماء من بين يديه فصار وحلاً - وترك عن يمينه وشماله طريقاً يبساً يقاتل منه، وكان عدة من معه ستة وخمسين ألف فارس ومائة ألف وأربعة وثمانين ألف راجل وسبعمائة وستة وأربعين فيلاً. فأرسل - يمين الدولة - طائفة من عسكره للقتال. فأخرج إليهم - بيدا - مثلهم؛ ولم يزل كل عسكر يمد أصحابه حتى كثر الجمعان؛ واشتد الضرب والطعان، فأدركهم الليل وحجز بينهم. فلما كان الغد، بكر يمين الدولة إليهم؛ فرأى الديار منهم بلاقع. وركب كل فرقة منهم طريقاً مخالفاً لطريق الأخرى. ووجد خزائن الأموال والسلاح بحالها. فغنموا الجميع؛ واقتفى آثار المنهزمين، فلحقوهم في

الغياض والآجام وأكثروا فيهم القتل والأسر ، ونجا الملك ـ بيدا ـ فريداً وحيداً ، وعاد يمين الدولة الى غزنة منصوراً .

وسارت أعمال الجهاد بصورة منتظمة ، لا تعرف الكلل أو الراحة ؛ متشابهة في صورها وأعمالها ؛ حتى إذا ما كانت سنة ٤١٤ هـ = ١٠٢٣ م . سار يمين الدولة محمود ابن سبكتكين على رأس جيشه وأوغل في بلاد الهند ، فغنم وقتل حتى وصل إلى قلعة على رأس جبل منيع ليس له مصعد إلا من موضع واحد ، وهي كبيرة تسع خلقاً كثيراً وبها خمسمائة فيل ، وفي رأس الجبل من الغلات والمياه وجميع ما يحتاج الناس إليه . فحصرهم يمين الدولة ، ودام الحصار وضيق عليهم ، واستمر القتال ، فقتل منهم كثير ، فلما رأوا ما حل بهم أذعنوا له وطلبوا الأمان فأمنهم وأقر ملكهم فيها على خراج يأخذه منه ؛ وأهدى له هدايا كثيرة ، منها طائر على هيئة القمري من خاصيته أنه إذا أحضر الطعام وفيه سم دمعت عينا هذا الطائر وجرى منها ماء وتحجر ، فاذا حك وجعل على الجراحات الواسعة ألحمها .

عرفت سنة ٤١٦ هـ = ١٠٢٥ م تصعيداً جديداً في الحرب على جبهة الشرق بسبب قيام يمين الدولة بفتح عدة حصون ومدن من بلاد الهند ، وأخذ الصنم المعروف عندهم باسم (صنم سومنات) وكان هذا الصنم هو أعظم أصنام الهند ، يحجون إليه كل ليلة خسوف ، فيجتمع عنده ما ينيف على مائة ألف انسان . وتزعم الهنود ان الأرواح إذا فارقت الأجساد اجتمعت إليه على مذهب التناسخ فينشئها فيمن شاء ؛ وأن المد والجزر الذي عنده إنما هو عبادة البحر له على قدر استطاعته . وكانوا يحملون إليه كل علق نفيس ، ويعطون سدنته كل مال جزيل ، وله من الوقوف ما يزيد على عشرة آلاف قرية . وقد اجتمع في البيت الذي هو فيه من نفيس الجوهر ما لا تحصى قيمته . ولأهل الهند نهر كبير ـ يسمى كنك ـ يعظمونه غاية التعظيم ، ويلقون فيه عظام من يموت من كبرائهم . ويعتقدون أنها تساق الى جنة النعيم . وبين هذا النهر وبين (سومنات) (*) نحو مائتي فرسخ . وكان يحمل من مائه كل يوم الى سومنات ما

(*) سومنات ، مدينة ساحلية متسعة بها علماء الهنود وعبادهم ؛ والصنم المعروف بها يسمى ـ البد ـ وصورته احليل إنسان وفرج امرأة مصنوعان من حجر أو من ذهب او من حديد عند طائفة منهم

يغسل به. ويكون عنده من البرهميين كل يوم ألف رجل لعبادته وتقديم الوفود إليه؛ وثلاثمائة رجل يحلقون رؤوس زواره ولحاهم. وثلاثمائة رجل وخمسمائة أمة يغنون ويرقصون على باب الصنم؛ ولكل واحد من هؤلاء شيء معلوم كل يوم. **وكان يمين الدولة كلما فتح من الهند فتحاً، وكسر صنماً، يقول الهنود: «إن هذه الأصنام قد سخط عليها سومنات. ولو أنه كان راضياً عنها لأهلك من قصدها بسوء». فلهذا عزم - يمين الدولة محمود - على غزوه وإهلاكه، ظناً منه أن الهنود إذا فقدوه ورأوا كذب ادعائهم الباطل دخلوا في الاسلام.** فاستخار الله تعالى، وسار عن غزنة في ثلاثين ألف فارس من عساكره، سوى المتطوعة، وسلك سبيل - الملتان -. وكان في طريقه إلى الهند مفازة مقفرة لا ساكن فيها ولا ماء ولا ميرة. فتجهز هو وعسكره على قدرها، ثم زاد بعد الحاجة عشرين ألف جمل تحمل الماء والميرة وقصد - انهلوارة - فلما قطع المفازة، رأى في طرفها حصوناً مشحونة بالرجال وعندها آبار قد غوروها - ردموها - ليتعذر عليه حصرها. **فيسر الله تعالى فتحها عند قربه منها بالرعب الذي قذفه في قلوبهم، وتسلمها**. وقتل سكانها وأهلك أوثانها. وامتاروا منها الماء وما يحتاجون إليه. وسار إلى - انهلوارة -. ولما وصلها رأى صاحبها - واسمه بهيم - قد أجفل عنها وتركها وأمعن في الهرب وقصد حصناً له يحتمي به. فاستولى يمين الدولة على المدينة. وسار إلى - سومنات - فلقي في طريقه عدة حصون فيها كثير من الأوثان، شبه الحجاب والنقباء لسومنات على ما سوّلهم الشيطان، فقاتل من بها وفتحها وخربها وكسر أصنامها. وسار الى سومنات في مفازة قفرة قليلة الماء، فلقي فيها عشرين ألف مقاتل من سكانها، فأرسل إليهم السرايا فقاتلوهم فهزموهم وغنموا مالهم، وامتاروا من عندهم - تمونوا وتزودوا بالميرة - وساروا حتى بلغوا - **دبولوارة** - وهي على مرحلتين من سومنات، وقد ثبت أهلها له ظناً منهم ان سومنات يمنعهم ويحميهم ويدفع عنهم؛ فاستولى يمين الدولة محمود عليها وقتل رجالها وغنم أموالها. وسار

= يسمون ذلك العلة الغريبة في اتحاد نوع الانسان. ويكون على كرسي من ذهب. وهو مضمخ بالمسك في رأسه الى الكرسي، ومقلد بعقود الياقوت والجوهر. ويكون أمامه أطباق ذهب مملوءة من الأحجار الشريفة الثمينة؛ والكرسي على مقعد مستدير يسع عشرة رجال. الخ... (نخبة الدهر في عجائب البر والبحر ص ١٧٠ - من هامش النجوم الزاهرة).

عنها الى سومنات، وعندما وصلها رأى حصناً حصيناً مبنياً على ساحل البحر بحيث تبلغه أمواجه. وأهله على الأسوار يتفرجون على المسلمين؛ واثقين ان معبودهم ـ الصنم ـ سيقطع دابر المسلمين ويهلكهم. فلما كان الغد، زحف المسلمون وقاتلوا من بها، **فرأى الهنود من المسلمين قتالاً لم يعهدوا مثله،** ففارقوا السور؛ فنصب المسلمون عليه السلالم وصعدوا إليه، وأعلنوا بكلمة الإخلاص، وأظهروا شعار الاسلام، فحينئذ اشتد القتال وعظم الخطب. وتقدم جماعة الهنود الى سومنات فعفروا له خدودهم وسألوه النصر. وأدركهم الليل فكف بعضهم عن بعض. فلما كان الغد؛ بكر المسلمون إليهم وقاتلوهم فأكثروا في الهنود القتل وأجلوهم عن المدينة الى بيت صنمهم ـ سومنات ـ فقاتلوا على بابه أشد قتال. وكان الفريق منهم بعد الفريق يدخل الى سومنات فيعتنقونه ويبكون ويتضرعون إليه ويخرجون فيقاتلون الى أن يقتلوا حتى كاد الفناء يستوعبهم. فبقي منهم القليل، فدخلوا البحر الى مركبين لهم لينجوا فيهما، فأدركهم المسلمون، فقتلوا بعضاً وغرق بعض. وأما البيت الذي فيه سومنات فهو مبني على ست وخمسين سارية من الساج المصفح بالرصاص. وسومنات من حجر طوله خمسة أذرع، ثلاثة مدورة ظاهرة، وذراعان في البناء، وليس بصورة مصورة؛ فأخذه يمين الدولة فكسره وأحرق بعضه وأخذ بعضه معه الى غزنة فجعله عتبة الجامع. وكان بيت الصنم مظلماً، وانما الضوء الذي عنده من قناديل الجوهر الفائق. وكان عنده سلسلة ذهب فيها جرس وزنها مائتا مثقال، كلما مضى طائفة معلومة من الليل حركت السلسلة فيصوت الجرس فيقوم طائفة من البرهميين الى عبادتهم. وعنده خزانة فيها عدة من الأصنام الذهبية والفضية وعليها الستور المعلقة المرصعة بالجوهر، كل واحد منها منسوب الى عظيم من عظمائهم. وقيمة ما في البيوت يزيد على عشرين ألف ألف دينار. فأخذ الجميع. وكانت عدة القتلى تزيد على خمسين ألف قتيل. وعلم عندها يمين الدولة محمود أن ـ بهيم ـ صاحب انهلوارة قد قصد قلعة تسمى ـ كندهة ـ في البحر، بينها وبين البر من جهة سومنات أربعون فرسخاً، فسار إليها يمين الدولة من سومنات. فلما حاذى القلعة رأى رجلين من الصيادين فسألهما عن خوض البحر هناك فعرفاه انه يمكن خوضه، لكن إن تحرك الهواء يسيراً غرق من فيه. فاستخار الله تعالى وخاضه هو ومن

معه، فخرجوا سالمين، فرأوا بهيم وقد فارق قلعته وأخلاها، فعاد عنها. وقصد ـ المنصورة ـ وكان صاحبها قد ارتد عن الاسلام، فلما بلغه خبر مجيء يمين الدولة، فارقها واحتمى بغياض أشبة ـ كثيفة ـ فقصده يمين الدولة من موضعين فأحاط به وبمن معه، فقتلوا أكثرهم، وغرق منهم كثير، ولم ينج منهم إلا القليل، ثم سار الى بهاطية. فأطاعه أهلها ودانوا له. فرحل الى غزنة.

لقد أمضى يمين الدولة وجيشه في هذه الحملة زهاء الستة أشهر، فقد انطلق من حملته من غزنة في العاشر من شعبان سنة ٤١٦ هـ. وعاد الى غزنة فوصلها في العاشر من صفر سنة ٤١٧ هـ. ستة أشهر قضاها المجاهدون في سبيل الله في سير متواصل ومعارك متتالية، عبر القفار والمفازات ووسط مضايق الجبال والوديان، وفي السهول والغابات. اتصل سواد الليل ببياض نهاره. واتصلت أيام الشهور بعضها ببعض. لقد تجاوز المجاهدون في حملتهم حدود المكان، واخترقوا حدود الزمان. ووضعوا معاناتهم ومتاعبهم وراء ظهورهم، ومضوا بتصميم لا مثيل له، وبعناد لا يوصف. وأيدهم الله بنصره. فكانت حملتهم هذه نموذجاً لحروب الايمان وهو نموذج على روعته، وعلى إثارته؛ ليس الا حلقة من حلقات حروب الايمان.

جـ ـ بناء الجبهة الداخلية

ما كان للسلطان يمين الدولة محمود أن يهمل بناء جبهته الداخلية، أو قاعدة ملكه، وهو الذي عرف منذ بداية ظهور أمره **قوة العلاقة بين قاعدته الداخلية وقوته الخارجية**. فسار بجيشه سنة ٤٢٠ هـ = ١٠٢٩ م نحو جرجان وطبرستان لاخضاع حاكمها ـ صاحبها ـ منوجهر بن قابوس. فأسرع هذا لاسترضاء يمين الدولة، وحمل إليه أربعمائة ألف دينار وأنزالاً كثيرة؛ وكان ـ مجد الدولة بن فخر الدولة بن بويه ـ صاحب الري، قد كاتبه وشكا إليه جنده، وكان متشاغلاً بالنساء ومطالعة الكتب ونسخها، وكانت والدته تدبر مملكته، فلما توفيت طمع جنده فيه واختلت أحواله. وعندما وصلت كتبه الى محمود، سير إليه جيشاً، وجعل مقدمهم حاجبه، وأمره أن يقبض على ـ مجد الدولة ـ. فلما وصل العسكر الى الري؛ ركب مجد الدولة لاستقبالهم،

فقبضوا عليه وعلى ولده ـ أبي دلف ـ فلما وصل الخبر الى يمين الدولة بالقبض عليه سار إلى الري. ودخلها وأخذ من الأموال ألف ألف دينار، ومن الجواهر ما قيمته خمسمائة ألف دينار، ومن الثياب ستة آلاف ثوب، ومن الآلات وغيرها ما لا يحصى. وأحضر ـ مجد الدولة ـ وقال له: «**أما قرأت تاريخ الفرس ـ شاه نامه، وتاريخ الطبري ـ وهو تاريخ المسلمين؟» قال: بلى. فعاد يمين الدولة وسأله: «ما حالك حال من قرأهـا! أما لعبت بالشطرنج؟» وأجاب مجد الدولة: بلى. فسأله يمين الدولة: «هل رأيت شاهاً يدخل على شاه؟». قال: لا. فقال له يمين الدولة: «فما حملك على أن سلمت نفسك الى من هو أقوى منك؟»** ثم سيره الى خراسان مقبوضاً، ثم ملك قزوين وقلاعها ومدينة ساوه، وآبه، ويـافـت. وقبـض على صـاحبهـا ـ ولكين بـن ندرين ـ وسيره الى خراسان. ولما ملك يمين الدولة ـ الري ـ كتب الى الخليفة القادر بالله رسالة ذكر فيها انه وجد عند مجد الدولة ما زاد على خمسين امرأة من النساء الحرائر، ولدن له نيفاً وثلاثين ولداً، ولما سئل عن ذلك قال: هذه عادة سلفي. وصلب من أصحابه الباطنية خلقاً كثيراً، ونفى المعتزلة الى خراسان، وأحرق كتب الفلسفة ومذاهب الاعتزال والنجوم، وأخذ من الكتب ما سوى ذلك مائة حمل وتحصن منه ـ منوجهر بن قابوس بن وشمكير ـ بجبال حصينة وعرة المسالك، فلم يشعر إلا وقد أطل عليه يمين الدولة فهرب منه الى غياض حصينة، وبذل خمسمائة ألف دينار ليصالحه، فأجابه الى ذلك، فأرسـل المال إليـه، فسـار عنـه الى نيسـابـور. ثم تـوفي ـ منوجهر ـ عقيب ذلك، وولي بعده ابنه أنوشروان، فأقره محمود على ولايته، وقرر عليه خمسمائة ألف دينار أخرى. **وخطب لمحمود في أكثر بلاد الجبل إلى حدود أرمينية. وافتتح ابنه مسعود ـ زنجان وأبهر ـ وخطب له علاء الدولة بأصبهان. وعاد محمود إلى خراسان، واستخلف بالري ابنه مسعوداً فقصد أصبهان وملكها من علاء الدولة وعاد عنها واستخلف بها بعض أصحابه، فثار به أهلها فقتلوه فعاد إليهم فقتل منهم مقتلة عظيمة نحو خمسة آلاف قتيل. وسار إلى الري فأقام بها.**

كان ـ السالار ابراهيم بن المرزبان بن إسماعيل بن وهسوذان بن محمد بن مسافر **الديلمي ـ قد استولى على بلاد سرجهان وزنجان وأبهر وشهرزور وغيرها وذلك بعد**

وفاة فخر الدولة بن بويه. مما دفع بأحد أبناء ملوك الديلم ـ واسمه المرزبان بن الحسن ابن خراميل ـ الى الهرب واللجوء الى يمين الدولة محمود بن سبكتكين الذي وعده بالمساعدة على استعادة ملك آبائه. فلما فرغ يمين الدولة من إعادة تنظيم أمور الري، وجه جيشاً بقيادة المرزبان الى السالار، فقصدها واستمال الديلم، فمال إليه بعضهم. فسار السالار ابراهيم إلى قزوين، فقاتل بها عسكر يمين الدولة وأكثر القتل فيهم وهرب الباقون، وأعانه أهل البلد. وسار السالار ابراهيم أيضاً الى مكان يقال له ـ سرجهان ـ تطيف به الأنهار والجبال. فتحصن به. وعلم مسعود بن يمين الدولة، وهو بالري، بما فعله السالار ابراهيم، فقاد جيشه وسار لقتاله مجداً مسرعاً، وجرت اشتباكات ومعارك كان النصر فيها للسالار، ثم إن مسعوداً بعث الرسائل الى طائفة من جند السالار واستمالهم وأعطاهم المال، فانضموا اليه وكشفوا له عن نقاط ضعف السالار، واقتادوا مجموعة من جيشه عبر طريق صعب ومجهول حتى وصلوا بها الى مؤخرة السالار فيما كان مسعود يقاتله بصورة جبهية، وبوغت السالار بالهجوم على مؤخرته، واضطرب امره فانهزم ومن معه، وطلب كل واحد منهم مهرباً، واختفى السالار في مكان فدلت عليه امرأة سوادية، فأخذه مسعود وحمله الى ـ سرجهان ـ وبها ولده، فطلب منه أن يسلمها الى مسعود، فلم يفعل، فعاد عنها، وتسلم باقي قلاعه وبلاده. وأخذ أمواله، وقرر على ابنه المقيم بسرجهان مالاً على كل من جاوره من مقدمي الأكراد. وعاد الى الري.

بقي على يمين الدولة محمود أن يؤمن بلاده من أعمال السطو والفساد. وكان الاتراك الغزية ـ أصحاب أرسلان بن سلجوق التركي، ينطلقون من مفازة بخارى ليفسدوا البلاد وليثيروا الاضطراب فيها، فسار يمين الدولة إليهم، وعبر النهر يريد الوصول الى ـ بخارى ـ فهرب صاحبها ـ علي تكين ـ وجاء اليه أرسلان بن سلجوق، فقبض عليه وسجنه ببلاد الهند، وسار ليلاً الى ـ خركاهاته ـ فقتل كثيراً من أصحابه الاتراك الغزية، وسلم منهم خلق كثير؛ فهربوا منه، ولحقوا بخراسان؛ فأفسدوا فيها ونهبوا، فأرسل اليهم يمين الدولة جيشاً، فسباهم وأجلاهم عن خراسان. وسار منهم أهل ـ ألفي خركاه ـ فلحقوا بأصبهان. فكتب يمين الدولة الى حاكم أصبهان ـ علاء الدولة بن كاكويه ـ بإرسالهم، وقطع رؤوسهم. فأمر علاء الدين نائبه ان يعمل طعاماً ويدعوهم

اليه ويقتلهم. فأرسل اليهم وأعلمهم انه يريد اثبات أسمائهم ليستخدمهم، وكمن الديلم في البساتين، فحضر جمع كثير منهم؛ فلقيهم مملوك تركي لعلاء الدولة وحذرهم فعادوا. وأراد نائب علاء الدولة أن يمنعهم من العود، فلم يقبلوا منه. فحمل ديلمي من قواد الديلم على انسان منهم فرماه التركي بسهم فقتله. ووقع الصوت بذلك، فخرج الديلم وانضم إليهم أهل البلد، فجرت بينهم حرب فهزموهم، وانسحب الترك وساروا، فلم يجتازوا على قرية إلا نهبوها حتى وصلوا ـ وهسوذان ـ بأذربيجان. فاستقبلهم ـ وهسوذان، وراعاهم وأمن لهم احتياجاتهم وأمورهم. وبقي بخراسان منهم أكثر ممن سار الى أصبهان. فتوجهوا الى جبل ـ بلجان؛ وهو الذي عنده خوارزم القديمة ـ فنزل كثير منهم من الجبل الى البلاد، فنهبوا وأخربوا وقتلوا. فجرد يمين الدولة محمود جيشاً بقيادة أمير طوس ـ أرسلان الجاذب ـ فسار إليهم واستمر في مطاردتهم طوال سنتين تقريباً. كما اضطر يمين الدولة الى قيادة جيش بسببهم؛ والسير الى خراسان، وصار يطاردهم ما بين نيسابور وحتى دهستان، فساروا الى جرجان. ثم عاد عنهم، وكلف ابنه مسعوداً بالري فاستخدم بعضهم وأسند قيادتهم الى رجل منهم ـ اسمه يغمر ـ فسكنوا، ثم عادوا لاثارة الاضطراب والفوضى بسبب انشغال مسعود عنهم في حرب الهند، فعاد اليهم ـ ودعا مقدميهم وقتل منهم نيفاً وخمسين رجلاً. ثم إن مسعوداً سير قسماً كبيراً منهم الى الهند. وقطع أيدي المفسدين وأرجلهم وصلبهم.

بينما كان يمين الدولة منصرفاً لبناء جبهته الداخلية ودعمها وضمان الاستقرار لها، قام نائبه في الهند ـ أحمد بن ينالتكين ـ بقيادة جيش من مائة ألف مقاتل ما بين فارس وراجل، وسار بهم سنة ٤٢١ هـ = ١٠٣٠ م نحو مدينة ـ نرسي ـ التي كانت من أعظم مدنهم. فشن الغارة على البلاد، ونهب وسبى وخرب الأعمال وأكثر القتل والأسر. فلما وصل الى مدينة نرسي؛ دخل من أحد جوانبها ونهب المسلمون في ذلك الجانب يوماً ـ من بكرة الى آخر النهار ـ ولم يفرغوا من نهب سوق العطارين والجوهريين فقط، ولم يعلم باقي أهل البلد بذلك بسبب اتساع المدينة وكبر بيوتها المتناثرة والمتباعدة. فلما جاء المساء، لم يجسر أحد على المبيت فيه لكثرة أهله، فخرج منه ليأمن على نفسه وعسكره. وبلغ من كثرة ما نهب المسلمون انهم اقتسموا الذهب والفضة كيلاً ـ ولم يصل الى هذه

المدينة عسكر للمسلمين قبله ولا بعده. فلما فارقه اراد العودة إليه، فلم يقدر على ذلك لأن أهله دافعوا عنه.

كان يمين الدولة محمود يعاني من مرض عضال لزمه السنتين الاخيرتين من حياته، وشعر بدنو أجله، أوصى بالملك لابنه محمد - وهو ببلخ - وكان أصغر من مسعود، ومات يمين الدولة (*) وقد اضطلع بدوره في الجهاد؛ وترك الحكم لابنه محمد الذي بايعته البلاد من أقاصي الهند حتى نيسابور، ولكن مسعود - الأخ الأكبر - استطاع انتزاع الملك لنفسه، وتمكن من خلع أخيه محمد الذي كان يحمل لقب (جلال الدولة).

(*) محمود بن سبكتكين - يمين الدولة (٣٦٠ - ٤٢١ هـ = ٩٧٠ - ١٠٣٠ م) كان عاقلاً ديناً، خيراً؛ عنده علم ومعرفة، وصنف له كثير من الكتب في فنون العلوم، وقصده العلماء من أقطار البلاد؛ وكان يكرمهم ويقبل عليهم ويعظمهم ويحسن إليهم. وكان عادلاً كثير الإحسان الى رعيته والرفق بهم، كثير الغزوات. ملازماً للجهاد؛ وفتوحه مشهورة مذكورة أراد فيها بذل نفسه لله تعالى وابتغاء رضوانه. ولم يكن فيه ما يعاب، إلا أنه كان يبحث عن المال بكل طريق، ولم يكن بحثه عن المال لنفسه، ولكن لبناء دولته؛ وتقوية عساكره، وتأمين الرفاه لشعبه. وكانت له هيبته، فخافه الاعداء، وكف عنه الطامعون؛ وسار ذكره بالآفاق. جدد عمارة المشهد بطوس الذي فيه قبر علي ابن موسى الرضا، والرشيد، وأحسن عمارته. واعتبره بعض المؤرخين انه أول من عدل فأحسن العدل بين رعيته بعد عمر بن عبدالعزيز - الخليفة الأموي العادل -.

د ـ على نهج السلف.

انصرف مسعود بن محمود بن سبكتكين، الى تنظيم أمور بلاده؛ وكان قد ظهر في ـ التيز، ومكران ـ بعض الاضطراب فعمل على معالجتها بكفاءة واقتدار. وعين على الولايات أمراء ممن يثق بكفاءتهم، فعين علاء الدولة بن كاكويه على أصبهان، وأقر ابن قابوس بن وشكمير على جرجان وطبرستان، وسير أبا سهل الحمدوني إلى الري للنظر في امور هذه البلاد الجبلية والقيام بحفظها. وسار إلى الهند، فأصلح الفاسد وأعاد المخالف إلى طاعته. وقبض عسكر مسعود على ـ شهريوش بن ولكين ـ لأنه اعترض الحجاج الواردين من خراسان وعمّهم أذاه وأساء إليهم، فأمر مسعود بصلبه على سور ـ ساوة ـ. وشعر مسعود أنه بات باستطاعته متابعة السير على نهج أبيه محمود. فسار بجيشه الى الهند. وكان واليها ـ أحمد ينالتكين ـ قد اعلن تمرّده مستفيداً من الاضطراب الذي أعقب وفاة يمين الدولة محمود؛ فأخضعه. ثم سار بجيشه الى قلعة **ـ سرستي ـ** وهي من أمنع حصون الهند وأقواها. فحصرها، وقد كان أبوه حصرها غير مرة فلم يتهيأ له فتحها. فلما حصرها مسعود، راسله صاحبها وبذل له مالاً على الصلح، فأجابه إلى ذلك، وكان فيها قوم من التجار المسلمين، فعزم صاحبها على أخذ أموالهم وحملها إلى مسعود من جملة ما تعهد بدفعه. فكتب التجار رقعة في نشابة، ورموا بها إليه يعرفونه فيها ضعف الهنود بها، وأنه إن صابرهم ملكها. فرجع عن الصلح إلى الحرب، وطم ـ ردم ـ خندقها بالشجر وقصب السكر وغيره. وفتح الله عليه وقتل كل من فيها وسبى ذراريهم وأخذ ما جاورها من البلاد. ولما ملك مسعود قلعة **ـ سرستي ـ** رحل عنها إلى قلعة **ـ نفسي ـ**. وحصرها، فرآها عالية لا ترام؛ يرتد البصر دونها وهو حسير، إلا انه أقام عليها يحصرها، وتصادف ان انتشر وباء في عسكر المسلمين مما حمل مسعود على رفع الحصار والعودة الى غزنة. وكان أمر الأتراك قد اشتد اثناء ذلك بخراسان، فتجمع كثير من المفسدين وأهل العبث والشر؛ وكان أول من أثار الشر أهل أبيورد وطوس، واجتمع معهم خلق كثير وساروا إلى نيسابور لينهبوها.

وكان الوالي عليها قد سار عنها إلى الملك مسعود، فخافوا خوفاً عظيماً، وأيقنوا بالهلاك، فبينما هم يترقبون البوار والاستئصال وذهاب الأنفس والأموال، إذ وصل إليهم أمير كرمان في ثلاثمائة فارس، قدم متوجهاً إلى مسعود أيضاً، فاستغاث به المسلمون وسألوه أن يقيم عندهم ليكف عنهم الأذى، فأقام عليهم وقاتل معهم. وعظم الأمر واشتدت الحرب، وكان الظفر له ولأهل نيسابور. فانهزم أهل طوس وأبيورد ومن تبعهم وأخذتهم السيوف من كل جانب وعمل بهم أمير كرمان أعمالاً عظيمة، وأثخن فيهم وأسر كثيراً منهم وصلبهم على الأشجار وفي الطرق؛ فقيل إنه أعدم من أهل طوس عشرين ألف رجل.

ثم إن أمير كرمان أحضر زعماء قرى طوس، وأخذ أولادهم وإخوانهم وغيرهم من أهليهم رهائن، فأودعهم السجون. وقال: «إن اعترض منكم واحد إلى أهل نيسابور أو غيرهم؛ أو قطع طريقاً، فأولادكم وإخوانكم ورهائنكم مأخوذون بجناياتكم» فسكن الناس وفرج الله عن أهل نيسابور بما لم يكن في حسابهم. وكان ذلك في سنة ٤٢٥ هـ = ١٠٣٤ م.

عادت المتاعب الداخلية لتصرف ـ مسعود بن محمود ـ عن جهاد الكفار في الهند ـ ذلك انه عندما عاد من الهند؛ وانصرف لقتال الغز (سنة ٤٢٦ هـ = ١٠٣٥ م) عاد نائب مسعود في حكم ما تمّ فتحه من بلاد الهند ـ أحمد ينالتكين ـ فأعلن تمرّده وعصيانه ببلاد الهند، وجمع الجموع، وقصد البلاد بالأذى، فسير إليه مسعود جيشاً كثيفاً. وسار أحمدينالتكين بجيشه مبتعداً عن وجه جيش مسعود. ولكن ملوك الهند منعته من الدخول إلى بلادهم، وسدوا في وجهه منافذ هربه. ولما وصل جيش مسعود، قاتلهم ينالتكين، وانهزم، ومضى هارباً إلى الملتان. وقصد بعض ملوك الهند بمدينة ـ بهاطية ـ ومعه جمع كثير من عساكره، ولم يكن لذلك الملك قدرة على منعه، أو رفض طلبه بتأمين السفن ليعبر نهر السند. ولكن هذا الملك احتال على ينالتكين، فأحضر له السفن. وكان في وسط النهر جزيرة ظنّها احمد ومن معه متّصلة بالبر من الجانب الآخر، ولم يعرف أن الماء يحيط بها من كل جانب. وطلب الملك الهندي الى

أصحاب السفن بإنزال ينالتكين وقواته في الجزيرة، ثم تركهم هناك والعودة. ففعلوا ذلك. وبقي أحمد ينالتكين ومن معه فيها وليس معهم طعام إلاّ ما معهم، فبقوا بها تسعة أيام. ففني زادهم، وأكلوا دوابهم، وضعفت قوّاتهم ووهنت قواهم. وأرادوا خوض الماء فلم يتمكنوا منه لعمقه وشدّة الوحل فيه. وعندها عبر ملك الهند إليهم بعسكره. وأوقع بهم، وقتلوا أكثرهم، وأخذوا ولداً لأحمد أسيراً. فلما رآه أحمد على تلك الحال قتل نفسه؛ واستوعب أصحابه القتل والأسر والغرق.

جابهت - الملك مسعود - في هذه الفترة ذاتها مشكلة أخرى مع حاكم - جرجان وطبرستان؛ دارا بن منوجهر بن قابوس - والذي كان مسعود قد أمره على حكم هذين الاقليمين مقابل مال معين. كما عمل على التزوج بابنة مقدم جيش دارا والقيم بتدبير أمره - أبي كاليجار - استمالة له، فلما سار مسعود الى الهند، عمل - دارا - على دفع ما كان قد تقرر عليه من المال. وأرسل الرسائل الى ملوك الأقاليم المجاورة وحرضهم على العصيان؛ فلما عاد مسعود من الهند، وأجلى الغز وهزمهم؛ سار إلى جرجان فاستولى عليها وملكها، وسار إلى - آمل طبرستان - فوجد أن أصحابها قد فارقوها واجتمعوا بالغياض والغابات ذات الأشجار الملتفة الضيقة المدخل، الوعرة المسلك؛ فسار إليهم، واقتحمها عليهم فهزمهم وأسر منهم، وقتل. ثم راسله - دارا وأبو كاليجار - وطلبوا منه العفو، وتقرير البلاد عليهم، فأجابهم إلى ذلك؛ وحملوا ما كان عليهم وعاد إلى خراسان.

كان على مسعود بعد ذلك ان يجابه الخطر الاكبر للقوة المتعاظمة التي بات يمتلكها الأتراك السلاجقة. ففي مطلع سنة ٤٢٨ هـ = ١٠٣٧ م، علم مسعود ان الغز قد اعملوا في بلاده تدميراً وقتلاً وسبياً، فأقام ببلخ؛ ليعطي قواته فرصة للراحة، وانتظر حتى انتهى من قتال الخوارزمية والخانية، ثم أمد - الحاجب سباشي - بالجند، ودعمه؛ وأمره بغزو السلاجقة واستئصالهم، ولكن الحاجب سباشي لم يكن يمتلك القدرة الكافية لقتالهم وحسم الصراع معهم؛ فلجأ إلى المطاولة والمماطلة التي كانت من عاداته، فسار مسعود من بلخ بنفسه، وقصد - سرخس - فتجنّب - الغز - قتاله، واعتمدوا على

الخداع والمخاتلة، وأظهروا العزم على دخول المفازة الفاصلة بين مرو ـ وخوارزم. لكن قوات مسعود استمرت في مطاردتها لهم وتعقب آثارهم، فوقعت معركة قتل فيها كثير من الغز، ثم اشتبك مسعود معهم في معركة أخرى كان النصر فيها إلى جانبه، فابتعدوا عنه، ثم عادوا الى مسافة قريبة منه بنواحي مرو، فاشتبك معهم في معركة أخرى وقتل منهم نحو ألف وخمسمائة قتيل، وهرب الباقون ودخلوا الى المفازة التي يحتمون بها، وثار أهل ـ نيسابور ـ بمن كان عندهم من الأتراك السلاجقة، فقتلوا بعضاً وانهزم الباقون فلحقوا بأصحابهم في المفازة ـ الصحراء ـ وسار مسعود الى هراة، من أجل إعادة تنظيم قواته والاستعداد لاستئناف مطاردتهم وقتالهم أينما كانوا. فعاد ـ طغرل بك ـ إلى الأطراف النائية عن مسعود، وأعمل فيها نهباً وتخريباً وأثخن في أهلها قتلاً وسبياً، فحينئذ سار إليه مسعود، فلما قاربه فر ـ طغرل بك ـ وتجنب القتال، وانسحب الى ـ استوا ـ وأقام بها.

وكان الزمان شتاء فظن ـ طغرل بك ـ أن الثلج والبرد ستمنع مسعوداً من مطاردته، لكن مسعوداً استمر في المطاردة، فانسحب طغرل بك وسلك الطريق على طوس واحتمى بجبال منيعة ومضايق صعبة المسالك، فسير مسعود في طلبه جيشاً كبيراً بقيادة وزيره أحمد بن محمد بن عبدالصمد، فطوى المراحل إليه في قوة من الفرسان الخفيفة. فلما رأى ـ طغرل بك ـ قربه منه، غادر مكانه الى نواحي ـ ابيورد ـ وكان مسعود قد سار ليقطعه عن جهة إن أرادها، فلقي مقدمة قوات طغرل بك، واشتبك معها وانتصر عليها. واستأمن من أصحاب طغرل بك جماعة كثيرة. ورأى طغرل بك بأن الدوائر تضيق من حوله، فعاد ودخل المفازة الى خوارزم وأوغل فيها.

فلما فارق الغز خراسان، توجه مسعود نحو جبل من جبال طوس؛ منيعاً لا يرام، وكان أهله قد وافقوا الغز وأفسدوا، فلما غادر الغز تلك البلاد، تحصن هؤلاء بجبلهم ثقة منهم بحصانته وامتناعه، فسار مسعود إليهم بقوة خفيفة من الفرسان، فلم يرعهم إلا وقد خالطهم، فتركوا أهلهم وأموالهم وصعدوا الى قمة الجبل، واعتصموا بها، وامتنعوا.

وغنم عسكر مسعود أموالهم وما ادخروه، ثم أمر مسعود أصحابه أن يزحفوا إليهم في قمة الجبل، وباشر هو القتال بنفسه، فزحف الناس إليهم وقاتلوهم قتالاً لم يروا مثله، وكان الزمان شتاء والثلج على الجبل كثيراً. فهلك من العسكر في مخارم الجبل وشعابه كثير. ثم إنهم ظفروا بأهله وأكثروا فيهم القتل والأسر، وفرغوا منهم وأراحوا المسلمين من شرّهم.

وعاد مسعود من غزنة إلى بلخ في سنة ٤٣٠ هـ = ١٠٣٩ م. وزوج ابنه من ابنة بعض ملوك الغز ليتّقي جانبه، وأقطع ـ خوارزم ـ إلى شاه ملك الجندي. فسار إليها وبها خوارزم شاه اسماعيل بن التونتاش، فجمع هذا جيشه، وتصدى لجيش شاه ملك الجندي، ودامت الحرب بينهما مدة شهر، وانهزم اسماعيل، والتجأ الى طغرل بك وأخيه داود ـ ملوك السلاجقة ـ ودخل شاه ملك الجندي خوارزم منتصراً. وتابع مسعود قتاله للأتراك ـ الغز ـ سنة ٤٣١ هـ = ١٠٤٠ م. ووقعت بينه وبينهم اشتباكات نجح فيها مسعود بانتزاع قلعة كانت بيد الغز في خراسان؛ وأجلاهم عن خراسان، فلجؤوا إلى الصحراء.

رجع مسعود بن محمود بن سبكتكين من خراسان إلى غزنة، فقبض على عدد من الأمراء الذين أظهروا تمرّدهم، وعمل على تعيين آخرين. وسير ولده ـ مودود ـ إلى خراسان في جيش كثيف ليمنع السلاجقة من الرجوع إليها. فسار مودود إلى بلخ ـ. وسار مسعود بعده بسبعة أيام يريد بلاد الهند ليشتوا بها على عادة والده، فلما سار أخذ معه أخاه محمداً، واستصحب الخزائن والأموال، وكان عازماً على الاستنجاد بالهند على قتال السلاجقة؛ ثقة منه بعهودهم؛ فلما عبر نهر سيحون الكبير، وعبر بعض خزائن الأموال، اجتمع أحد قادته ـ أنوشتكين البلخي ـ بقادة آخرين، وجمع قوة، ونهب ما تخلّف من خزائن الأموال التي لم تعبر النهر بعد؛ وأقبلوا على أخيه محمد وسلموا عليه بالإمارة؛ فامتنع من قبول ذلك؛ فتهددوه وأكرهوه، فاستجاب لهم. وبقي مسعود فيمن معه من العسكر، ونظمهم، والتقى الجمعان، فاقتتلوا وعظم الخطب على الطائفتين، ثم انهزم عسكر مسعود وتحصّن هو في رباط ـ ماريكله ـ فحصره أخوه،

فامتنع عليه، فقالت له أمه: « إن مكانك لا يعصمك، ولأن تخرج إليهم بعهد خير من أن يأخذوك قهراً ». فخرج إليهم. فقبضوا عليه. فقال له أخوه محمد: « والله لا قابلتك على فعلك بي، ولا عاملتك إلاّ بالجميل، فانظر أين تريد أن تقيم حتى أحملك إليه، ومعك أولادك وحرمك » فاختار الإقامة في قلعة ـ كيلي ـ فأرسله إليها تحت الحراسة، وأمر بإكرامه وحمايته. وأرسل مسعود إلى أخيه محمد يطلب منه مالاً ينفقه، فأرسل إليه خمسمائة درهم، فبكى مسعود وقال: « كان بالأمس حكمي على ثلاثة آلاف حمل من الخزائن؛ واليوم لا أملك الدرهم الفرد » فأعطاه الرسول من ماله ألف دينار فقبلها. ثم إن محمداً فوض أمر دولته إلى ولده أحمد، وكان فيه خبط وهوج، فاتفق هو وابن عمّه يوسف بن سبكتكين على قتل مسعود، ليصفو الملك له ولوالده، فدخل إلى أبيه وطلب خاتمه بزعم ختم بعض الخزائن، فأعطاه، فسار به الى القلعة، وأعطوا الخاتم لمستحفظها ـ قائد حاميتها ـ وقالوا: « معنا رسالة إلى مسعود » فأدخلهم إليه فقتلوه. فلما علم محمد بذلك ساءه وشق عليه وأنكره. ثم كتب الى ابن أخيه ـ مودود ـ وهو بخراسان وقال له: « إن والدك قتل قصاصاً؛ قتله أولاد أحمد ينالتكين بلا رضا مني ». لكن مودود عرف الحقيقة، فكتب إلى عمّه: **« أطال الله بقاء الأمير القاسم، ورزق ولده المعتوه أحمد عقلاً يعيش به. فقد ركب أمراً عظيماً. وأقدم على إراقة دم ملك مثل والدي الذي لقبه أمير المؤمنين بلقب سيد الملوك والسلاطين، وستعلمون في أي حتف تورطتم، وأي شرّ تأبّطتم. وسيعلم الذين ظلموا أي منقلب ينقلبون:**

نفلق هاماً من رجال أعزة علينا، وهم كانوا أعق وأظلما ».

ثم إن مودوداً أسرع بقيادة جيشه، وسار به إلى غزنة، حيث التقى بجيش عمّه محمد ودارت معركة حاسمة انتصر فيها مودود، وقبض على عمّه محمد وعلى ولده أحمد وعلى أنوشتكين الخصي البلخي وابن علي خويشاوند فقتلهم وقتل أولاد عمّه جميعهم؛ إلاّ عبدالرحيم لإنكاره على أخيه عبدالرحمن ما فعله بعمّه عند قتله. وقتل كذلك كل من اشترك في المؤامرة على أبيه مسعود. وشيد في موضع الوقعة قرية ورباطاً وسمّاها ـ فتح

آباذ ـ وبعد أن انتقم لقتل والده (مسعود) (*) واستحوذ على الملك، عاد الى غزنة، واستوزر أبا نصر ـ وزير أبيه ـ وأظهر العدل وحسن السيرة وسلك سيرة جدّه محمود. وكان داود أخو طغرل بك قد استولى على مدينة بلخ واستباحها، فيما كان مودود يستعد لقتاله، عندما قتل مسعود، فلمّا فرغ مودود من تصفية المشكلة مع عمّه؛ وعاد الى غزنة ظافراً. تجدد عزم أهل هراة على قتال الغز السلاجقة؛ واستمدوا من انتصار مودود تصمياً، فهاجموا الغز السلاجقة وأخرجوهم من ديارهم، وحفظوا بلدهم لمودود. واستقر ملك أبيه له.

سار الغز السلاجقة قدماً على طريق بناء دولتهم بقوة وثبات؛ رغم ما تعرضوا له من نكبات وكوارث واستطلع ـ طغرل بك ـ وأشقاؤه فرض سيطرتهم على جرجان وطبرستان وخوارزم وهمذان والري وبلاد الجبل وكرمان وشهرزور. وتقلصت حدود دولة ـ آل سبكتكين ـ تباعاً حتى إذا ما كانت سنة ٤٣٥ هـ = ١٠٤٣ م وجه مودود جيشاً إلى نواحي خراسان بقيادة حاجب له، فأرسل طغرل بك جيشاً بقيادة ابنه ألب أرسلان فالتقى الجيشان، ودارت معركة كان النصر فيها الى جانب جيش ألب أرسلان. فعاد جيش مودود الى غزنة منهزماً. وقام الغز السلاجقة على أثر ذلك بالتوجّه نحو ـ بست ـ فأعملوا فيها نهباً وقتلاً، فسير إليهم مودود جيشاً قاتلهم قتالاً شديداً، فانهزم الغز، وكثر فيهم القتل والأسر.

(*) السلطان مسعود بن محمود بن سبكتكين ـ قتل سنة ٤٣٢ هـ = ١٠٤٠ م. «كان شجاعاً كريماً، ذا فضائل كثيرة، محباً للعلماء، كثير الإحسان إليهم والتقرّب لهم، صنفوا له التصانيف الكثيرة في فنون العلوم. وكان كثير الصدقة والإحسان إلى أهل الحاجة. تصدّق مرة في شهر رمضان بألف ألف درهم، وأكثر الادرارات والصلات، وعمر كثيراً من المساجد في ممالكه. وكانت صنائعه ظاهرة مشهورة سارت بحديثها الركبان، مع عفة عن أموال رعاياه. أجاز الشعراء بجوائز عظيمة، وأعطى شاعراً على قصيدة ألف دينار، وأعطى آخر بكل بيت ألف درهم. وكان يكتب خطاً حسناً. وكان ملكه عظيماً فسيحاً، فملك أصبهان والري وسجستان والسند والرخج وغزنة وبلاد الغور والهند. وقد صنفت فيه التصانيف المشهورة».

حدث أثناء ذلك ان اجتمع ثلاثة ملوك من ملوك الهند وقصدوا ـ هاوور ـ وحصروها. فجمع مقدم العساكر الإسلامية ببلاد الهند قواته، وأرسل إلى مودود يستنجده ويستمدّه، فسير إليه جيشاً، غير أن أحد هؤلاء الملوك عاد فانسحب من اتفاقه وأعلن طاعته لمودود والخضوع له. وعاد الملكان الآخران الى بلادهما. وسار الجيش الإسلامي الى أحدهما واسمه ـ دوبال هربانه ـ فهرب هذا منهم وصعد الى قلعة له منيعة هو وعساكره، فاحتموا بها، وكانوا خمسة آلاف فارس وسبعين ألف راجل، وحصرهم المسلمون وضيقوا عليهم وأكثروا القتل فيهم، فطلب الهنود الأمان على تسليم الحصن، فامتنع المسلمون من إجابتهم إلى ذلك إلاّ بعد أن يضيفوا إليه باقي حصون ذلك الملك الذي لهم، فحملهم الخوف وانعدام الاقوات والمواد التموينية على قبول ما طلبه المسلمون الذين تسلّموا الحصون جميعها وأطلقوا ما في الحصون من أسرى المسلمين؛ وكانوا نحو خمسة آلاف مسلم. فلما فرغوا من هذه الناحية قصدوا ولاية الملك الثاني ـ واسمه ثابت بالري ـ فتقدّم المسلمون إليهم واقتتلوا معهم قتالاً شديداً وانهزمت الهنود، وأسفرت المعركة عن قتل ملكهم وخمسة آلاف قتيل وجريح وأسر ضعفاؤهم؛ وغنم المسلمون أموالهم وسلاحهم ودوابهم، فلمّا رأى باقي الملوك من الهند ما لقي هؤلاء، أذعنوا بالطاعة، وحملوا الأموال. وطلبوا الأمان والإقرار على بلادهم، فأجابهم مودود إلى ذلك.

لقد حاول مودود بذل كل جهد مستطاع للمحافظة على دولته والإبقاء عليها، غير أن تيار الغز السلاجقة كان أقوى من محاولاته؛ رغم ما حقّقه من انتصارات عليهم في عدد من المعارك. فلما كانت السنة التالية (٤٤١ هـ = ١٠٤٩ م) أرسل الرسائل الى أمراء الأقاليم وحكامها في سائر البلاد، وطلب إليهم نصرته ودعمه بالقوات، وبذل لهم الأموال الكثيرة، وأسند حكم خراسان ونواحيها إلى عدد من الرجال الأكفاء ـ على قدر مراتبهم ـ واستجاب له الأمراء والحكام. وأرسلوا له جيوشهم فسار بهم من غزنة لقتال الغز السلاجقة ـ ولكنه لم يسر أكثر من مرحلة واحدة حتى دهمه المرض، واشتد عليه، فعاد الى غزنة، ووجّه جيشه بقيادة وزيره ـ أبي الفتح عبدالرزّاق أحمد الميمندي

لإخراج الغز السلاجقة من ـ سجستان ـ. ولم يلبث (السلطان ـ أبو الفتح ـ مودود) (*) أن توفي. فكانت وفاته هي النهاية الكئيبة والمحزنة لدولة جاهدت على امتداد عشرات السنين لنقل الإسلام الى الهند ـ ذلك المحيط الشاسع.

بايع الناس ـ في غزنة ـ ولد السلطان مودود ـ ثم عدلوا عنه فبايعوا عمّه عبدالرشيد ابن محمود. وأسرع الغز السلاجقة بالتحرك، فقتلوا من بقي من حكام هذه الأسرة واستولوا على ممالكهم.

(*) السلطان مودود بن مسعود بن محمود بن سبكتكين (٤١٢ هـ = ١٠٢١-١٠٤٩ م) اقتصر ملكه في نهاية أمره على غزنة. ومات وعمره تسع وعشرون سنة. ودام ملكه تسع سنين وعشرة أشهر. لقب بلقب ـ أبو الفتح ـ وكان آخر الرجال الكبار من آل سبكتكين الذين نذروا حياتهم للجهاد في سبيل الله.



٥ ـ الحروب البحرية

أ ـ مصر تقود الجهاد البحري .

ب ـ صقلية قاعدة للمسلمين .



١ - مصر تقود الجهاد البحري.

لقد كان الجهاد في البحر مأثرة فاز بها أمير المؤمنين معاوية بن أبي سفيان، رضي الله عنه؛ وأمسك بها خلفاء بني أمية، حتى انتزعوا من الروم سيادتهم على البحر الأبيض المتوسط، وحولوا هذا البحر الذي كان يحمل اسم - بحر الروم - إلى ما أصبح يعرف باسم - بحر الشام -. ومع زوال العهد الأموي؛ ثم ظهور دولة الأمويين في الأندلس؛ اضطلع العهد الأموي الأندلسي بما كان يضطلع به من قبل؛ فحفظ للقسم الغربي من هذا البحر السيادة للعرب المسلمين. وأهمل العباسيون قضية الجهاد في البحر؛ حتى خلت الحوليات التاريخية من أي ذكر لغزوات بحرية؛ الأمر الذي أتاح الفرصة أمام الروم لبناء قدرة بحرية جديدة؛ وبدأت محاولات الروم من جديد لفرض وجودهم البحري في شرقي المتوسط. وقد ظهر ذلك بعد انقضاء قرن تقريباً على قيام العهد العباسي. ففي سنة ٢٣٨ هـ = ٨٥٢ م. جاءت للروم ثلاثمائة مركب بقيادة القادة - عرفا وابن قطونا وأمر دناقة - وكانوا هم قادة البحر؛ ومع كل واحد منهم مائة مركب؛ فأنزل - ابن قطونا - قواته في دمياط؛ وبينها وبين الشط شبيه بالبحيرة يكون فيها الماء إلى صدر الرجل؛ فمن جازها إلى الأرض أمن من مراكب البحر؛ فجازها قوم فسلموا وغرق قوم كثير من نساء وصبيان؛ واحتمل من كانت له قوة في السفن؛ فنجوا إلى ناحية الفسطاط، وبينها وبين الفسطاط مسيرة أربعة أيام. وكان والي معونة مصر - عنبسة بن إسحاق الضبي - قد أصدر أمره إلى الحامية المقيمة في دمياط بالانتقال إلى الفسطاط؛ وأخلى دمياط من الجند. ووصلت مائة مركب للروم؛ يحمل كل مركب ما بين الخمسين رجلاً إلى المائة رجل؛ فنزلوا بدمياط؛ وأحرقوا ما وصلوا إليه من دورها وأخصاصها؛ واحتملوا سلاحاً كان فيها، أرادوا حمله إلى أبي حفص صاحب أقريطش - كريت -. وقتلوا من أمكن قتله من الرجال؛ وأخذوا من الأمتعة ما كان قد عبىء ليرسل إلى العراق. وسبوا من المسلمات والقبطيات نحواً من ستمائة

امرأة. وانسحب الروم بعد أن أحرقوا المسجد الجامع بدمياط، وأحرقوا كنائس؛ وغرق من النساء والصبيان أكثر مما سباه الروم.

هكذا فرض الروم تحدياتهم البحرية على مصر؛ وجاء والي مصر - أحمد بن طولون - ليرد على التحدي؛ ففي سنة ٢٦٤ هـ = ٨٧٧ م قام أمير صقلية - جعفر بن أمير - بغزو مدينة سرقوسة؛ وهي من أعظم مدن صقلية؛ فأفسد زرعها وزرع قطانية وطبرمين ورمطة وغيرها من بلاد صقلية التي كانت بيد الروم؛ ونازل سرقوسة وحاصرها براً وبحراً؛ وملك بعض أرباضها - نواحيها - ووصل مراكب الروم نجدة لها؛ فسير لها اسطولاً، فأصابوها؛ فتمكنوا حينئذ من حصرها. وأقام العسكر محاصراً لها تسعة أشهر؛ وفتحت وقتل من أهلها عدة ألوف؛ وأصيب فيها من الغنائم ما لم يصب بمدينة أخرى؛ ولم ينج من رجالها إلا الشاذ الفذ. وأقاموا فيها بعد فتحها شهرين؛ ثم هدموها؛ ثم وصل بعد هدمها من القسطنطينية اسطول، فالتقوا هم والمسلمون؛ فظفر بهم المسلمون؛ وأخذوا منهم أربع قطع؛ فقتلوا من فيها؛ وانصرف المسلمون إلى بلدهم.

عاد اسطول الروم فاشتبك مع اسطول المسلمين عند صقلية سنة ٢٦٦ هـ = ٨٧٩ م؛ وجرى بينهما قتال شديد؛ فظفر الروم بالمسلمين وأخذوا مراكبهم؛ وانهزم من سلم منهم إلى مدينة بالبرمو - أوباليرم - بصقلية. وفي سنة ٢٦٨ هـ = ٨٨١ م سارت سرية بصقلية؛ بقيادة رجل اسمه - أبو الثور - فلقيهم جيش من الروم؛ فأصيب المسلمون كلهم غير سبعة نفر؛ فعمل أحمد بن طولون على عزل حاكم صقلية - الحسن ابن العباس - وعين مكانه - محمد بن الفضل - فبث السرايا في كل ناحية من صقلية؛ وخرج هو في حشد وجمع عظيم؛ فسار إلى مدينة قطانية فأهلك زرعها ثم رحل؛ فلقي عساكر الروم؛ فاقتتلوا، فانهزم الروم وقتل أكثرهم؛ فكانت عدة القتلى ثلاثة آلاف قتيل. ثم سار المسلمون إلى قلعة كان الروم قد بنوها منذ عهد قريب؛ وأطلقوا عليها اسم - مدينة الملك - فملكها المسلمون عنوة؛ وقتلوا مقاتلتها وسبوا من فيها. وقام - محمد بن الفضل - في السنة التالية (٢٦٩ هـ = ٨٨٢ م) قاد قواته إلى ناحية رمطة؛ وبلغ العسكر إلى قطانية؛ فقتل كثيراً من الروم؛ وسبى وغنم؛ ثم انصرف إلى بالبرمو.

لقد كانت ـ صقلية ـ هي القاعدة المتقدمة التي تستخدمها البحرية البيزنطية للعدوان. ولهذا فإن قضية الصراع ضدها لم تكن قضية شخص؛ وإنما كانت قضية سياسة استراتيجية ثابتة بالنسبة لمصر. فقد توفي (أحمد بن طولون) (*) وتوفي في السنة ذاتها أمير صقلية (٢٧٠ هـ = ٨٨٣ م) فولى بعده ـ سوادة بن محمد بن خفاجة التميمي ـ فقدم إليها وقاد جيشاً كبيراً إلى مدينة قطانية؛ فأهلك ما فيها؛ وسار إلى طبرمين؛ فقاتل أهلها؛ وأفسد زرعها؛ وتقدم فيها؛ فأتاه رسول بطريق الروم يطلب الهدنة والمفاداة؛ فهادنه ثلاثة أشهر وفاداه ثلاثمائة أسير من المسلمين فرجع ـ سوادة ـ إلى باليرمو. فلما انقضت مدة الهدنة؛ سير أمير صقلية ـ سوادة ـ السرايا إلى بلاد الروم بصقلية، فغنمت وعادت. ووجهت القسطنطينية ـ سنة ٢٧٢ هـ = ٨٨٥ م ـ قوة بحرية بقيادة ـ انجفور ـ فنزل على مدينة سبرينة فحصرها وضيق على من بها من المسلمين، فسلموها على أمان. ثم وجه ـ انجفور ـ عسكراً ـ إلى مدينة منتيه، فحصرها حتى سلمها أهلها بأمان، ولحق المسلمون في مدينة ـ باليرمو ـ بصقلية.

عزل أمير افريقية حاكم صقلية (سنة ٢٨٧ هـ = ٨٩٠ م) لأنه استضعفه، وعين مكانه ـ أبا العباس بن ابراهيم بن أحمد بن الأغلب ـ فدخل هذا صقلية في سنة ٢٨٨ هـ. وتجهز للغزو؛ وعمر الأسطول؛ وسار إلى مسينى ـ أومسينا ـ ثم تجاوزها إلى ريو؛ وقد اجتمع بها كثير من الروم؛ فقاتلهم على باب المدينة وهزمهم وملك المدينة بالسيف؛ وغنم من الذهب والفضة ما لا يحد؛ وشحن المراكب بالدقيق والأمتعة. ورجع إلى ـ مسينى ـ وهدم سورها ووجد بها مراكب قد وصلت من القسطنطينية؛ وأخذ منها ثلاثين مركباً؛ ورجع إلى المدينة. تكررت غزوات البحرية المصرية بعد

(*) أحمد بن طولون ـ مؤسس الدولة الطولونية في مصر. حكم مصر والشام والثغور الشامية نحو ست وعشرين سنة (٢٤٤ ـ ٢٧٠ هـ = ٨٥٨ ـ ٨٨٣ م) اشتهر بالكفاءة العالية؛ كان عاقلاً، حازماً، كثير المعروف والصدقة، متديناً، يحب العلماء وأهل الدين. وعمل كثيراً من أعمال البر ومصالح المسلمين. وهو الذي بنى قلعة يافا وكانت المدينة بغير قلعة. وكان يميل إلى مذهب الشافعي؛ ويكرم أصحابه؛ وولي بعده ابنه خارويه.

ذلك، غير أن أكبر حدث وقع بعد ذلك هو ما حدث سنة ٣١٣ هـ = ٩٢٥ م؛ حيث سار جيش صقلية مع أميرهم - سالم بن راشد - وأرسل إليهم المهدي جيشاً من افريقية؛ فسار إلى أرض - انكبردة؛ ايطاليا - ففتحوا أبرجة وغنموا غنائم كثيرة؛ ثم ساروا إلى أرض قلورية وقصدوا مدينة طارنت - تورنتو - فحصروها وفتحوها بالسيف؛ ووصلوا إلى مدينة - اذرنت - فحصروها وخربوا منازلها. ولم يزل أهل صقلية يغيرون على ما بأيدي الروم من جزيرة صقلية وقلورية وينهبون ويخربون.

توافرت المعلومات لملك الروم عن اضطراب أوضاع المسلمين في صقلية؛ وحدوث صراعات وحروب بعضهم ضد بعض؛ فوجه إليهم في سنة ٣٣٦هـ = ٩٤٧م؛ بطريقاً في البحر في جيش كثير، فأرسل أمير صقلية - الحسن بن علي بن أبي الحسن الكلبي - إلى أمير مصر - المنصور - يشرح له الموقف ويستمده؛ فأرسل إليه المنصور أسطولاً فيه سبعة آلاف فارس وثلاثة آلاف وخمسمائة راجل سوى البحرية. وجمع الحسن إليهم جمعاً كثيراً؛ وسار في البر والبحر؛ فوصل إلى مسيني - أومسينا - وعبرت العساكر الإسلامية إلى - ريو - وبث الحسن السرايا في أرض - قلورية؛ وهي جزيرة في شرقي صقلية -. وعلم الحسن أن الروم قد زحفوا إليه؛ فصالح أهل مدينة كان يحاصرها - اسمها جراجة - وسار إلى لقاء الروم؛ ففروا من غير حرب إلى مدينة بارة - ونزل الحسن على قلعة قسانة، وبث سراياه إلى قلورية. وأقام عليها شهراً، فسألوه الصلح؛ فصالحهم على مال أخذه منهم. ودخل الشتاء، فرجع المسلمون إلى مسينا، وشتى الأسطول بها. فأرسل أمير مصر - المنصور - أمراً إلى الحسن بالعودة إلى قلورية؛ فسار وعبر المضيق - المجاز - إلى جراجة - فالتقى المسلمون والروم (سنة ٣٤٠ هـ = ٩٥١ م) فاقتتلوا أشد قتال عرفه الناس؛ فانهزمت الروم؛ وركب المسلمون أكتافهم إلى الليل؛ وأكثروا القتل فيهم. وغنموا أثقالهم وسلاحهم ودوابهم. وقصد المسلمون في السنة التالية - جراجة - فحصروها؛ فأرسل ملك الروم قسطنطين يطلب الهدنة، وتم ذلك. وعاد الحسن بجيشه إلى - ريو - وبنى بها مسجداً كبيرا في وسط المدينة؛ وبنى في أحد أركانه مئذنة، وشرط على الروم أنهم لا يمنعون المسلمين من عمارته وإقامة الصلاة فيه والأذان.

وأن لا يدخله نصراني؛ ومن دخله من الأسارى المسلمين فهو آمن سواء كان مرتداً أو مقيماً على دينه؛ وإن أخرجوا حجراً منه هدمت كنائسهم كلها في صقلية وإفريقية. فرضي الروم. والتزموا بهذه الشروط (*) .

(*) الكامل في التاريخ - أحداث سنة ٣٣٦ و٣٤٠ هـ.

ب ـ صقلية قاعدة للمسلمين.

هكذا أصبحت صقلية هي القاعدة المتقدمة للمسلمين، والتي تمكنت من إشغال الروم بأنفسهم؛ بدلاً من توجيه قدرتهم البحرية ضد ثغور المسلمين؛ سواء في الشام أو في مصر. ولهذا فقد عرفت أرض جزيرة صقلية وسواحلها صراعاً قاسياً ومريراً؛ استمر طويلاً، غير أنه كان على فترات متقاربة أحياناً؛ ومتباعدة في أحيان أخرى؛ تبعاً لما كان يحكم الصراع المسلح من ظروف داخلية أو خارجية. وفي سنة ٣٥١ هـ = ٩٦٢ م. سارت جيوش المسلمين بصقلية بقيادة الأمير الحسن إلى قلعة ـ **طبرمين**؛ من صقلية أيضاً وهي بيد الروم وقد وصفت بـأنها مـن أمنـع الحصـون وأشـدهـا على المسلمين ـ فحصروها؛ فامتنع أهلها؛ ودام الحصار عليهم؛ فلما رأى المسلمون ذلك عمدوا إلى الماء الذي يدخلها فقطعوه عنها وأجروه إلى مكان آخر؛ فعظم الأمر عليهم؛ وطلبوا الأمان؛ فلم يجابوا إلى ذلك؛ فعادوا وطلبوا أن يؤمنوا على دمائهم؛ ويكونوا رقيقاً للمسلمين؛ وأموالهم فيئاً؛ فأجيبوا إلى طلبهم. وأخرجوا من البلد؛ وملكه المسلمون بعد حصار استمر سبعة أشهر ونصف الشهر. وأسكن القلعة نفراً من المسلمين؛ وسميت ـ المعزية نسبة إلى المعز العلوي صاحب افريقية ـ. وسار جيش من الروم في البحر إلى جزيرة أقريطش ـ كريت ـ فأرسل أهلها إلى المعز لدين الله العلوي صاحب افريقية يستنجدونه؛ فأرسل إليهم نجدة؛ فقاتلوا الروم، فانتصر المسلمون؛ وأسر من كان بالجزيرة من الروم.

خاف الروم بصقلية؛ من استيلاء المسلمين على ـ طبرمين ـ فأرسلوا إلى ملك الروم بالقسطنطينية يعلمونه الحال؛ ويطلبون منه أن ينجدهم بالجند، فجهز إليهم عسكراً عظيماً زاد على أربعين ألف مقاتل؛ وسيرهم في البحر؛ فوصلت الأخبار إلى أمير صقلية، فأرسل هذا إلى أمير افريقية ـ المعز ـ يعرفه الحال ويستمده ويسأله ارسال العساكر إليه سريعاً؛ وانصرف في الوقت ذاته إلى إصلاح الأسطول والزيادة فيه؛ وجمع الرجال المقاتلة في البر والبحر. وأثناء ذلك كان المعز قد حشد جيشاً ووجهه إلى صقلية؛ فسار بعض الجيش إلى ـ **رمطة** ـ التي كان يحاصرها المسلمون، وعملوا على

دعم الحصار. ووصل الروم إلى صقلية ونزلوا عند مدينة ـ مسينا ـ وزحفوا منها بجموعهم التي لم يدخل صقلية مثلها ـ إلى رمطه ـ فلما علم مقدم جيش المسلمين ـ الحسن ابن عمار ـ ترك قسماً من جيشه للابقاء على حصار رمطة ومنع أحد من الخروج منها؛ وخرج ببقية جيشه للقاء الروم؛ وقد عزم وجنده على القتال حتى الموت. ووصل الروم؛ وأحاطوا بالمسلمين، ونزل أهل رمطة لقتال القوة التي تحاصرهم؛ وليأتوا المسلمين من ظهورهم. فقاتلهم المسلمون وصدوهم عما أرادوا. وتقدم الروم إلى القتال وهم مدلون بكثرتهم وبما معهم من الأعتدة وغيرها؛ والتحم القتال، وعظم الأمر على المسلمين؛ وألحقهم العدو بخيامهم؛ وأيقن الروم بالظفر. فلما رأى المسلمون عظم ما نزل بهم اختاروا الموت؛ ورأوا أنه أسلم لهم (*) .وحمل بهم أميرهم ـ الحسن بن عمار ـ وحمي الوطيس حينئذ؛ وحرضهم على قتال الكفار. وكذلك فعل بطارقة الروم الذين حملوا وحرضوا عساكرهم. وحمل مقدم الروم ـ مانوئيل ـ فقتل في المسلمين. فطعنه المسلمون؛ فلم يؤثر فيه لكثرة ما عليه من اللباس؛ فرمى بعضهم فرسه فقتله، واشتد القتال عليه، فقتل هو وجماعة من بطارقته، فلما قتل انهزم الروم أقبح هزيمة؛ وأكثر المسلمون فيهم القتل. ووصل المنهزمون إلى جرف خندق عظيم كالحفرة؛ فسقطوا فيها من خوف السيف؛ فقتل بعضهم بعضاً حتى امتلأت؛ وكانت الحرب من بكرة إلى العصر. وبات المسلمون يقاتلونهم في كل ناحية؛ وغنموا من السلاح والخيل وصنوف الأموال ما لا يحد. وكان في جملة الغنيمة سيف هندي عليه مكتوب: «هذا سيف هندي وزنه مائة وسبعون مثقالاً؛ طالما ضرب به بين يدي رسول الله ﷺ» فأرسل إلى المعز مع الأسرى والرؤوس. وسار من سلم من الروم إلى ريو. وأما أهل رمطة فإنهم ضعفت نفوسهم؛ وكانت الأقوات قد قلت عندهم، فأخرجوا من فيها من الضعفاء، وبقي المقاتلة، فزحف إليهم المسلمون، وقاتلوهم إلى الليل؛ ولزموا القتال في الليل أيضاً. وتقدموا بالسلاليم؛ فملكوها عنوة؛ وقتلوا من فيها؛ وسبوا الحرم والصغار؛ وغنموا ما فيها وكان شيئاً كثيراً عظيماً. ورتب فيها من المسلمين من يعمرها ويقيم

(*) ردد المسلمون يومها قول الشاعر:

تأخرت أستبقي الحياة فلم أجد   لنفسي حياة مثل أن أتقدما.

فيها. ثم أن الروم تجمع من سلم منهم وأخذوا معهم من في صقلية وجزيرة ريو منهم؛ وركبوا مراكبهم يحفظون نفوسهم؛ فركب الأمير في عساكره وأصحابه في المراكب أيضاً؛ وزحف إليهم في الماء؛ وقاتلهم واشتد القتال بينهم. وألقى جماعة من المسلمين نفوسهم في الماء؛ وخرقوا كثيراً من المراكب التي للروم، فغرقت؛ وكثر القتل في الروم، فانهزموا لا يلوي أحد على أحد. وسارت سرايا المسلمين في مدائن الروم؛ فغنموا منها؛ فبذل أهلها لهم من الأموال وهادنوهم. وهذه الوقعة الأخيرة التي نفذت سنة ٣٥٤ هـ = ٩٦٥ م هي المعروفة باسم (وقعة المجاز).

سار أمير صقلية بعد ذلك (سنة ٣٦٥ هـ = ٩٧٥ م) وجيشه؛ ومعه جماعة من الصالحين والعلماء، فنازل مدينة مسينا، فهرب الروم عنها؛ وعبر المسلمون إلى - كسنتة - فحصروها أياماً؛ فسأل أهلها الأمان، فأجابهم الأمير إلى ذلك؛ وأخذ منهم مالاً؛ ورحل عنها إلى قلعة - جلوا - ففعل ذلك بها وبغيرها، وأمر الأسطول بالسير إلى ناحية - بربولة - وأن يثبت السرايا في جميع أنحاء قلورية؛ ففعل ذلك؛ فغنم غنائم كثيرة؛ وقتل وسبى وعاد إلى المدينة؛ فلما كانت سنة ٣٦٦ هـ = ٩٧٦ م. أصدر أمير صقلية أوامره ببناء - رمطة - وكانت قد خربت قبل ذلك، وعاود الغزو وجمع الجيوش؛ وسار فنازل قلعة - اغاثة - فطلب أهلها الأمان؛ فأمنهم؛ وسلموا إليه القلعة بجميع ما فيها. ورحل إلى مدينة طارنت - تورنتو - فرأى أن أهلها قد هربوا منها؛ وأغلقوا أبوابها، فصعد الناس السور؛ وفتحوا الأبواب؛ ودخلها الناس فأمر الأمير بهدمها؛ فهدمت وأحرقت. وأرسل السرايا فبلغوا - أذرنت - وغيرها. ونزل على مدينة - عردلية - فقاتلها؛ فبذل أهلها له مالاً صالحهم عليه وعاد إلى المدينة.

جابه المسلمون مأزقاً صعباً في صقلية سنة ٣٧١ هـ = ٩٨١ م. فقد وصل جيش كبير من الفرنج - بقيادة الملك بردويل - فحصر قلعة مالطة؛ وملكها؛ وأصاب سريتين للمسلمين، فسار أمير صقلية - أبو القاسم - بجيش صغير لاستعادة القلعة، فلما قاربها؛ خاف من اللقاء، وجمع وجوه أصحابه؛ وقال لهم: «اني راجع من مكاني هذا؛ فاعملوا برأيي». فرجع هو وعساكره؛ وكان أسطول الكفار يساير المسلمين في البحر؛ فلما رأوا المسلمين راجعين؛ أرسلوا إلى ملكهم - بردويل - وأعلموه «بأن المسلمين

خائفون منك فالحق بهم فإنك تظفر ». فجرد الملك عسكره من أثقالهم، وسار بقوات خفيفة، وأسرع في مسيره. فنظم المسلمون قواتهم للمعركة، واقتتلوا، واشتدت الحرب بينهم؛ فحمل طائفة من الفرنج على قلب قوات المسلمين والاعلام، فمزقوا قوات المسلمين؛ ووصلوا إليها، وقد تفرق كثير من المسلمين عن أميرهم؛ واختل نظامهم. فوصل الفرنج إليه فأصابته ضربة على أم رأسه فقتل، وقتل معه جماعة من أعيان الناس وشجعانهم. ثم إن المنهزمين من المسلمين رجعوا مصممين على القتال ليظفروا أو يموتوا. واشتد حينئذ الأمر؛ وعظم الخطب على الطائفتين. فانهزم الفرنج أقبح هزيمة، وقتل منهم نحو أربعة آلاف قتيل. وأسر من بطارقتهم كثير. وتبعوهم إلى أن أدركهم الليل، وغنموا من أموالهم كثيراً. وأفلت ملك الفرنج هارباً ومعه رجل يهودي كان خصيصاً به، فوقف فرس الملك؛ فقال له اليهودي: « اركب فرسي؛ فإن قتلت فأنت لولدي » فركبه الملك وقتل اليهودي، فنجا الملك إلى خيامه وبها زوجته وأصحابه فأخذهم وعاد إلى - رومية -. ولما قتل الأمير - أبو القاسم (*) كان معه ابنه جابر؛ فقام مقام أبيه؛ ورحل بالمسلمين على الفور؛ ولم يمكنهم من جمع الغنائم؛ فتركوا كثيراً منها. وسأله أصحابه أن يقيم إلى أن يجمع السلاح وغيره؛ ويعمر بها الخزائن؛ فلم يفعل.

مضى زهاء نصف قرن من عمر الزمن ساد خلاله الهدوء النسبي على جبهة البحر؛ حتى إذا ما كانت سنة ٤١٦ هـ = ١٠٢٥ م؛ خرج الروم في جمع كثير؛ وملكوا ما كان للمسلمين في جزيرة قلورية - وهي المجاورة لجزيرة صقلية - وشرعوا في بناء المساكن ينتظرون وصول مراكبهم وجموعهم مع ابن اخت ملك الروم. فبلغ ذلك حاكم مصر - المعز بن باديس - فجهز أسطولاً كبيراً من أربعمائة قطعة؛ وحشد فيها؛ وجمع خلقاً كثيراً، وتطوع جمع كبير للجهاد رغبة في الأجر والثواب، فسار الاسطول، فلما قرب من جزيرة قوصرة - وهي قريبة من بر افريقية - خرج عليهم ريح شديدة؛ ونوء عظيم؛ فغرق أكثرهم؛ ولم ينج إلا اليسير.

(*) كانت مدة إمارة أبي القاسم لصقلية اثنتي عشرة سنة وخمسة أشهر (٣٦٠ - ٣٧٢ هـ = ٩٧٠ - ٩٨٢ م). اشتهر بإشاعة العدل وحسن السيرة والشفقة على رعيته والإحسان اليهم. مات ولم يخلف ديناراً ولا درهماً ولا عقاراً. ووقف جميع أملاكه على الفقراء وأبواب البر.

تولى النورمان بعد ذلك الهجوم ضد المسلمين؛ فانتزعوا منهم باليرمو سنة ٤٦٤ هـ = ١٠٧١ م. وما لبثوا أن انتزعوا منهم صقلية سنة ٤٨٤ هـ = ١٠٩١ م. وتطاول - روجر أو رجار - ملك صقلية فعمر اسطولاً كبيراً وملك الجزائر التي بين صقلية والمهدية مثل مالطة وقوصرة وجربة وقرقنة. وكان هذا الهجوم هو المقدمة للحروب الصليبية القديمة التي سارت إلى بلاد الشام ووصلتها سنة ٤٩١ هـ = ١٠٩٧ م.